

دكتور محمود محمد زقزوق
عميد كلية أصول الدين بالقاهرة
جامعة الأزهر

الأستاذ الامير في تصورات الغرب

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
تليفون ٩٣٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

جميع الحقوق محفوظة

دار التوزيع العمومية
الطبعة والمطبع
العدد ٣ صفحات المجلد
بجدة - عام ١٤٠٧ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

يعد هذا الكتاب - الذى يسعدنى اليوم ان اتقدم به الى القارىء الكريم - الكتاب الثالث فى السلسلة التى بدأت اصدارها فى عام ١٩٧٩ فى موضوع « الاسلام فى الفكر الغربى » . ففى ذلك العام صدر اول كتاب فى هذه السلسلة يحمل عنوان « الاسلام فى الفكر الغربى » (١) . وقد عرضت فيه صورتين مختلفتين للاسلام فى الغرب : اولاهما هى صورة الاسلام فى نظر المستشرقين من واقع نماذج من كتابات اثنين من المستشرقين المعاصرين مع مناقشة الآراء التى تضمنتها هذه الكتابات . اما الصورة الثانية فهى صورة الاسلام فى تصور كاتب اوروبى اعتنق الاسلام وارتضاه لنفسه ديناً .

وفى عام ١٩٨٣ (١٤٠٤ هـ) قدمت للقارىء الكتاب الثانى بعنوان « الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى » وقد تولت نشره رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية بدولة قطر فى سلسلة « كتاب الأمة » (٢) ، واليوم اقدم الكتاب الثالث بعنوان « الاسلام فى تصورات الغرب » (٣) : وهذه الكتب الثلاثة تعالج مشكلة الاستشراق والدراسات الاسلامية فى الغرب ، واثرت ذلك فى صياغة التصورات الغربية عن الاسلام -

١ (١) صدرت الطبعة الثالثة من هذا الكتاب عام ١٩٨٦ عن دار العلم بالكويت .

(٢) صدرت منه حتى الآن ثلاث طبعات فى قطر ، ثم تامت مؤسسة الرسالة فى بيروت بطبعه باذن من رئاسة المحاكم الشرعية بدولة قطر . وقد ترجم الكتاب نور صدوره الى اللغة الاندونيسية .

(٣) سيكون الكتاب الرابع باذن الله بعنوان « الاسلام فى تصور ادباء وفلاسفة الغرب » .

وقد اردت بهذه السلسلة ان يطلع القارئ المسلم على ابعاد هذه القضية القديمة الجديدة ، وما لها من تاثيرات ايجابية أو سلبية في صياغة الفكر الغربى فيما يتعلق بالاسلام ، وما لها ايضا من ردود فعل في الفكر الاسلامى فى العصر الحديث .

فالصورة السائدة عن الاسلام اليوم فى الغرب ليست مجرد صورة وقتية عارضة ، ولا هى بنت اليوم ، وانما هى صورة صاغتها قرون طويلة من الصراع الحضارى بين الاسلام والغرب . ومن الضرورى أن يتعرف القارئ المسلم على جذور هذه الصورة فى الفكر الغربى وعلى تطوّر التصورات الغربية عن الاسلام على مدى قرون عديدة . ونأمل أن يتحقق بعملنا هذا - وما سوف يتبعه ان شاء الله من أعمال اخرى فى هذا الموضوع - الوصول الى الاهداف التالية :

اولا : أن يكون المسلم المعاصر على بينة بما يجرى حوله ، وعلى وعى بما يكتب فى الغرب عن دينه وحضارته وتاريخه ، وعلى ادراك للأسباب البعيدة للمواقف الغربية عن الاسلام حتى لا يقف طويلا عند الظواهر السطحية العارضة التى لا تفصح عن الأسباب الحقيقية وراء ذلك .

ثانيا : أن يحفز ذلك المسلم المعاصر الى العمل لاعداد نفسه على المستوى الفكرى اعدادا يستطيع به ان يكون قادرا على مواجهة كل التيارات الفكرية الآتية من الشرق أو الغرب حتى لا يتخلف عن الركب ويدع الفرصة للاخرين لاحتوائه فيظل اسيرا لعقدة التخلف ومركبات النقص التى يراد ترسيخها فى ذهنه .

ثالثا : ان يدفع ذلك المؤسسات الاسلامية العلمية الى النهوض بمسئولياتها تجاه الاسلام فى مواجهة الحركة الاستشراقية فى الغرب .

وعد سبق لنا أن عرضنا بعض المقترحات فى هذا الشأن فى الفصل الثالث من كتابنا « الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى » .

والأمر الغريب حقا أن يكون هناك فى أوروبا وأمريكا ما يربو على مائة معهد للاستشراق تقوم جميعها بدراسة عقيدتنا وحضارتنا وتاريخنا كله ، ويتوفر لهذا العمل هناك كل الامكانيات المادية والفكرية . وفى الوقت نفسه لا يوجد فى العالم الاسلامى كله معهد واحد او مركز

علمى يخصص جهده لدراسة الكم الهائل من المؤلفات والمجلات والدوريات والموسوعات التى تصدرها المؤسسة الاستشرافية فى الغرب عن الاسلام ، ونكتفى فقط بالصياح والاستنكار والشكوى من زيف ما يكتبه المستشرقون ، ولكننا لا نقوم بعمل ايجابى حقيقى على المستوى العلمى لخدمة الاسلام .

ولا ينبغى ان يغيب عن الاذهان ان المفاهيم الخاطئة الشائعة عن الاسلام فى الغرب لا تقتصر على دوائر المتخصصين هناك ، بل تتردد فى الكتب المدرسية وفى وسائل الاعلام المختلفة ، وفى مجال اتخاذ القرارات الحيوية المتعلقة بالسياسة العالمية . وهذه المفاهيم الخاطئة لم ترد بمحض الصدفة وانما تعتمد على مراجع متخصصة كتبها اعلام المستشرقين الذين تحظى كتاباتهم عن الاسلام بثقة واحترام عظيمين فى الغرب (٤) .



وفى الصفحات التالية من كتابنا هذا يطالع القارئ الموضوعات التالية :

- ١ - الاستشراق من وجهة النظر الاسلامية . وهذا الموضوع هو نص محاضرة القاها فى معهد الدراسات العربية بجامعة جوتنجن فى المانيا الغربية فى ١١/٧/١٩٨٥ .
- ٢ - الاسلام فى الفكر الاستشراقى .
- ٣ - سيرة الرسول فى تصورات الغربيين (الحلقة الاولى) .
- ٤ - سيرة الرسول فى تصورات الغربيين (الحلقة الثانية) .

(٤) لقد أكد ذلك أيضا التقرير الذى تضمن نتائج أعمال ندوة الخبراء فى المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة (ايسسكو) حول تصحيح المعلومات والدراسات التى تكتب عن الاسلام فى الموسوعات والمراجع الكبرى . وقد عقدت هذه الندوة - التى شرفتمنى باختيارى مقروا لها - فى مدينة يفرن بالملكة المغربية فى شهر ديسمبر ١٩٨٥ .

وهذه الموضوعات الثلاثة الأخيرة هي عبارة عن فصول مختارة من كتابات المستشرق الألماني جوستاف بفانمولر قمت بترجمتها والتقديم لها والتعليق على ما جاء فيها من آراء . وقد سبق نشر بعضها في حولية كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة قطر ، وحولية مركز بحوث السنة والسيرة بجامعة قطر أيضا .

وتعيد اليوم نشرها دون تغيير او تعديل تعميما للفائدة .

والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل .

مدينة نصر فى شعبان ١٤٠٧ هـ

ابريل ١٩٨٧ م

دكتور محمود حمدى رقبوق

الفصل الأول

الإستشراق من وجهة النظر الإسلامية

● آثار بعيدة للإستشراق (١) :

ليس هناك شك في أن الإستشراق له أثر كبير في العالم الغربي وفي العالم الإسلامي على السواء ، وأن اختلفت ردود الأفعال على كلا الجانبين . ففي العالم الغربي لم يعد في وسع أحد يريد أن يكتب عن الشرق أو يفكر فيه أو يمارس فعلا مرتبطا به أن يتجاهل الثروة العلمية الهائلة التي أنتجها الإستشراق في السابق أو اللاحق . وفي العالم العربي الإسلامي المعاصر لا يكاد المرء يجد مجلة أو صحيفة أو كتابا الا وفيها ذكر أو اشارة الى شيء عن الإستشراق أو يمت اليه بصلة قريبة أو بعيدة .

وهذا امر ليس بمستغرب ، ذلك ان الإستشراق كان ولا يزال له اكبر الأثر في صياغة التصورات الغربية عن الاسلام وفي تشكيل مواقف الغرب ازاء الاسلام على مدى قرون عديدة .

● ردود الفعل في العالم الإسلامي :

والإستشراق قضية تتناقض حولها الآراء في العالم العربي الإسلامي ، فهناك من يؤيده ويتحمس له الى ابعد الحدود ، وهناك من يرفضه جملة وتفصيلا (٢) :

- (١) نص محاضرة ألقيت في معهد الدراسات العربية بجامعة جوتنجن بالمسانيا الغربية في ١١/٧/١٩٨٥
- (٢) انظر كتابنا : الإستشراق والخلقية الفكرية للصراع الحضاري ص ١٢ وما بعدها .

وكمثال قريب لهذا الفريق الأخير أذكر اننى القيت محاضرة بعنوان « الاسلام والاستشراق » (٣) منذ بضع سنوات فى احدى الدول العربية ، وقد جاء فى حديثى ثناء على ما بذله المستشرقون من جهود لحفظ المخطوطات العربية التى جلبت الى اوروبا ، وتسهيل الاستفادة منها وفهرستها فهرسة دقيقة ، وذكرت ان ذلك يعد من الجوانب الايجابية التى تذكر للمستشرقين . ولكن محاضرا آخر القى بعد ذلك ببضعة اشهر فى نفس المكان محاضرة عن التراث العربى الاسلامى ، وفى حديثه عن المخطوطات العربية التى جلبت الى اوروبا ذكر انه كان يتمنى ان تحرق هذه المخطوطات ولا تقع فى ايدي المستشرقين لانهم قد استخدموها ضد العرب والمسلمين .

والواقع ان كلا من هذين الاتجاهين : المتحمس للاستشراق بلا حدود ، والرافض له بلا حدود غير منصف فيما ذهب اليه . فكل منهما يمثل تيارا غير علمى وغير نقدي .

فالاستشراق من ناحية غير معصوم من الخطا ، كما انه من ناحية اخرى ليس كله شرا بالنسبة للاسلام والمسلمين .

فالاتجاه الاول مبهور بالحضارة الغربية والتقدم العلمى والتكنولوجى فى الغرب وبالتالي فان كل ما ياتى من الغرب لا بد ان يكون - من وجهة نظر هذا الاتجاه - سليما وعلميا وموضوعيا .

اما الاتجاه الثانى فهو اتجاه رافض للحضارة الغربية وان كان يأخذ بأسباب التقدم العلمى . ورفضه للاستشراق مبنى على اسباب عديدة ، من بينها الظروف التى ادت الى نشأة الاستشراق وارتباط اهدافه فى مراحل معينة بالتبشير ومواقفه العدائية ضد الاسلام منذ العصر الوسيط ، وكذلك ظروف الصدامات العسكرية التى حدثت بين الغرب والشرق الاسلامى على مدى قرون عديدة ، واخيرا فى العصر الحديث ما كان من ظروف الاستعمار الغربى للبلاد الاسلامية واذلاله لشعوبها وتحقيره لدينها وحضارتها ، وما صاحب ذلك من نظرة الاستعلاء الغربية فى علاقة الغرب بتلك الشعوب المغلوبة على امرها . وقد لعب بعض المستشرقين ادوارا هامة ساعدت الاستعمار الغربى ، وساعدت على ترسيخ نظرة الاستعلاء الغربية ازاء

(٣) قامت مكتبة وهبة بنشرها عام ١٩٨٤

الاسلام والمسلمين . وقد سخرروا معلوماتهم عن الاسلام وتاريخه فى سبيل
مكافحة الاسلام والمسلمين . وهذا واقع مؤلم يعترف به المستشرقون
المخلصون لرسالتهم بكل صراحة (٤) .

وهكذا يستطيع المرء ان يفهم الاسباب التى اادت الى وجود تيار قوى
فى العالم العربى الاسلامى يرفض الاستشراق رفضا تاما .

ولعله من الامور المسلم بها الآن لدى المستشرقين ان صورة الاسلام فى
المغرب كانت بالفعل صورة قاتمة ومطبوعة بطابع سلبى منذ العصر
الوسيط ، وانها كانت ابعد ما تكون عن ان تكون صورة موضوعية للاسلام .
وقد بدأت البحوث الاستشراقية منذ فترة فى محاولة التخلص من قيود
هذه الصورة التى خلفها العصر الوسيط . ولا نستطيع من وجهة نظر
اسلامية ان نقول ان الاستشراق قد تخلص نهائيا فى دراسته للاسلام على
وجه الخصوص من كل هذه القيود ، وان كانت المحاولات مستمرة
والحمد لله .



● التيار النقدي :

وحيث ان كلا من الاتجاهين المشار اليهما : الانجاء المتحمس
للاستشراق والاتجاه الراقض له غير منصف فيما ذهب اليه ، فانه كان لا يد
من ظهور تيار ثالث يحاول ان يكون لنفسه رؤية موضوعية عن الاستشراق
واهدافه واعماله ومنشوراته العلمية ، ويحاول جاهدا ان ينقد ما يراه
سلبيا من وجهة النظر الاسلامية ، ولا ينسى فى الوقت نفسه ان يذكر
الايجابيات التى تذكر للاستشراق فى المجالات العلمية المتعلقة بالدراسات
العربية والاسلامية .

وهذا الاتجاه الثالث هو فى حقيقة الامر الاتجاه الذى يمكن ان
نسميه اتجاها اسلاميا حقيقيا ، لانه هو الذى يتفق مع ما يطلبه الاسلام
فى مثل هذه الاحوال انطلاقا من قول القرآن الكريم « ولا يجرمكم شأن
قوم على الا تعدلوا ، اعدلوا هو اقرب للتقوى » (٥) .

(٤) انظر كتابنا : الاسلام فى الفكر الغربى ص ٦٠ .

(٥) السائدة : ٨

وفى هذا الاطار نود من وجهة نظر اسلامية ان فنظر الى الاستشراق فى محاولة لبيان وجهة النظر هذه التى لا ينبغى ان يتجاهلها الاستشراق او يمر عليها من الكرام ، بل ينبغى ان تكون دافعا لصوار بناء بين المستشرقين المعتدلين من جانب ، واصحاب هذا الاتجاه النقدى من جانب آخر . فعن هذا الطريق فقط يمكن ان يكون هناك سبيل الى الفهم المتبادل والتعاون العلمى المشترك فى عالم اليوم الذى تتشابك فيه المصالح وتتعدد فيه مجالات الاهتمامات المشتركة ، بهدف الوصول الى ما فيه خير الجانبين الغربى والاسلامى . ولكى يتم ذلك فانه لا بد من تحقيق شرط ضرورى فى هذا الصدد ، وهو التحرر التام من كل الاحكام المسبقة والعقد القديمة والحديثة على كلا الجانبين .



● تقييم موضوعى :

والآن ما هى وجهة نظر هذا التيار الاسلامى فى نقده وتقييمه للاستشراق ؟

يفرق هذا الاتجاه ابتداء بين فئات المستشرقين ، فلا يصدر تعميما خاطئا ، بل يعترف بان هناك مستشرقين موضوعيين يتسمون بالنزاهة فى الحكم والحيدة فى البحث ، ومستشرقين آخرين لا تتسم اعمالهم بساى شكل من اشكال الموضوعية والحياد العلمى ، بل تصطبغ باهداف اخرى غير علمية . ويقدر هذا الاتجاه ايضا للمستشرقين بصفة عامة ما يبذلونه من جهود مضمّنية وصبر عجيب فى البحث والدرس ، واخلاص تام لخدمة اهدافهم واطلاع واسع واحاطة بالعديد من اللغات القديمة والحديثة . وقد اشار الى شئ من ذلك ايضا الشيخ مصطفى عبد الرازق الذى كان شيخا للأزهر فى نهاية النصف الاول من القرن الحالى .



● ايجابيات المستشرقين :

ويذكر هذا الاتجاه الاسلامى بالتقدير الجهود التى بذلها المستشرقون فى العناية بالمخطوطات العربية التى جلبت الى اوربا وفهرستها فهرسة علمية نافعة ، وكذلك ما قدمه الاستشراق من دراسات حول الكثير من هذه

المخطوطات ، ونشره للعديد من امهات كنب التراث العربي الاسلامى بعد تحقيق مخطوطاتها تحقيقا علميا ، مما اتاح للباحثين فرصة كبيرة وادي للبحث العلمى خدمة جليلة .

ولم يقتصر المستشرقون على مجال التحقيق والنشر ، بل قاموا بترجمات شتى بلغات مختلفة للعديد من الكتب العربية الاسلامية ، وقاموا ايضا باصدار ترجمات للقرآن الكريم ، وان كانت للمسلمين بعض التحفظات على ما جاء فى مقدمات الكثير من هذه الترجمات والتعليقات التى صحبت هذه الترجمات .

وقد اضاف المستشرقون لذلك كله ما قدموه من دراسات عديدة فى جميع مجالات العلوم العربية والاسلامية ، فقد قدموا انتاجا غزيرا بلغ حسب بعض الاحصائيات ستين الف كتاب منذ اوائل القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين (٦) .

ومما يذكر للمستشرقين ايضا بالنقد تلك المراجع الهامة التى اذنت ولا زالت تؤدى خدمات جليلة للباحثين فى شتى مجالات العلوم العربية والاسلامية ، مثل كتاب بروكلمان « تاريخ الادب العربى » ، ودائرة المعارف الاسلامية ، وان كان للمسلمين على هذه الدائرة بعض المآخذ ايضا .

وللاستشراق كذلك جهود مشكورة فى مجال المعاجم والقواميس اللغوية . ونخص هنا بالذكر المعجم المفهرس للفاظ الحديث الشريف الذى اشرف على اخراجه فينسنك ، والذى تفيد منه الجامعات والمعاهد الاسلامية فى العالم الاسلامى والعربى .

كل هذه امور ايجابية تذكر بالتقدير للمستشرقين .

● مآخذ على اعمال المستشرقين :

ولكن هناك فى الجانب الآخر ما يأخذه الجانب الاسلامى على اعمال المستشرقين ، وهى مآخذ تتركز اساسا فى الدراسات المتعلقة بالدين الاسلامى .

(٦) افوارد سعيد : الاستشراق ص ٢١٦ ترجمة كمال أبو ديب -
مؤسسة الابحاث العربية بيروت ١٩٨١

والواقع انه ليس بالأمر الغريب ان يختلف المستشرقون مع المسلمين فى الراى حول الاسلام ، ذلك لأن منطلق تفكير المستشرقين بالنسبة للاسلام ونبيه يختلف عن المنطلق الذى يصدر عنه تفكير المسلمين ، ولهذا تختلف وجهات النظر بين الجانبين وستظل مختلفة .

ولا ينتظر الجانب الاسلامى ان يتبنى الاستشراق وجهات النظر الاسلامية ، ولا يطلب من كل مستشرق ان يغير معتقده ويعتقد ما يعتقدده المسلمون عندما يريد ان يكتب عن الاسلام . ولكن هناك امورا اولية بديهية يتطلبها المنهج العلمى السليم . فعندما ارفض وجهة نظر معينة لا بد ان ابين للقارىء اولا وجهة النظر هذه من خلال فهم اصحابها لها ، ثم لى بعد ذلك ان اوافقها او اخالفها .

ولكن هذا المنهج الطبيعى والمنطقى لا يلتزم به الا قليل من المستشرقين فى عرضهم للاسلام . والذى يحدث فى اغلب الأحيان هو العكس من ذلك تماما . وبذلك يتعرض القارىء نتيجة لذلك - ما لم يكن على علم - الى شىء من الايحاء برأى معين ، او يتعرض على الاقل الى اختلاط فى الامور يجعله عاجزا عن التمييز بين الاصل المتوارث لدى جماعة المسلمين وبين رآى الكاتب . فهناك كثير من المستشرقين يؤكدون مثلا ان القرآن من تأليف محمد ثم يذهبون مذهباً بعيداً فى تأسيس الاحكام التاريخية والعقيدية والأدبية على هذا التأكيد ، وسرعان ما ترتفع هذه الاحكام بمحض الشهرة الى مرتبة الحقائق .

وهكذا يتم التشكيك فى مصدر الوحي القرآنى ونسبة تأليفه الى محمد ، والزعم بأنه - وهو الذى كان امياً لا يقرأ ولا يكتب - قد جمعه من آثار الدينين السابقين عليه وهما اليهودية والمسيحية ، وأنه تلقى فى تأليفه مساعدات اجنبية ، وتضخيم أثر اللقاء العابر لمحمد ﷺ فى رحلته الى الشام ببخبرى الراهب السورى .

ويرتبط بالتشكيك فى مصدر القرآن ايضا التشكيك فى صحة النص القرآنى استنادا الى مسألة القراءات العديدة واعتمادا على بعض الروايات الباطلة التى يرفضها المسلمون .

وينتقل التشكيك الى السنة والاحاديث التى وردت عن النبى محمد ﷺ . والسنة كما هو معروف هى اقوال النبى وافعاله وتقريراته ، وعلاقتها

بالقرآن هي علاقة التوضيح والتبيين كما يقول القرآن في ذلك مخاطبياً
النبي محمدا صلى الله عليه وسلم : « وانزلنا اليك الذكر (في القرآن)
لتبين للناس ما نزل اليهم » (٧) ، « وما انزلنا عليك الكتاب الا لتبين
لهم الذي اختلفوا فيه » (٨) .

وليس يخفى على أحد من الدارسين للاسلام مدى الجهود التي
بذلها علماء المسلمين في نقد الروايات وضبط الاسانيد فيما يتعلق
بالأحاديث التي وردت عن النبي ﷺ ، ويكفي أن نعلم ان الامام البخارى
الذى جمع ما يربو على نصف مليون حديث لم يصح لديه منها بعد النقد
والضبط والبحث والاستقصاء الا حوالى اربعة آلاف حديث فقط .

وقد حاولت بعض الاتجاهات الاستشراقية ايضا منذ «رينان» تجريد
العقلية الاسلامية من كل لون من ألوان الابتكار : فالفلسفة الاسلامية
في رأى هذا البعض ليست الا ترديدا لأفكار اليونان ، والتصوف
الاسلامى مبنى على جذور غير اسلامية ، والشريعة الاسلامية مأخوذة
من القانون الرومانى وهكذا .

وتلجأ بعض الاتجاهات الاستشراقية الى تضخيم اهمية الفرق
المنشقة عن الاسلام واطهارها بانها صاحبة فكر عقلى ثورى تحررى .
وفى المقابل يظهر الاسلام كدين بانه قد عفا عليه الزمن ، وانه اذا
اريد معرفة الاسلام اليوم فعلى المرء ان يبحث عنه فى فرق الدراويش .
واذكر فى هذا الصدد ما كان يردده الأستاذ « كيسلنج » فى محاضراته
بجامعة « ميونيخ » فى أواسط الستينات عما كان يسميه بالاسلام الميت
والاسلام الحى . فالاسلام الميت - فى نظره - هو اسلام الكتاب
والسنة ، والاسلام الحى هو اسلام الطوائف العديدة المنتشرة فى العالم
الاسلامى وبخاصة طوائف الدراويش . وهكذا يراد ان يتحول الاهتمام
من البحث الأساسى فى جوهر الدين الاسلامى ومصادره الأساسية :
القرآن والسنة الى الاهتمام بظواهر ثانوية وقتية .

وقد أظهرت الصحوة الاسلامية منذ أوائل السبعينات ان ما يسمى
بالاسلام الميت لا يزال حيا وقويا فى نفوس أتباعه فى كل مكان فى
العالم الاسلامى ، حتى فى تلك البلاد التى بذلت فيها شتى المحاولات
لجحو كل مظهر من مظاهر الاسلام مسحوا تماما .

* * *

(٨) النحل : ٦٤ .

(٧) النحل : ٤٤ .

● الاسلام وحده هو المستهدف :

والامر الغريب هو ان الدراسات الغربية حول الديانات الوضعية مثل البوذية والهندوسية غالبا ما تكون دراسات موضوعية بعيدة عن اى تجريح .

ولكن الاسلام وحده من بين كل الاديان هو الذى يتعرض فى الغرب للنقد والتجريح على الرغم من انه دين يؤمن بالله ويحترم اليهودية والمسيحية ويؤمن بموسى وعيسى ويرفعهما فوق النقد بوصفهما من انبياء الله عليهم السلام .

وليس هناك شك فى ان صور التحامل القديم على الاسلام منذ العصر الوسيط قد خفت حدتها الى درجة كبيرة ، وان هناك مستشرقين يحاولون جاهدين ان تظل دراستهم للاسلام محصورة فى نطاق البحث العلمى النزيه .

ويقتضينا الانصاف ايضا ان نشير الى ان الدراسات الاستشراقية بصفة عامة كلما كانت بعيدة عن مجالات العقيدة الاسلامية كلما كانت اقرب الى الموضوعية وابعد عن التحامل . ولكن هناك فى الوقت نفسه مستشرقين لا يزالون يرددون بصورة او باخرى مزاعم العصر الوسيط حول الاسلام .

فاذا عبر المسلمون عن استيائهم ازاء هذا التحامل الظالم على الاسلام من جانب بعض المستشرقين فان هذا يعنى فى نظر بعض الباحثين الغربيين عدم قدرة المسلمين على فهم الامور فهما علميا .

ومن يقرأ بعض البحوث الاستشراقية عن الاسلام لابد ان يخرج بانطباع معين يتمثل فى ان المسلمين يعيشون فى ظل وهم كبير واكذوبة تاريخية عندما يعتقدون ان القرآن وحى من عند الله تلاقاه محمد ﷺ بوصفه خاتم النبيين ليبلغه للناس . ان الاسلام الذى تعرضه مثل هذه البحوث ليس هو الاسلام الذى يدين به المسلمون وانما هو اسلام من صنع الخيال ، وان محمدا الذى تصوره مثل هذه الدراسات ليس هو محمد الذى يؤمن المسلمون برسالته وانما هو شخصية اخرى مخترعة لا يعرفها المسلمون . ماذا يتبقى للمسلمين عندما يطعنون فى اقدس مقدساتهم التى تتمثل فى دينهم وقرآنهم وشخصية نبيهم .

هل يقبلون ذلك صاغرين أم يعترضون ؟

انه اذا اريد الوصول الى تفاهم افضل بين الغرب والاسلام فلا بد من أن تتخلص نظرة الغرب الى الاسلام من الاحكام المسبقة التي هي من مورثات العصر الوسيط والتي تتردد اليوم كثيرا في وسائل الاعلام الغربية .

فالاسلام - في نظر وسائل الاعلام هذه - دين دموي ، والارهاب نابع من الايلايم . والاسلام دين لا يحترم المرأة ، وهو دين شهواني يجرى وراء اللذة باباحته تعدد الزوجات ، والجهاد - الذي شرع في الاسلام ليكون اداة دفاعية يرد عن المسلمين عدوان المعتدين كما يقول القرآن الكريم : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، ان الله لا يحب المعتدين » (٩) - هذا الجهاد يصور بأنه يعنى تدمير الحضارة الغربية ودمار البشرية ، كما يجرى الخلط بين الاسلام كدين وما تشاهده اليوم من تخلف وصراعات في العالم الاسلامي .

فهل الاسلام مسئول عن هذا كله ؟

ان النظرة الموضوعية تبين ان الاسلام كدين ليس مسئولا عن شيء من ذلك ، بل على العكس ترى - كما يرى ايضا المفكر الاسلامي الراحل مالك بن نبي - أن التخلف الذي يعاني منه المسلمون اليوم يعد عقوبة مستحقة من الاسلام على المسلمين لتخليهم عنه لا لتمسكهم به كما يزعم الزاعمون .

وبالمثل لا نستطيع ان نقول ان المسيحية كانت مسئولة عن الحربين العالميتين اللتين اکتوت أوروبا بنارهما في النصف الأول من هذا القرن ، كما انها أيضا ليست مسئولة عن الصراع الديني الدموي المستمر في ايرلندا .

* * *

● الاستشراق ومسئولية المسلمين :

ويحق لسائل أن يتساءل :

ليماذا لا يتولى المسلمون انفسهم عرض وجهات نظرهم حول دينهم وحضارتهم باللغات الأوروبية ؟

(٩) البقرة : ١٩٠

لساذا لا يكون لهم انتاجهم الذى ينشرونه فى العالم الغربى ؟
هل يراد ان يتولى الاستشراق عنهم هذه المهمة التى هى من
اختصاصهم ؟
وهذه تساؤلات فى محلها ، فالمسلمون مقصرون بالفعل فى حق
انفسهم وفى حق دينهم وحضارتهم . وقد تعرضت فى كتابى عن
الاستشراق لهذه النقطة .
ولكن يحق لنا أيضا ان نتساءل : لمن يكتب الاستشراق ، ومن هم
هؤلاء الذين يريد الاستشراق ان يخاطبهم ؟

هل يريد الاستشراق ان يخاطب القراء فى الغرب فقط ام يريد ان
تقرأ الأعمال الاستشراقية من قبل المسلمين أيضا وتنال الاهتمام لدى
المثقفين فى العالم العربى الاسلامى ؟

لا اعتقد ان الاستشراق يريد ان يحصر نفسه فى دائرة الغرب فقط ،
بل انه يحرص أيضا على ان يكون له قراؤه فى العالم العربى الاسلامى ،
كما ان هناك من ناحية اخرى ارتباطا وثيقا بين المصالح الغربية فى
العالم الاسلامى ودعم الحركة الاستشراقية فى الغرب . وهذا امر يدعو
أيضا الى احترام مشاعر القراء المسلمين وعدم المساس بمقدساتهم ، على
الأقل حفاظا على استمرار المصالح الغربية فى العالم الاسلامى .

أما عن جهود الجانب الاسلامى فى هذا الصدد فأذكر انه كانت
هناك جهود كان لى شرف المشاركة فيها فى اطار الجامعة العربية فى
عام ١٩٧٩ لاصدار موسوعة باللغة العربية وست لغات أوروبية تتضمن
الرد الاسلامى على وجهات النظر الاستشراقية التى تتعارض مع ما يعتقده
المسلمون ويؤمنون به . ولكن الظروف السياسية التى مرت بالمنطقة العربية
منذ ذلك التاريخ قد حالت حتى الآن دون المضى فى هذا المشروع
الثقافى (١٠) .

وقد عرضت فى كتابى عن الاستشراق على من يهمهم الامر فى
العالم الاسلامى بعض المقترحات التى تتضمن تكوين هيئة اسلامية علمية
عالمية تكون بعيدة عن اية تيارات سياسية ، تهتم بالبحث العلمى الاسلامى

(١٠) انظر فى ذلك كتابنا : الاستشراق والخطية الفكرية للصراع
الحضارى ص ١٢١ وما بعدها .

على نطاق عالمي ، وتصدر مجلة اسلامية علمية متخصصة باللغات الحية ، ومؤلفات تعرض الاسلام عرضاً موضوعياً بشتى اللغات ، واقتُرحت أيضاً اصدار دائرة معارف اسلامية باللغة العربية واللغات الأوروبية تعرض وجهات النظر الاسلامية ، وكذلك ترجمة اسلامية لمعاني القرآن الكريم باللغات الأوروبية .

● أهمية الحوار مع المستشرقين المعتدلين :

وقد اقترحت أيضاً اجراء حوار مع المستشرقين المعتدلين ، فمثل هذا الحوار سيكون له من غير شك اثره الايجابي على كلا الجانبين .

وهذا الحوار أمر لا يبد منه حتى يمكن أن يسمع كل جانب وجهة نظر الجانب الآخر ، إذ ان ما يحدث حالياً يمكن أن يوصف بصفة عامة بأنه « حوار الصم » فكل جانب يتحدث دون أن يسمعه الجانب الآخر أو حتى يحاول أن يسمعه .

فالمستشرقون يكتبون والعالم العربي الاسلامي لا يحاول في الغالب أن يسمع بحجة أن الاستشراق لا يمكن أن يكون منصفاً للاسلام والمسلمين . والمسلمون يكتبون ، وعالم الاستشراق يتجاهل في الغالب أيضاً ما يكتبه المسلمون بحجة أن ما يكتبه المسلمون لا يعبر الا عن انفعالات غير علمية . وحتى لا نقع في تعميم خاطيء نقول : ان هناك على كلا الجانبين بعض من لديه الاستعداد لسماع الجانب الآخر ، ولكن الغالبية العظمى على غير ذلك .

وقد ان الأوان ليسمع كل منا الآخر ويحترم كل منا وجهة نظر الجانب الآخر .

وقد اسعدنى حينما كنت اتولى عمادة كلية اصول الدين بجامعة الأزهر في نهاية السبعينيات أن انظم محاضرة في جامعة الأزهر لكل من المستشرق الفرنسي الأستاذ «أرنالدز» الأستاذ بجامعة السوربون والمستشرق الألماني الأستاذ «فرنرانده» الأستاذ بجامعة فرايبورج حالياً حينما كان كل منهما في زيارة للقاهرة . وقد تحدث الأستاذ «أرنالدز» عن فلسفة الفارابي السياسية ، وتحدث الأستاذ «أنده» عن تاريخ العلاقات

الاسلامية الألمانية . وكان الاقبال على كلا المحاضرتين كبيرا جدا
فوق ما كنا نتوقع (١١) .

ولعل وجودى هنا فى جامعة «جوتنجن» الآن وحديثى اليكم فى هذا
الموضوع الذى يقسم بالحساسية الشديدة يكون بداية طيبة لحوار بقاء
ومستمر على جميع المستويات العلمية بين المستشرقين المعتدلين من جانب
وعلماء العالم الاسلامى من جانب آخر .



(١١) لقد قدمت أيضا فى أوائل عام ١٩٨٦ بدعوة الأستاذ تلمان ناچسل
مدير معهد الدراسات العربية بجامعة جوتنجن بالمانيا الى الفاء محاضرة
فى كلية أصول الدين . وقد ألقى محاضرتى فى موضوع « الصلة بين
الشريعة وعلم الكلام فى نظر الأشاعرة » . وقد كان لهذه المحاضرة صدى
طيب لدى الأساتذة والطلاب ..

الفصل الثاني

الإسلام في الفكر الإستشراق

● تمهيد :

يعد كتاب « موجز في ادب علوم الاسلام »

(Handbuch der Islamliteratur)

أهم مؤلفات الأستاذ الدكتور « جوستاف بفانمولر »

(Gustav Pfannmueller)

وقد ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عام ١٩٢٣ في برلين

وأعيد نشره عام ١٩٧٤ ، ويقع الكتاب في ٤٣٦ صفحة .

ويذكر « بفانمولر » في مقدمة كتابه انه يريد أن يقدم لكل من يود

الاشتغال بحضارة الاسلام مدخلا أوليا للدراسة ، وعلى ذلك فانه لا يتوجه

بهذا المدخل الى المتخصصين فحسب ، وانما يتوجه به في المقام الأول الى

دائرة واسعة من القراء ، الذين يريدون التعرف عن قرب على الحياة

العقلية للشرق الاسلامي .

ويقدم الكتاب مختارات منتقاة ، من بين المراجع التي اثبتت

اهميتها العظيمة ، عبر المسار التاريخي لعلم الاسلاميات ، ولا يكتفى

المؤلف بمجرد حصر جاف لعناوين المراجع ، وانما يقوم بتصنيفها

تصنيفا موضوعيا ، وتقديم عرض مختصر لضمون كل مرجع . وينصب

الاهتمام الرئيسي للكتاب - بطبيعة الحال - على الدين الاسلامي .

ويخصص له المؤلف اثني عشر فصلا (من ص ٦٠ الى ٣٤٧) يعرض

فيها أولا للمؤلفات التي عنيت بتقديم عرض شامل للاسلام ، ثم لتلك

التي عنيت بأحوال العرب قبل الاسلام ، وحياة محمد وتعاليمه ،

والقرآن والحديث ، والفقه ، والعقائد ، والتصوف ، والطرق الصوفية ،

وتقديس الاولياء ، والسحر ، والفرق الاسلامية ، والاسلام والتبشير .

ويخصص المؤلف فصلا للفلسفة الاسلامية ، التي يقول عنها : انه كان لها تأثير حاسم على فلسفة العصور الوسطى في أوروبا ، كما يفرد فصلا للفن الاسلامى الذى يقول عنه : ان قيمته الجمالية الرفيعة ، وأهميته العظيمة بالنسبة للتطور العام للفن لم تعرف الا منذ زمن قريب .

وبالإضافة الى كل هذه الموضوعات . . هناك فصول أخرى فى الكتاب ، خصصت لليبليوجرافيا الاسلام بصفة عامة ، وبلاد الاسلام وشعوبه ، وتاريخ الاسلام السياسى ، وحضارة الاسلام ، وفى النهاية فصل عن آداب العرب والفرس والأتراك .

والمؤلف لا يزعم أنه قدم حصرا شاملا لكل المؤلفات ، التى اهتمت بالجوانب المختلفة للاسلام والحضارة الاسلامية ، وفى هذا الصدد يقول :

انه ليس هناك من يشعر بالقصور والنقص فى هذه المحاولة الأولى اكثر مما يشعر المؤلف ، ولكنه يردد فى هذا المقام المثل العربى القديم : « ما لا يدرك كله لا يترك كله » فبعض المعرفة خير من الجهل التام .

ونحن نترجم هنا أحد فصول هذا الكتاب ، وهو الفصل الخاص بالمؤلفات التى اهتمت بتقديم عروض شاملة للدين الاسلامى ، ونقوم فى الوقت نفسه بالتعريف بالمستشرقين ، الذين ورد ذكرهم فى هذا الفصل (١) ، وكذلك بالتعليق على بعض المسائل التى وردت فيه ونرى انها فى حاجة الى تعليق .

وقد قمنا أيضا بتقسيم الموضوع الى فقرات مستقلة ، ووضعنا لها عناوين خاصة تحمل فى أغلبها اسم المستشرق الذى تتناوله كل فقرة على حدة .

والمعلومات التى يتضمنها هذا الفصل معلومات على جانب كبير من الأهمية ، لأنها تصور لنا موقف أئمة المستشرقين - من مختلف الجنسيات ويشتى اللغات - من الاسلام ، طوال ما يقرب من قرنين وربع من الزمان ، أى من بداية القرن الثامن عشر الى نهاية الربع الأول من

(١) من بين الكتب التى رجعنا اليها فى هذا الصدد كتاب « المستشرقون » لنجيب العقيدى ، ودائرة المعارف الاسلامية وغيرها من مراجع متفرقة .

القرن العشرين (٢) . ولكن عرض الخطوط الرئيسية للفكر الاستشراقى هنا لا يغنى بطبيعة الحال عن دراسة هذا الحشد الزاخر من مؤلفات المستشرقين دراسة واعية، ومن ناحية اخرى نجد ان الكتاب قد وقف بنا عند عام ١٩٢٣ ، وليس هناك احد - فيما نعلم - قام بمحاولة اخرى لاستكمال العمل الذى بدأه « بفانمولر » .

وسنقوم - ان شاء الله - فى مناسبات اخرى بترجمة بعض الفصول الهامة ، المتعلقة بالنبي ﷺ وسيرته وتعاليمه ، وبالقرآن والحديث .
وفيما يلى ترجمة الفصل الخاص بالاسلام بصفة عامة . .

* * *

ترجمة وتعريف

١ - ريلاند (Hadrian Reland) :

لقد كان اول من قام بعرض علمى للدين المحمدى (٣) هو الأستاذ « هادريان ريلاند » (١٦٧٦ - ١٧١٨) استاذ اللغات الشرقية فى جامعة أوترخت بهولندا .

(٢) يعترف المستشرقون بأن كتابات الأوربيين عن الاسلام فى العصور الوسطى كانت بصفة عامة كتابات غير علمية ، ومبنية على التعصب والجهل بالاسلام ومصادره الأصلية . أنظر حول موقف الغرب من الاسلام فى العصور الوسطى كتاب (R. W Southern) « نظرة الغرب الى الاسلام فى القرون الوسطى » ترجمة د . على محمد خثيم ، ود . صلاح الدين حسن ، ومراجعة الأستاذ عمر الدسوقي ، دار مكتبة الفكر . طرابلس - ليبيا ١٩٧٥ .

(٣) أغلب المستشرقين ، ولعمري باستمرار بوصف الاسلام بأنه الدين المحمدى ، أو المذهب المحمدى (Mohammedanism) نسبة الى «محمد» كما تنسب المسيحية الى المسيح ، ولكن هناك سببا آخر لاستخدام هذا الوصف لدى الكثيرين منهم ، وهو اعطاء الانطباع بأن الاسلام دين بشرى ، من صنع محمد وليس من عند الله . أما نسبة المسيحية الى المسيح فلا تعطى لديهم هذا الانطباع لاعتقادهم بأن المسيح ابن الله .

ويقع كتابه عن الاسلام فى جزئين (٤) : ويشتمل الجزء الاول على خلاصة لعلم العقيدة الاسلامية ، استنادا الى مصادر بالعربية واللاتينية ، أما الجزء الثانى فانه يصحح الآراء ، التى كانت سائدة حينذاك عن تعاليم العقيدة الاسلامية ، تلك الآراء التى كانت الى حد ما فى منتهى الغرابة .

وقد اثار الكتاب اهتماما عظيما لدرجة انه ادى الى اثاره الشبهات حول مؤلفه ، باتهامه بأنه يريد أن يقوم بعمل دعائى للاسلام ، فى حين انه لم يكن يقصد الا الى الوصول الى تفهم سليم للدين المحمدي ، وتمهيد السبيل لمحاربة هذا الدين من جانب المسيحية ، بطريقة افضل من ذى قبل .

وقد ادرجت الكنيسة الرومانية الكتاب فى قائمة الكتب الممنوعة (Index Librorum prohibitorum) . ولكن الكتاب ترجم الى اللغات الالمانية والانجليزية والفرنسية والهولندية والاسبانية ، واصبح يعول عليه كثيرا جدا فى عرض تعاليم عقيدة « محمد » .

وتثير مقدمة هذا الكتاب اهتماما خاصا ، فهنا يتحدث « ريلاند » عما تتعرض له كل الأديان باستمرار من جانب خصومها ، اما بعدم فهمها ، أو برميها بكل سوء ، بطريقة تنبئ عن قصد خبيث . وهكذا افترى الوثنيون على اليهودية والمسيحية ، وهكذا ايضا نظر الرومان الكاثوليك الى اتباع « مارتن لوتر » والى دعاة الاصلاح حينذاك نظرتهم الى المحمديين .

اجل ، لقد كان على المؤلف ان يخشى ايضا ان يعطى عمله هذا عن الطبيعة الحقيقية للدين المحمدي دافعا لخصومه للاستمرار فى نشر هذه الافتراءات ، وقد كان على حق فى تخوفه - كما رأينا - .

(٤) ظهر الكتاب باللاتينية عام ١٧٠٥ تحت عنوان (De religione Mohammedica libri duo) وقد أعيد طبعه عام ١٧١٧ ، وله بالاضافة الى ذلك مؤلفات أخرى منها : كتاب فى الجهاد ، والجغرافيا والآثار فى فلسطين ، وتعليم المتعلم للزرنوجى ، وفى مقدمته نهرس لجميع التصنوص العربية ، المطبوعة فى أوروبا حتى ايامه .

ولكن « ريلاند » مع ذلك لا يريد أن يثنيه هذا الخوف العارض عن عزمه . « فالمرء يجوز له حقا أن يبحث عن الحقيقة حيثما كانت » ومن أجل ذلك يريد أن يعرض في كتابه دين « محمد » لا كما يظهر من خلال ضباب الجهل ، وخبث الناس ، وإنما « كما يدرس حقيقة في مساجد المحمديين ومدارسهم » .

انه اذا كان هناك فى اى وقت من الاوقات دين فى هذا العالم قد احتقر من جانب خصومه ، ورمى بكل سوء ، فانه هو هذا الدين المحمدى ، فان من يريد أن يصف نظرية من النظريات بوصف مشين نجده يصفها بأنها نظرية محمدية ، كما لو انه لا يوجد فى تعاليم « محمد » شيء صحيح ، وأن كل ما فيها فاسد .

وإذا كان لدى أحد قصد حميد فى التعرف على الدين المحمدى ، فلا تقدم له الا الكتب المضادة الخبيثة والمليئة بالأضاليل .

انه بدلا من ذلك ينبغى على المرء ان يتعلم اللغة العربية وأن يسمع « محمدا » نفسه وهو يتحدث فى لغته ، كما ينبغى على المرء أيضا أن يقتنى الكتب العربية وأن يرى بعينه هو ، وليس بعيون الآخرين .

وسيرى المرء حينئذ أن المحمديين ليسوا مجانين كما نظن ، فقد اعطى الله العقل لكل الناس ، وقد كان من رأيي دائما : ان ذلك الدين الذى انتشر انتشارا بعيدا ، فى آسيا ، وافريقيا ، وفى أوروبا أيضا ، ليس ديننا ماجنا ، او ديننا سخيفا ، كما يتخيل كثير من المسيحيين » .

صحيح ، انه دين موء جدا ، وضار بالمسيحية الى حد بعيد ، ولكن . . . الا يجوز لذلك أن يبحث المرء ؟ الا ينبغى للمرء ان يكتشف اعماق الشيطان وحيله ؟

ان الأحرى بالمرء هو ان يسعى للتعرف عليه حقيقة ، لكي يحاربه بطريقة أكثر امانا ، وأشد قوة !

٢ - جورج سيل (G. Sale) :

وبجانب عمل « ريلاند » نجد فى المقدمة التمهيدية التى جعلها « جورج سيل » (٥) مقدمة لترجمته للقرآن - عرضا شاملا لنظام الدين

(٥) جورج سيل (١٦٩٧ - ١٧٢٦) مستشرق إنجليزي ، اشتهد

الاسلامى ، ونظام شريعته ، وقد استطاعت هذه المقدمة ان تثبت وجودها
زمنًا طويلًا جدًا ، كمصدر علمى موثوق به فى هذه الموضوعات .

وقد جعلت فى عام ١٨٤١ مقدمة للترجمة الفرنسية للقرآن التى
قام بها (كاسيميرسكى Kasimirski) (٦) وأعيد طبعها كذلك منذ
ذلك الحين .

وتتناول هذه « المقدمة المؤقتة » بطريقة مفصلة الموضوعات التالية :

- ١ - تاريخ العرب ودينهم قبل عصر محمد .
- ٢ - وضع المسيحية - وبوجه خاص الكنيسة الشرقية - ووضع
اليهودية فى العصر الذى ظهر فيه محمد .
- ٣ - القرآن .
- ٤ - تعاليم القرآن ووصاياه الصريحة التى تتعلق بالعقيدة والتكاليف
الروحية لهذه العقيدة .
- ٥ - محرمات معينة فى القرآن .
- ٦ - تنظيم القرآن للأمور الاجتماعية .
- ٧ - الأشهر الحرم ، ويوم الجمعة .
- ٨ - الفرق الرئيسية للمحمديين ، والأنبياء الزائفون .

* * *

اهتمامه بالاسلام حتى وصف بأنه نصف مسلم . ترجم القرآن من العربية
مباشرة الى الانجليزية ، ونشرت الترجمة فى لندن عام ١٧٣٤ ، وقد اشتملت
على حواشى ، وشروح ، ومقدمة مسهبة عن الدين الاسلامى بصفة عامة .
وهى تلك المقدمة التى يشير اليها « بفانوالر » وقد تضمنت الكثير من الافك
واللفو والتجريح .

وقد قام بترجمة هذه المقدمة الى العربية « ابن الهاشم » العربى
(القاهرة ١٩١٣) ، ونقل « تيودور أرنولد » ترجمة « سيل » للقرآن
الى الألمانية عام ١٧٤٦ ، وأثناسار « فولتر » الى ترجمة سيل فى
القلموس الفلسفى ، مما يدل على النجاح الذى صانفته هذه الترجمة
فى أوروبا فى عصرها .

(٦) هو ألبر كاسيميرسكى (١٨٠٨ - ١٨٨٧) تخرج من جامعة
برلين ، ورحل الى الشرق ، واستقر فى فرنسا . قام بترجمة القرآن
للفرنسية ترجمة تفتقد شيئًا من الأمانة العلمية ، والتمكن من البلاغة العربية ،
ومن أعماله أيضا « المعجم العربى الفرنسى » فى جزئين كبيرين .

٣ - مرادجيا دوهسون (Mouradgea d'Ohsson) :

اما المؤلف الضخم الذى الفه « مرادجيا دوهسون » فانه يقدم عرضا للاسلام مبنيا على دراسة مصدرية عميقة للتشريع المحمدي وللتشريع الدينى على وجه الخصوص .

وقد ولد المؤلف فى اسطنبول فى عام ١٧٤٠ وترى هناك ، وقد كانت لديه وهى فى الرابعة والعشرين من عمره معرفة بأهم اللغات الشرقية ، واطلع على كتابات المؤلفين المحليين (الشرقيين) ، وقد استطاع ان يحصل على الكثير مما ظل محرما على غيره من الاوروبيين ، وذلك بفضل الصلات والمعارف التى هياؤها له مكانته ومنصبه كسكرتير ، ومترجم وقائم بالأعمال لملك السويد فى بلاط اسطنبول ، وبفضل ثقة الوزير الأعظم نفسه فيه لسنوات طويلة .

وقد درس تعاليم الاسلام وتسريعه العام فى المصادر الاصلية بمساعدة احد علماء العقيدة والشريعة الاسلامية . وقد جمع بلا كلل مادة ضخمة على مدى اثنين وعشرين عاما ، وضعها فى النهاية فى مؤلف ضخم من ثلاث مجلدات من القطع الكبير (٧) .

وقد اتخذ لاساسا لعمله كتاب الشريعة العام المشهور الذى وضعه ابراهيم الحلبي بعنوان « ملتقى الابحر » (٨) .

(٧) عنوان الكتاب هو :

(Tableau général de L' Empire Othoman divisé en deux parties : dont l'une comprend la Législation ; Mahométane, L'autre , L'Histoire de L'Empire Othoman) .

وقد ظهر المجلدان الأول والثانى فى باريس من ١٧٨٧ الى ١٧٩٠ .
اما المجلد الثالث فقد ظهر عام ١٨٢٠ بعد وفاة المؤلف ، وتولى ابنه أخراجه .
(٨) تولى ابراهيم الحلبي عام ٩٥٦ هـ . وقد اهتم كثير من العلماء بشرح كتابه « ملتقى الابحر » وقد استخرج منه المستشرق الفرنسى (سوفير Sauvaire) (١٨٤٩ - ١٨٩٦) أبواب البيع والشراء ، والكفالة وغيرها ، والحوالة والحق بها كتاب « مجمع الآثار » لحد بن سليمان شيخ زاده ونشرهما متنا « وترجمة فرنسية » مع شروح وتعليقات من مرسيليا عام ١٨٨٢ ، وهناك شروح أخرى عديدة على « ملتقى الابحر »
نذكر منها ما يلى :

ولكن « مرادجيا » قام بتقسيم محتواه الى فصول محددة ، وأضاف اليها افكاره وملاحظاته الخاصة (observations) . وفي هذه الملاحظات وضع ثمار دراساته وخبراته الطويلة ، ولا زالت تعد حتى الآن ينبوعا حقيقيا لمعرفة الدولة العثمانية في ذلك العصر .

وقد كان المفروض ان يشتمل المؤلف على قسمين رئيسين وهما : التشريع وفيه الحديث أيضا عن الدين ، والقسم الثاني التاريخ . وقد القى « مرادجيا » في مقدمة تمهيدية نظرة مسهبة على القسمين ، ولكن لم يظهر الا القسم الأول فقط .

ويشتمل المجلدان الأول والثاني على القسانون الديني (Code religieux) الذي ينقسم أيضا الى العقائد والعبادات والأخلاق .

ويشتمل القسم الخاص بالعقائد على مواد العقيدة الثمانية والخمسين ، التي وضعها « عمر النسفي » (٩) في بداية القرن الثاني عشر ، وقد أضاف اليها « مرادجيا » شروحا هامة جدا حول وجهة النظر المحمدية في نشأة الكون ، وحول كبار رجال الدين والأنبياء وأولياء الاسلام ، وحول الفرق الاسلامية ، وعقيدة الجبر ، والامامة وغير ذلك من موضوعات .

وأما القسم الخاص بالعبادات فإنه يتناول فيه في خمسة أبواب الأنواع المختلفة للطهارة ، والحديث عن الصلاة ، والزكاة ، والصوم ،

(١) مجمع الأنهر شرح ملتقى الأبحر . من تأليف شيخ زاده (١٠٧٨ هـ) مطبوع على هامش ملتقى الأبحر .

(ب) جرى الأنهر على ملتقى الأبحر . من تأليف نور الدين علي الباقاني القادري الأنصاري . فرغ من تأليفه عام ٩٩٥ هـ . مخطوط بمكتبة الأزهر رقم (٣٢٦) ٧٢٨٣ .

(ج) الدر المنتقى شرح ملتقى الأبحر (مطبوع على هامش مجمع الأنهر) من تأليف الحصكفي (١٠٨٨ هـ) .

(د) المعادل - شرح ملتقى الأبحر . من تأليف المرعشي . مخطوط بمكتبة الأزهر رقم (٦٥٩) ١٠٩٧٤ .

(٩) يقصد كتاب العقائد النسفية الشهير لأبي حفص عمر نجم الدين النسفي القوزي ٥٣٧ هـ (١١٤٢ م) وقد عرّف هذا الكتاب في أوروبا منذ عام ١٨٤٣ بواسطة كوريتون (Cureton) الذي قام بنشره حينذاك تحت عنوان :

(The pillar of the Creed (Nr. 2)) .

والحج الى مكة ، وقد أضاف المؤلف الى كل باب ملاحظاته التي تعد على درجة قصوى من الأهمية .

وفى القسم الخاص بالأخلاق يتناول موضوعات الغذاء والكساء والعمل الانسانى والفضائل الأخلاقية .

ويختم المؤلف « القانون الدينى » – وبالتالي يختم فى الوقت نفسه المجلدين الأول والثانى من الكتاب – بفصل عن نظام التدرج المحمدى يتحدث فيه عن العلماء والدرابيش .

أما المجلد الثالث فقد ظهر بعد موت « مرادجيا » ، وقد قام ابنه بإخراجه من واقع مخطفات والده . وينقسم هذا المجلد الى قسمين : يشتمل القسم الأول منهما على القوانين أو التشريعات السياسية والعسكرية والمدنية وتشريعات القضاء والعقوبات ، فى حين يصف القسم الثانى وضع الامبراطورية العثمانية .

وتنسل النقوش الرائعة زينة خاصة لهذا المؤلف الضخم ، تلك النقوش التي تعطى صورة وافية عن عالم الحضارة التركية حينذاك فى جميع جوانبها .

٤ - جارسين دى تاسى (Garcin de Tassy) :

ولدينا بحوث متعددة تتعلق بمعرفة الدين المحمدى للمستشرق الشهير « جارسين دى تاسى » (١٠) . ويشتمل كتابه الخاص بعرض العقيدة الاسلامية (Exposition de la foi Musulmane) على ترجمة لكتاب « بركوى birgawi » (١١) (١٥٢٢ - ١٥٧٣) الذي يعد بمثابة كتاب مدرسى فى تعليم العقيدة الدينية فى الدولة العثمانية .

(١٠) هو جوزيف هيليو دور جارسين دى تاسى (١٧٩٤ - ١٨٧٨) تخرج فى العربية على يد المستشرق المعروف دى ساسنى ، وتولى بعده تحرير المجلة الآسيوية ، فنشر فيها كثيرا من الدراسات القيمة ، بالإضافة الى العديد من الأعمال : تأليفا ، أو ترجمة ، أو تحقيقا فى موضوعات اسلامية وعربية .

(١١) بركوى أوبركيلو - هو محمد بن بير على ، من علماء الدين

أما كتابه : تعاليم الدين الاسلامي وتكاليفه والذي ظهرت طبعته الثالثة (١٢) تحت عنوان (L'Islamisme D'apres de Coran, L'enseignement doctrinal et la pratique) .

فان يتناول - بعد مقدمة قصيرة ، وبعد ايراد الآيات القرآنية المتعلقة بمحمد وبعثته - يتناول « تعاليم الدين الاسلامي وتكاليفه » في أربعة وعشرين فصلا باقتباسات من القرآن رتبت حسب الموضوعات ، ويتناول ترجمة لكتاب اسلامي عن الصلاة ظهر في كلكتا .

* * *

٥ - راينهارت دوزي (Reinhart Dozy) :

أما كتاب « راينهارت دوزي » (١٣) عن تاريخ الاسلام (Essai sur l'histoire de L'Islamisme) والذي ظهر في الأصل باللغة الهولندية في (هارلم Haarlem) عام ١٨٦٣ تحت عنوان (Het islamisme)

الأثران في القرن العاشر الهجري (٩٢٨ - ٩٨١ هـ) ، تلقى علومه في القسطنطينية والتحق هناك بالطريقة البيراية التي هي فرع من الطريقة الفنشيدية . اشتغل بالتدريس في مدرسة « بركي Birge » ، وله مؤلفات وكتب تعليمية في علوم العقيدة معظمها باللغة العربية ، وله مؤلفات أخرى في علم القراءات والنحو العربي وبعض المسائل الفقهية .

وقد اشتهر على وجه الخصوص عن طريق كتابه المدرسي في العقيدة باللغة التركية وهو رسالة بركوي ويطلق عليه أيضا اسم « وحيت نامه » وهو الكتاب الذي قام « جارمين دي ناسي » بترجمته الى الفرنسية عام ١٨٢٢ ، وقد طبع الكتاب مرارا وترجم ترجمات مختلفة ، وقد أورد بروكلمان قائمة بمؤلفات بركوي . انظر أيضا : علي بن بالي : « العقد المنظوم في ذكر أمثال الروم » ص ٤٣٠ وما بعدها على هامش كتاب « وفيات الاعيان » لابن خلكان طبعة القاهرة ١٣١٠ هـ .

راجع : (Handwoerterbuch des Islam. (Leiden. 1976)

(١٢) ظهر الكتاب عام ١٨٢٦ وأعيد طبعه عام ١٨٤٠ ، وظهرت الطبعة الثالثة بالعنوان الجديد عام ١٧٨٤ .

(١٣) ولد دوزي في ليدن بهولنده (١٨٢٠ - ١٨٨٣) من أسرة فرنسية عرف معظم أفرادها بحب الاستشراق . كان متضلعا في اللغات السامية وعمل استاذا للعربية في جامعة ليدن من عام ١٨٥٠ الى ١٨٧٨ ، وكان يكتب باللاتينية والفرنسية والانجليزية والألمانية والهولندية .

فانه - وان لم يكن ايضا مبنيا على نظرات وتأملات شخصية - مبنى على دراسات عميقة ، وقراءات شاملة ، ومعرفة دقيقة بالموضوع .

وقد اهتم المؤلف بتتبع الاسلام عبر عصور تاريخه كلها حتى الآن ، وعبر حدوده الواسعة كلها ، لكي يبين مسار تطوره ، ويبين في الوقت نفسه صورته المتميزة ، التي اتخذها في البلاد المختلفة ، تحت تأثير ظروف خاصة ، وتحت تأثير شخصيات واتجاهات عقلية لها شأنها .

وعلى الرغم من هذا الشمول الظاهري فان الكتاب يعانى فى احد جوانبه من اتجاه واحد ، فنحن نحصل منه على تاريخ « الكنيسة » الاسلامية فقط - اذا جاز هذا التعبير - ولكننا لا نعرف من الكتاب شيئا عن تاريخ الاسلام السياسى ، وعن تاريخ حضارته على وجه الخصوص الا اقل القليل .

وانه لمن المستحيل رسم صورة للاسلام حسب ظهوره فى التاريخ العالمى كله ، اذا لم يلق المرء فى الوقت نفسه نظرة على تاريخه الخارجى ،

ويعد فى اوساط المستشرقين اول رائد فى الدراسات الاندلسية ، وتعتبر مؤلفاته فى هذا المجال مرجعا هاما فى تاريخ الاندلس وثقافتها وحضارتها . ومن بين المؤلفات المختلفة والدراسات العديدة التى قام بها نخص بالذكر ما يأتى :

— ملاحظات على بعض المخطوطات العربية — فى ٢٦٠ صفحة — (ليدن ١٨٤٧ — ١٨٥١) .

— فهرس المخطوطات الشرقية فى جامعة ليدن ١٨٥١ .

— تاريخ المسلمين فى اسبانيا الى فتح المرابطين لها — فى اربعة اجزاء (ليدن ١٨٤٩ — ١٨٦١) — ويصح الكتاب فى ١٢٦٠ صفحة — وقد تناول فى الجزء الاول الحروب الاهلية ، وفى الثانى النصرى والمرتدين — وفى الثالث الخلفاء ، وفى الرابع ملوك الطوائف .

— نظرات فى تاريخ الاسلام وبعوث فى تاريخ اسبانيا وآدابها فى العصر الوسيط — فى جزعين — الطبعة الثالثة ١٨٨١ .

— فهرس المخطوطات الشرقية فى المجمع الهولندى بامستردام (ليدن ١٨٥١) .

— تاريخ الاسلام منذ فجره حتى عام ١٨٦٣ . وقد كتبه بالهولندية ونقله شومين الى الفرنسية (ليدن ١٨٧٩) .

وعلى الخلافة وانفساماتها ، وتطور اهم الدول الرئيسية ، والاسر الحاكمة ،
والعناية بصفة خاصة بوصف انجازات الاسلام ، أو أحواله فى المجال
الحضارى ، والاجتماعى ، أى فى العلم والشعر والمؤسسات القانونية
ومؤسسات الدولة وشئون المدارس والحياة المنزلية والمؤسسات الاجتماعية ،
أو على الأقل محاولة تحديد خصائصها ، وقد مر « دوزى » على هذه
المجالات الهامة كلها مرورا عابرا .

وفى فصل تمهيدى فام « دوزى » ببحث مسألة الدين الاصلى لبلاد
العرب ، معتمدا بصفة أساسية على آراء (شبرنجر Sprenger) (١٤) .
أما عن دين محمد فانه يضيف قائلا : أنه ليس شيئا آخر غير الحنيفية
القديمة ، أو التوحيد الحنيفى ، الذى حقق له « محمد » عقيدة ثابتة
وتنظيمات معينة ، واشكالا للعبادة ، وحقق له على وجه الخصوص
تبريرا الهيا ، وأما الشيء الوحيد فى ذلك فقد كان هو ادعاؤه بأنه
رسول الله .

ولكن « دوزى » لم يدع مجالا للحديث عما ثبت أن « محمدا »
أخذه من اليهودية والمسيحية والديانة الفارسية (Parsismus) (١٥) .

(١٤) شبرنجر (١٨١٣ — ١٨٩٣) مستشرق نمساوى الاصل ،
تجنس بالجنسية البريطانية عام ١٨٣٨ . أرسلته شركة الهند الشرقية الى
الهند ، وولته الحكومة رئاسة الكلية الاسلامية فى دلهى ثم مدرسة كلكتا ،
وعينه مخرجا للفارسية . أصدر فى دلهى أول صحيفة أسبوعية
بالهندستانية . وفى عام ١٨٥٧ عين أستاذا للغات الشرقية فى جامعة برن
بسويسرا ثم اعتزل التعليم وانقطع للتأليف فى هايدلبرج . وله مؤلفات
عديدة ، ونشر الكثير من المخطوطات العربية ، ومن بينها : الإثنان فى علوم
القرآن للسيوطى ، وتاريخ الخنزوية للعتبى ، والرسالة الشمسية لنجم الدين
الكعبى ، واصطلاحات الصوفية لعبد الرازق السمرقندى ، والاصابة
فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى . ومن مؤلفاته : أصول الطب
العربى على عهد الخلفاء ، وسيرة محمد . فى ثلاثة أجزاء — بمعاونته
نولتكه .

(١٥) هناك اصرار من جانب أغلب المستشرقين على أن الاسلام
دين بشرى . ومن هذا المنطلق يحاولون جاهدين البحث عن جذور هذا الدين
فى الديانات القديمة السهامية والطبيعية والوثنية — وقد أعياهم هذا
الافتراض الباطل عن افراك جوهر الاسلام وفهم رسالته ، فراحوا يتخبطون
فى أحكامهم عليه وعلى نبيه .

ثم يتحدث « دوزى » بعد ذلك فى فصلين : ونهما بعنوان « محمد قبل الهجرة » وثنائهما بعنوان « محمد بعد الهجرة » - يتحدث عن شخصية النبى ، وحياته ، وتعاليمه ، والظروف التى مرت به ، وتأثيره ، وكذلك يتحدث عن تطور دينه وانتشاره الى حين وفاته .

أما عن موقف محمد الباطنى بالنسبة لعمله ، فإن المرء لا يستطيع ان يستخلص من كتاب « دوزى » حكما محددًا بهذا الخصوص : فتارة يظهر « محمد » كشخص مريض ، وكذاب ، وغشاش عن عمد ، وتارة أخرى يظهر مفتنعا بأنه صاحب عقيدة جيدة ، ومقتنعا بمهمته الالهية مثل « بولس » أو أى شخص آخر .

وبعد ذلك يأتى فصل عن « القرآن والسنة والاساطير » .

ويقول « دوزى » عن « القرآن » انه كتاب ذو ذوق ردىء للغاية ، وليس فيه شىء جديد الا أقل القليل وفيه اطناب بالغ وممل الى حد بعيد (١٦) .

أما قراءة السنة فإنها أمر أكثر جاذبية ، ولكنها اشتملت على المعجزات التى لم يعرفها « القرآن » .

ويتحدث الفصل التالى لذلك عن التعاليم والعبادات : أما التعاليم فقد عولجت بطريقة مختصرة للغاية ، فقد تم الحديث عن العقيدة فى

وبوم تزول الغشاوة عن الأعمى ويتجهون الى بحث الاسلام وهم ينشدون الحقيقة المجردة ، غير مبذلين بأفكار مسبقة أو أحتاد صليبية قديمة كانت أم حديثة - عندئذ فقط سيكون من السهل عليهم التوصل الى رؤية حقيقة الاسلام الناصمة وهى أنه دين الله .

(١٦) ليس بغريب أن يصدر مثل هذا الهراء من دوزى وأمثاله ما دام يبنى أحكامه على افتراضات باطلة . ولا شك أن دوزى لم يفهم القرآن ، أو بمعنى أصح لم يرد أن يفهم القرآن ، ولم يدرك ما ينطوى عليه من أعجاز وتمسحة وبلاغة أجبرت المشركين على الاعتراف بها ، فراح مندوبهم الوليد ابن المغيرة يردد بعد سماعه للقرآن « والله ان له لحلاوة » وان عليه لطلاوة ، وان أعلاه لثمر ، وان أسفله لمغدق ، وأنه يعلو وما يعلى ، وأنه ليحطم ما تحته » .

ولدوزى وأمثاله يقول القرآن : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب

أقفلها ؟ (محمد : ٢٤) .

صورة خطوط عريضة في صفتين فقط ، واما التعاليم الخلقية فقد جاء الحديث عنها بصفة عرضية فقط(١٧) .

وفي الفصلين التاليين يعود « دوزي » لاستكمال الحديث عن التاريخ ، ابتداء من وفاة « محمد » ولكن التاريخ السياسي لم يجد العناية المناسبة .

وفي الفصول التالية لذلك يتناول الفرق الكثيرة ، والاتجاهات الكلامية ، والحركات الخاصة المماثلة داخل الاسلام السني ، وذلك تحت العناوين التالية : « الفرق الاولى » و « الاسلام في عهد الحكم العباسي الاول » و « الاسماعيلية » و « الصوفية » ، ويبدو ان المؤلف قد وضع الثقل الرئيسي للبحث في هذا القسم .

اما الفصل الذي جاء بعنوان « الاسلام في الغرب » فانه يتناول فيه اسبانيا وشمال افريقيا .

ويعد الحديث عن « الأتراك والمغوليين والهنود والصين » ويعد الحديث باسهاب عن « الوهابيين » وجهودهم الاصلاحية في تطهير العقيدة ، يأتي فصل ختامي تفصيلي عن « وضع الاسلام في العصر الحاضر » .

وفي هذا الفصل يلقي المؤلف نظرة عامة على البلاد المحمدية في العصر الحاضر ويصفها بناء على العقيدة الدينية والحياة ودور العبادة والعادات ، كما يتمثل ذلك كله في الحياة العملية . وقد خصص نصف هذا الفصل تقريبا لبلاد الفرس ويأتي في المقابل لها الدولة التركية التي تعد المقسر الرئيسي للاتجاه السني .

(١٧) من الغريب ان يتحدث « دوزي » في مجلدات مطبوعة عن الجوانب التاريخية للإسلام ، ثم يتحدث عن التعاليم الخلقية للإسلام بصفة مرضية ، وهو يعلم ان النبي صلى الله عليه وسلم قد لخص رسالته كلها في تلك العبارة الجامعة حين قال : « اتبوا بعثت لأتكم مكارم الأخلاق » . ولكن يبدو أن القصد هو إخفاء الصورة المشرفة لتعاليم الإسلام ، والتركيز في مرض الإسلام على جوانب معينة ، يبدو لدوزي وأمثاله نقاط ضعف ، أو جوانب سلبية . وهكذا ألمين المريضة لا تستطيع أن ترى الشيء على حقيقته — فما بالك إذا كان القلب مريضاً وعليه انتقال ثقيلة .. !

وفى النهاية يعرض المؤلف لمسألة المصير المستقبلى لهذا الدين ، وعمّا إذا كانت المسيحية ستتغلب عليه وتزاحمه ؟ ويرى أن انهيار الاسلام امر غير متصور ، وأنه بالأحرى سيعيش طويلا ثابت الأركان ، مثل الكنيسة الكاثوليكية الرومانية .

٦ - الفريد فون كريمير (Alfred von kremer) :

يرجع الفضل العظيم الى « الفريد فون كريمير » (١٨) فى أنه كان أول من نظر الى الاسلام من جانب تاريخ الحضارة ، وقد رسم فى كتابه « تاريخ الأفكار السائدة فى الاسلام » الخطوط الرئيسية لتاريخ الحضارة العام للاسلام .

وغاية الكتاب هى ابراز الأفكار السائدة فى الاسلام بوصفها « قوانين لا تتغير ابدا » لتطور الحضارة وفى الوقت نفسه باعتبارها دليلا لكتابة التاريخ فى المستقبل .

وقد بدت مثل هذه الأفكار للمؤلف متمثلة فى مفهوم : الله ، والنبوة وفكرة الدولة .

ولكن هذه الأفكار الثلاثة لا تمثل الا الاطارات فحسب ، التى أراد المؤلف أن يُلخص فيها تأملاته وابحاثه ، وهى اطارات ضيقة جدا ، بالنسبة لعرض التطور الحضارى الاسلامى الشامل ، كما ان التقسيم فى حد ذاته غير متين .

فالباب الاول والثانى كثيرا ما يتداخلان ، اما الباب الثالث فقد

(١٨) هو البارون فون كريمير (١٨٢٨ - ١٨٨٩) ولد فى فيينا وتخرج فى جاسنتها ، أرسلته دولته قنصلا لها فى مصر ثم فى بيروت (١٨٧٠) ثم استدعته لوزارة الخارجية وغيرها من الوزارات فصرف بجده السياسى ونشاطه الاستشرافى . وقد نشر كثيرا من المخطوطات العربية منها : المغازى للواتدى ، والأحكام السلطانية للماوردي ، والاستبصار فى عجائب الأمصار . وله مقالات وبحوث عديدة فى شعراء الاسلام . ومن مؤلفاته : آثار اليمن ، وتاريخ الفرق فى الاسلام ، وتاريخ الحضارة فى المشرق تحت حكم الخلفاء - فى جزئين - (نقله الى العربية مصطفى بدر ١٩٥٧) ، وتاريخ الأفكار السائدة فى الاسلام .

كان ينبغي أن يتقدمهما . وإذا كان هناك قصور في الكتاب من حيث الشكل فإن المهمة التي أخذها المؤلف على عاتقه من حيث المادة قد تم حلها بطريقة شاملة .

وقد كان دقيقا - على وجه الخصوص - في تصوير المراتب الثلاثة للتطور في شكل الدولة ، وكذلك ما يتمثل في داخل هذه المراتب من فترات التطور الديني ، ويتمثل التالف - بوجه خاص - في تصوير خصائص التصوف .

والمؤلف مولع بتناول العصر المتأخر للإسلام ، فهو لا يتطرق إلى ازدهار الكلاسيكي للإسلام في القرن الأول إلا في أقل القليل ، ويركز على العصر اللاحق ، الذي يمتد حتى العصر الحديث ، وأكثر أقسام الباب الثالث أصالة هو القسم الذي يصور فيه الخطوط العريضة للسلطنة ، باعتبارها الصورة الحديثة للدولة ، أما الباب الأول والثاني فانهما لا يستطيعان أن يقدموا إلا القليل بجانب التصوير الرائع لدوزي وأبحاث شبرنجر .

ويعد كتاب « فون كريمر » (جولات تاريخية حضارية في حقل الإسلام) تكملة لكتابه « تاريخ الأفكار السائدة في الإسلام » . وقد بدا فيه ولوع المؤلف ببحث تلك الجوانب التي حدثت فيها التأثيرات الأجنبية على الإسلام ، وتلك التي يمكن فيها إثبات بقايا لأشكال الحضارة القديمة ، تحت الطبقة الكثيفة للأفكار المحمدية ، وتحت انقراض القرون ، وإن كانت هذه البقايا غالبا ما تكون أيضا مشوهة إلى حد الطمس (١٩) . وبهذه الطريقة نشأت صورة على شاكلة الفسيفساء وإن كانت في الغالب أيضا صورة غير تامة - للتأثيرات الأجنبية على الإسلام . وقد

(١٩) سبق أن أشرنا إلى الأسلوب الخاطيء للمستشرقين في تناولهم للإسلام كدين من حيث البحث عن التأثيرات الأجنبية عليه بناء على فرضيات باطلة ، وهنا نشير إلى أنه إذا كان المقصود بيان أن هناك تأثيرات أجنبية على حضارة الإسلام فإن الأمر يختلف ، إذ أن الإسلام لم يرفض أي عنصر من العناصر الإيجابية التي وجدها في الحضارات السابقة ، ومن هذا المنطلق لم يرفض المسلمون ما وجدوه في حضارة غيرهم ناهما لهم في مسيرتهم الحضارية فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها ، والبدا القرآني يقول : « فأما الزيد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » (الرعد : ١٧) .

اقتصر كريمر هنا على عصور الخلافة ، وحاول وصف بعض التحولات التي لها أهمية أكثر من غيرها ، والتي حدثت بتأثير من الأفكار الأجنبية ، وهي ليست مجرد تحولات دينية ، وإنما هي أيضا تحولات اجتماعية وتاريخية حضارية .

٧ - سنوك هورجرونجه (Snouck Hurgronje) :

في عام ١٨٨٦ نشر بحث أساسي له « سنوك هورجرونجه » (٢٠) بعنوان (الاسلام De Islam) في المجلة الهولندية (De gids) وهو عبارة عن عرض كلاسيكي لتطور العقل الاسلامي . فبعد الفاء نظرية عامة قصيرة على تاريخ البحوث المتعلقة بحياة محمد من (هوتنجر Hottinger) (٢١) الى (نولدكه Noeldeke) (٢٢) يقدم سنوك هورجرونجه في البداية نبذة عن حياة محمد وتعاليمه .

(٢٠) سنوك هورجرونجه (١٨٥٧ - ١٩٣٦) مستشرق هولندي زار مكة عام ١٨٨٤ منتحلاً اسماً اسلامياً هو عبد الغفار ، وأقام هناك في سوق الليل مدة خمسة أشهر ثم غادرها قبل موسم الحج - عين أستاذاً للعربية في جامعة ليدن (١٩٠٧ - ١٩٢٧) وكان يجيد اللغة العربية - اجادة تامة - يعد عميد العربية بعد جولدتسيهر وفي طليعة الرواد في دراسات الفقه الاسلامي والاصول والتفسير والحديث في أوروبا . ومن مؤلفاته : الحج الى مكة (بالهولندية) ، والمهدى (بالألمانية) ، ومكة وجغرافيتها في القرن التاسع عشر - في جزئين بالألمانية - وقد وصفها وصفاً دقيقاً شاملاً مع خرائط عديدة - وله بحوث كثيرة عن طابع الاسلام ، وانتشاره ، وابراهيم في القرآن ، والاسلام والمشكلة العنصرية ، وسياسة النبي الدينية ، ومجموعة دراسات عن الاسلام وتاريخه وشريعته ، وبلاد العرب وتركيا والهند ، واللغة والأدب .

(٢١) هوتنجر (١٦٢٠ - ١٦٦٧) مستشرق سويسري ، ولد في زيوريخ ، عمل أستاذاً للغات السامية في كل من زيوريخ وهايدلبرج . ومن مؤلفاته : تاريخ الشعوب الشرقية ، ونهرس المصنفات الشرقية (هايدلبرج ١٦٥٨) ، ومعجم مختلف اللغات ، والآثار الشرقية ، ومجموعة مباحث شرقية .

(٢٢) تيودور نولدكه (١٨٣٦ - ١٩٣٠) مستشرق ألماني ، عمل أستاذاً للغات السامية والتاريخ الاسلامي في جامعات جوتينج وكيسل واشترااسبورج .

وفى الفصل الثانى يتناول صراع « محمد » مع اليهودية والمسيحية فى المدينة ، وتصالحه مع الوثنية العربية (٢٣) اما الفصل الثالث فيخصه للحديث عن كتاب الله وسنة رسوله وقضية الاجماع ، وفى الفصل الرابع يصور عقيدة الاسلام ، ويتحدث عن علم العقيدة ، ويتناول التصوف على وجه الخصوص ، اما الفصل الختامى فانه يعرض فيه لعلاقة الاسلام بأوروبا ، وواجب أوروبا تجاه الاسلام .

وقد قدم سنوك هورجرونجه فى كتابه (Groote Godsdiesten) عرضا شعبيا شاملا للدين الاسلامى ، اشتمل على الانتشار ، والبدائيات ، وتقسيمات الفرق ، والتطور التشريعى ، ومضمون التشريع ، والتطور العقدى ، ومضمون الكتب الدينية ، والتصوف ، وتقديس الأولياء .

وتعد أيضا المحاضرات الأربع التى القاها « سنوك هورجرونجه » بناء على طلب من « اللجنة الأمريكية للمحاضرات المتعلقة بتاريخ الأديان » ذات قيمة كبيرة ، وفى هذه المحاضرات يتحدث عن مصدر الاسلام ، وعن تطوره الدينى ، وتطوره السياسى ، وعلاقة الاسلام بعالم الأفكار فى العصر الحديث .

* * *

٨ - اجناتس جولدتسيهر (Ignaz Goldziher) :

ان أعظم الباحثين فى الاسلام فى العصر الجاضر - بجانب « سنوك هورجرونجه » هو « اجناتس جولدتسيهر » (٢٤) : وأول مؤلفاته

وكان متضلعا فى العربية واللغات السامية والفارسية والتركية والحبشية والآرامية ، بالإضافة الى إتقانه لليونانية والألمانية والإنجليزية والفرنسية والأسبانية والإيطالية . ومن مؤلفاته : تاريخ القرآن ، ومفكرة عامة عن حياة محمد . وقدعاون شبرنجر فى كتابه سيرة محمد ، وأسهم فى نشر تاريخ البلدان للطبرى ، وترجم الى الألمانية الجزء الخاص بالساسانيين ، وله أيضا قواعد اللغة السريانية ، وتاريخ الشعوب السامية ، ودراسات فى قواعد اللغة العربية ، وعشرات البحوث والمقالات عن شعراء العرب واللغات الشرقية والدراسات الاسلامية ، وترجمت لبعض المؤلفات العربية .

(٢٣) يعمد صلح الحديبية .

(٢٤) اجناتس جولدتسيهر (١٨٥٠ - ١٩٢١) مستشرق من أصل

=

الكبيرة عن تاريخ الدين المحمدي - الذي كتبه للأسف باللغة المجرية - لا يقدم صورة كاملة للإسلام وتطوره ، ولكنه يقدم نظرة أكثر عمقا في الظواهر الجزئية ، وعوامل تاريخ الدين المحمدي ، ويحتوي هذا الكتاب بصورة تقريبية على ما يأتي :

١ - دين الصحراء والاسلام .

وهنا يريد جولدتسيهر - على العكس من (نولنجر Doellinger) و (شسبرنجر Sprenger) و (كريل Krehl) (٢٥) و (رينان Renan) (٢٦) - أن يثبت الدعويين التاليين :

مجرى . عمل أستاذا في جامعة بودابست ، سافر إلى سوريا وصحب هناك الشيخ طاهر الجزائري ثم رحل إلى فلسطين ومصر والقوى هناك بالشيخ محمد عبده وغيره من مشايخ الأزهر - يعد من أعلام المستشرقين المشهود لهم بطول الباع ، كما يعد من كبار أئمة الدراسات الإسلامية في أوروبا . كتب العديد من المقالات عن الإسلام في المجلات الآسيوية والغربية بالألمانية والإنجليزية والفرنسية والروسية والمجرية والعربية . أما أشهر مؤلفاته فقد كتبها بالألمانية والإنجليزية والفرنسية . وكانت مكتبته تضم ما يربو على أربعين ألف مجلد .

ومن مؤلفاته : العقيدة والشريعة في الإسلام (ترجمه إلى العربية د . محمد يوسف موسى وآخرون) ، ودراسات إسلامية - في جزئين - ومحاضرات في الإسلام ، وتاريخ مذاهب التفسير الإسلامي (مترجم إلى العربية) .

وقد نشر بعض المخطوطات العربية منها : فضائح الباطنية للغزالي ، ونقل إلى الألمانية بعض المؤلفات العربية . وله دراسات إسلامية عديدة عن القدرية ، والمرجئة ، والمعتزلة ، والحلاج ، والبخاري ، والإجماع ، والبدعة ، وتكريم الأولياء في الإسلام ، والحديث النبوي ، والتقية في الإسلام .

(٢٥) كريل (١٨٢٥ - ١٩٠١) مستشرق ألماني ، له كتاب عن حياة محمد ودهوته (١٨٨٥) ، وقد شارك في نشر الجزئين الأولين من نفخ الطيب للمقريزي (١٨٥٥ - ١٨٦١) ، ونشر من الجامع الصحيح للبخاري ثلاثة أجزاء (ليدن ١٨٦٢ - ١٨٦٨) .

(٢٦) أرنيست رينان (١٨٢٣ - ١٨٩٢) فيلسوف ومفكر فرنسي ، درس اللاهوت وتعلم في اللغات الشرقية وأخذ بمذهب حرية الفكر ، ورحل إلى الشرق ونزل لرينان وعنى بالعقائد الإسلامية .

- (١) محمد لم يكن تعبيراً عن روح الشعب العربى وإنما كان على التقيض من هذه الروح .
- (ب) وهذا ما جعل من سكان الصحراء من البدو الخصوم الطبيعيين لتعاليم النبى .
- ٢ - مآثورات الاسلام : عرض لحقيقة السنة النبوية ونشأتها وجمعها ، تلك السنة التى لولاها لكان القرآن لا يقدم الا صورة غير مكتملة للاسلام (٢٧) .
- ٣ - تقديس الاولياء وبقايا الاديان القديمة فى الاسلام : مفهوم الولى وتطور التقديس الممنوح للاولياء والعقيدة الشعبية المتعلقة بذلك .
- ٤ - العمارة فى الاسلام .
- ٥ - حياة الجامعات المحمدية : الجامع الأزهر فى القاهرة أشهر جامعات الاسلام .
- ٦ - آراء خاطئة عن الاسلام .

ومن مؤلفاته : ابن رشد والرشدية (مترجم الى العربية) ، وتاريخ اللغات السامية ، وتاريخ الأديان ، وحياة يسوع ، وتقدم الآداب الشرقية .

(٢٧) السنة - كما يقول الامام الشاطبى - « راجعة فى معناها الى الكتاب ، فهى تفصيل مجمله وبيان مشكله وبسط مختصره » ولا تجد فى السنة أمراً الا والقرآن قد دل على معناه دلالة اجمالية أو تفصيلية . والسنة ليست قاضية على الكتاب وإنما هى مفسرة له وشارحة لمعاني أحكامه . (راجع الموافقات للشاطبى ج ٤ ص ١٠ - ١٢) .

والأمر الذى لا ينبغى أن يغيب عن الأذهان فى هذا الصدد هو أن ما جاء فى السنة الصحيحة من بيان أو تفصيل أو شرح لمسا فى القرآن أو حتى ما جاء فيها من أحكام لم ترد فى القرآن لم يكن من عنديات الرسول وإنما كل ذلك مرده الى الله . فالسنة شأنها شأن الكتاب « **واذكروا عند الله وقد أنزل اليها القرآن فى كثير من الآيات بلفظ الحكمة « وأنكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به »** (البقرة : ٢٣١) . . . « **وأنكروا ما ينسى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة** » (الأحزاب : ٣٤) . . . وجمهور المفسرين على أن المراد بالحكمة هو السنة . ويقول الامام الشافعى أيضاً : « كل ما سن رسول الله مما ليس فيه كتاب ، وغيباً كتبنا فى كتابنا هذا ، من ذكر ما من الله به على العباد من تعلم الكتاب والحكمة دليل على أن الحكمة سنة رسول الله » - الرسالة ص ٣٢ .

ويقدم لنا جولدتسيهر فى كتابه « دراسات محمدية » سلسلة من البحوث المتفرقة التى يربط بينها رباط وثيق عن تاريخ الاسلام فى القرون الاولى ، وموضوع هذه البحوث هو :

(ا) صراع المبادئ الاسلامية مع النظرة العربية الموروثة الى الحياة ، تلك النظرة التى تتعارض معها تعارضا صارخا الى حد ما .

(ب) النصر التدريجى لفكرة المساواة - التى تعد فكرة اساسية من افكار الدين الجديد - وذلك عن طريق النهوض الذى حققه الناس وحققته شعوب كاملة تحت السيادة الاجنبية ، ويخص بالذكر من هذه الشعوب الفرس .

ويبحث « جولدتسيهر » كيف اضطرت عقلية العرب ، ونظرتهم الى الحياة ، ووضعهم السياسى لاتخاذ موقف ازاء العقيدة الجديدة ، واي تأثيرات مارستها خصوصيات العقلية العربية على التطور الداخلى للاسلام فى عصر الخلفاء ، وقد اهتم « جولدتسيهر » اهتماما خاصا بتاريخ الحديث النبوى (ص ٢٣٣ وما بعدها) ويتناول مسألة تقديس الاولياء (ص ٣٠٣ وما بعدها) .

ويقدم لنا « جولدتسيهر » عرضا ممتازا للدين الاسلامى فى سلسلة « حضارة العصر الحاضر » ، فبعد مقدمة يصور فيها دين العرب قبل الاسلام ، ونظرتهم الى الحياة يعطى « جولدتسيهر » فى خطوط عريضة قوية تاريخ تطور الاسلام فى ستة فصول (على النحو التالى) :

- ١ - حياة محمد وتعاليمه .
- ٢ - نمو الاسلام .
- ٣ - تكوين علم العقيدة الاسلامى وتأثير العناصر الفارسية فى عصر العباسيين (٧٥٠ - ١٢٥٨) .
- ٤ - الانقسامات العقدية وتكوين الفرق الاولى .
- ٥ - المهديية .
- ٦ - الفرق الجديدة .

ويشهد الكتاب لمؤلفه بالاطلاع الواسع والتمكن من الموضوع ، وفى كل مكان يعتمد « جولدتسيهر » على المصادر ، وفى كل مكان يجعل حملة التقدم الفكرى أنفسهم يتحدثون فى اقتباسات قصيرة وسديدة .

وتكملة لهذا التناول الرائع يقدم جولدتسيهر أيضا على الصعيد
الفلسفي بحثا بعنوان : « الفلسفة الإسلامية واليهودية في العصر الوسيط »
في سلسلة « حضارة العصر الحاضر » .

واخيرا يقدم « جولدتسيهر » تلخيصا لعمله طوال حياته ، على
صعيد تاريخ الدين الاسلامي في كتابه « محاضرات عن الاسلام » وبناء
هذه المحاضرات تاريخي وليس نسقيا .

فنحن نرى الأفكار تنشا وتتمو وتؤثر وتغنى . وهنا يفترض أن
الأحداث الخارجية معروفة .

وهكذا ، لا يقدم لنا في الفصل الأول الذي عنوانه « محمد والاسلام »
شيئا عن الظروف الخارجية لحياة النبي ، ولكنه بدلا من ذلك يقدم لنا
الشيء الكثير عما هو أكثر أهمية ، أي عن محمد الانسان المتدين ،
ويتناول في الفصل الثاني « تطور التشريع » ، أما تاريخ الحديث
النبي ، الذي ندين فيه بالفضل للمؤلف ، فإنه يقدمه لنا هنا في خطوط
عريضة مصحوبا ببعض الأسانيد الجديدة .

ويبرز في وضوح شديد كيف تحول الدين في عهد العباسيين الى
« شأن مركزي من شئون الدولة » وبعد ذلك يقدم لنا وصفا لبدائيات
التشريع ، ثم يكتب بعد ذلك - بولوع خاص - الفصل الثالث عن
« التطور العقدي » ، أما الفصل الرابع فقد خصصه للحديث عن
« الزهد والتصوف » .

وهنا يعرض لمنشا الزهد ويعرض للتأثيرات « الأفلاطونية الحديثة »
« والبوذية » ، وقد خصص الفصلين الأخيرين للحديث عن « شئون
الفرق » و « الصور المتأخرة » ، ويتحدث على وجه الخصوص بأسهاب
عن الشيعة كما يعرض أيضا عرضا عميقا لكل من « الوهابية »
« والبابية » ، ويختتم الكتاب بمحاولات وامكانيات حدوث تفاهم بين
المسنة والشيعة .

وهناك تكملة صغيرة لهذا الكتاب يقدمها في بحثه عن « الاتجاه
التوحيدي والتفرق في الاسلام » .

وفي البداية يعرض « جولدتسيهر » في هذا البحث للمجال الواسع
الذي يوفره الاسلام للخلاف في الراي ، على صعيد العبادات والتشريع

والعقيدة ، ولكنه يبين بعد ذلك كيف تكون بالتدريج رد الفعل ضد هذه التمزقات ، فكما ازداد الاعتراف بجواز الاختلافات من ناحية ، كلما ازداد من ناحية أخرى وجوب التأكيد على ذلك الذي يحظى بالاتفاق من جانب كل الجماعة الاسلامية « ، ومن هذا الاعتبار انبثقت نظرية « الاجماع » انبثاقا ذاتيا بوصفها معيارا للتصحيح الدينى .

وتشتمل موسوعة (Jewish Encyclopedia) اخيرا على مقال ممتاز عن « الاسلام » بقلم « جولدتسيهر » يدل على اطلاع واسع .

* * *

٩ - مكدونالد (Duncan B. Macdonald) :

أما « دنكان ب . مكدونالد » (٢٨) الأستاذ بمعهد اللاهوت بهارتفورد (connecticut) فقد وضع بحوثه وخبراته الغنية على صعيد تاريخ الدين الاسلامى فى ثلاث مؤلفات اساسية :

وأول هذه المؤلفات هو « تطور علم الكلام والفقه ، والنظرية الدستورية فى الاسلام » (Development of Muslim Theology; Jurisprudence and Constitutional Theory) .

وفيه يلقى نظرة شاملة على تطور علم الكلام ، وتطور المؤسسات التشريعية ، والنظرية السياسية فى الاسلام ، ويتناول القسم الأول : موضوع تطور مؤسسات الاسلام السياسية ، منذ النشأة حتى ظهور الحركة الحديثة للوهابيين ، واتجاه الوحدة الاسلامية .

(٢٨) مكدونالد (١٨٦٢ - ١٩٤٣) مششرق أدريكى ، اشرف على القسم الاسلامى بهارتفورد بأمرىكا لسنوات طويلة وأنشأ مجلة عالم الاسلام بمعاونة صمويل زويمر ، كما أنشأ بمعاونة سارنون مجلة ايزيس .

وله دراسات عديدة عن الدين الاسلامى وعلم الكلام والتصوف والفلسفة والفقه ودراسات فى الف ليلة وليلة والشعر العربى واللهجات العربىة والعلوم الطبيعية فى الاسلام . وقد قام بترجمة كثير من النصوص العربية الى الانجليزية منها رسالة النفس لابن سينا ، وله كتاب فى (غرض المسيحية للمسلمين) . ويصدر مكدونالد فى كتاباته عن روح دشرية واضسحة .

وفي القسم الثاني : يتناول « مكدونالد » مبادئ التشريع المحمدي وتطوره ، في صلتها بتطور المؤسسات السياسية ، ويبين بصفة خاصة تأثير القانون الروماني ، ويكشف عن وجوه الشبه (٢٩) .

وفي القسم الثالث : يتناول تاريخ الحركات الكلامية والفلسفية في الاسلام ، فضلا عن ذلك يعرض للفرق الكلامية وللمسائل التي طبعت كلا منها ، ويصور تكوين « المدرسة الاعتزالية » وتطورها بكل الفروق الدقيقة المعقدة ، حتى حدوث التصالح بين النزعة العقلية والنزعة السنية ، بفضل علم الكلام الأشعري ، كما يتناول تأثير الفلسفة الأفلاطونية والأرسطية ، والمعارضة التي لقيتها هذه الفلسفة من جانب « الغزالي » المتكلم الكبير ، ويصف الأصوات الصوفية للنزعة التصوفية المحمدية والحكمة الالهية ، والمحاولات المتجددة باستمرار للعودة الى التقاليد الأولى .

ويعد القسم الخاص بتصوير التصوف من أحسن أقسام الكتاب . وينبئ التصوف - بناء على وجهة نظر مكدونالد - عن تأثيرات أفلاطونية حديثة ، وليس عن تأثيرات بوذية ، كما يذهب الى ذلك أيضا كل من نيكلسون ، وبراون ، وكارادي فو .

(٢٩) ذهب فريق من المستشرقين الى الزعم بتأثر الشريعة الاسلامية بالقانون الروماني ، جريا على عادتهم في رد كل شيء في الاسلام الى مؤثرات أجنبية . وقد ناقش هذا الزعم وأبطله فريق من العلماء منهم الأستاذة عبد الرزاق السنهوري وشقيق شحاته ومحمد يوسف موسى ومحمد سلام مذكور وغيرهم . يقول الدكتور السنهوري في معرض مقارنته بين الشريعة الاسلامية والقانون الروماني : « فان هذا القانون بدأ عادات وما ازدنهر عن طريق الدعوى والاجراءات الشككية . لها الشريعة الاسلامية فقد بدأت كتابا منزلا من عند الله ونمت وازدهرت عن طريق التماس المنطقى والأحكام الموضوعية الا أن فقهاء المسلمين اقتازوا عن فقهاء الرومان ، بل امتازوا عن فقهاء العالم باستخلاصهم أصولا ومبادئ عامة من نوع آخر هي أصول استنباط الأحكام من مصادرها وهذا ما سموه بعلم أصول الفقه » . (أصول القانون ص ١٣٢) . فالصلة - كما يقول العالم الفرنسي « زيس Zys » منقطعة تماما بين الشريعة الاسلامية والقانون الروماني لاعتماد هذا على العقل البشري بينما تقوم الشريعة الاسلامية على الوحي الالهي . . . فكيف يتصور التوفيق بين نظامين قانونيين وصلا الى هذه الدرجة من الاختلاف ؟

(انظر : المدخل لدراسة الشريعة الاسلامية للدكتور عبد الكريم زيدان - مكتبة القدس - بغداد ١٩٨١ ص ٧٣ - ٨٩) .

ويورد « مكدونالد » ملحقاً يقدم فيه - فى ترجمة انجليزية جيدة - سلسلة من قضايا العقيدة المحمدية التى كانت تشكل اساس التعليم ، و اساس الدراسة العقديّة .

و اذا كان « مكدونالد » قد عرض فى هذا الكتاب علم العقيدة الاسلامى فانه يصور فى كتابه الثانى «الموقف الدينى والحياة فى الاسلام» :
(The religious Attitude and life in Islam.) السلوك الدينى
وحياة المسلمين ، وقد استرشد فى ذلك بكتاب وليم جيمس (٣١)
فى تنوع الخبرة الدينية (Varieties of religious Experience) .
والامر الجدير بالاعتبار فى هذا الكتاب الثانى مكدونالد : هو اثبات ان التصوف يعد القوة الأكثر حيوية فى الدين الشخصى للمسلم ، والشىء الممتاز أيضاً هو ما يذكره « مكدونالد » عن علاقة الشرقى بما فوق الطبيعة . فالفرق بين الشرق والغرب لا يتمثل فى سرعة التصديق لدى الشرقى ، وانما فى عدم قدرته على بناء نسق ثابت منيع للظواهر ، فهو لا يعرف « قوانين طبيعية »

والذى يعرفه هو « ما فوق الطبيعة » ، وهو لا يحاول ان يخضعه لقانون ، فكل شىء ممكن (٣٢) .

(٣١) وليم جيمس (١٨٤٢ - ١٩١٠) فيلسوف أمريكى ، يعد المثل الرئيسى للزعة البراجماتية فى الفلسفة . وله عدا ذلك نظريات فى الفين وعلم النفس والفسيولوجيا . ومن كتبه المترجمة الى العربية كتاب (ارادة الاعتقاد) الذى قام بترجمته المرخوم الدكتور محمود حبيب الله .

(٣٢) اذا كان المقصود بالشرقى هنا المسلم على وجه الخصوص فاثنا نرى هنا تفسيراً خاطئاً للعقيدة الاسلامية . فالزعم بانّه غير قادر على بناء نسق ثابت للظواهر لعدم معرفته بما يسمى بالقوانين الطبيعية زعم باطل . فالله فى الاسلام قد خلق هذا الكون ونظمه وسيره حسب خطة محكمة ونظام دقيق . والكون كله يسير وفق مسنن الله ، وسنن الله لا تتبدل « مسنة الله فى الذين خلوا من قبلى ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً » (الأحزاب : ٦٢) وهذه السنن الالهية هى ما يعرف بالقوانين الطبيعية . فالمسلم انن يعترف بالقوانين الطبيعية ويعترف بانها ثابتة ، لأن الله اراد لها ذلك ولأنه هو خالقها . من هنا يستطيع المسلم ان يبنى نسقاً ثابتاً للظواهر الطبيعية لأنها لا تسير فى اعتقاده على غير هدى ، غير أنه لا يغيب عن ذهنه ان هذه القوانين الطبيعية من صنع الله . نأى غير فى هذا ؟ !!

اما الكتاب الثالث وهو جوانب مختلفة في الاسلام ، فيقوم على محاضرات القاها « ماكدونالد » في المعهد اللاهوتي في هارتفورد . وغاية هذه المحاضرات أن تكون بمثابة مدخل لدراسة الاسلام الحاضر ، بالنسبة لهؤلاء الذين سيكونون مبشرين في المستقبل .

وقد رسم المؤلف في عشر محاضرات صورة واضحة وضوحا رائعا للشرق الاسلامي ، وشخص مؤسس الدعوة ، وتعاليمه ، والقرآن وعلم الكلام المحمدي ، والميتافيزيقا المحمدية ، والتصوف ، والدرأويش ، والموقف المحمدي تجاه المسيح ، والانجيل المسيحي والتبشير المحمدي ، والتربية والحياة الباطنية .

والنتيجة الرئيسية لباحه : هي أنه من الناحية العملية يعد كل الناس الذين يفكرون تفكيراً دينياً متصوفة ، وأنه يجب البحث عن الدين الاسلامي الحقيقي بين الدراويش (٣٣) . ولكن هناك نسبة ضئيلة من هؤلاء الدراويش يعيشون منقطعين لحياة الزوايا ، أما الغالبية منهم فانهم يعيشون في عالم الناس ، ولكنهم مرتبطون بالطرق الصوفية عن طريق عهد ، أو نذر معين لأوقات معينة ، مثل أصحاب طريقة (الترتسيارير Tertiarier) (٣٤) في العصور الوسطى .

وهذا الكتاب من الكتب التي ينصح بفراستها على وجه الخصوص ؛ بوصفه دليلاً عملياً لدراسة الاسلام الحديث ، وبوصفه عوناً ذكياً للمبشرين في تنصير الجماعات المحمدية .

(٣٣) لا يجوز البحث عن الدين الاسلامي الحقيقي بين الدراويش أو غيرهم من فرق اسلامية مختلفة ، وإنما يجب أن يبحث عنه في كتاب الله وسنة رسوله الصحيحة ، بكل ما وافقها فهو اسلام وكل ما خالفها فليس من الاسلام في شيء ، فالاسلام - مثلاً في القرآن والسنة الصحيحة هو الحكم الفصل وهو المقياس الأوحيد الذي يحكم به على كل ما عداه ، ولا يجوز اسلابها ولا علمياً قلب الحقائق واعتبار الفرق الاسلامية الشائعة أياً كان عدد أتباعها هي الحاكمة على الاسلام . وقد درج كثيراً من المستشرقين على الخلط بين الاسلام وواقع المسلمين ، ولا يزال يتبنى هذا الاتجاه الخاطيء عدد من المستشرقين المعاصرين .

(٣٤) الترتسيارير هي إحدى الطرق المسيحية الكاثوليكية التي تضم جماعات من الرجال أو جماعات من النساء يفرض السعي نحو حياة مسيحية مثالية تحت إرصاد الطريقة .

١٠ - مرجليوث (Margoliouth) :

عرض « مرجليوث » (٣٥) في محاضرات (هيبيرت (Hibbert) في عام ١٩١٣ العناصر التي أسهمت في صنع المذهب المحمدي الأصلي . ويعد القرآن أساس الاسلام ، وفي أثناء حياة النبي كان يوحى اليه من وقت الى آخر بآيات من النموذج الأصلي السماوي للقرآن ، وقد جعله ذلك في وضع يستطيع فيه ان يفصل في المسائل اليومية التي تعرض عليه . بوصفه زعيم الجماعة الجديدة .

وبعد وفاة محمد قام الخليفة الاول بجمع كل آيات القرآن ، وبعد ذلك بحوالي اثنتي عشرة سنة تم اخراج نسخة رسمية للقرآن .

ولكن على الرغم من الاعتقاد القائل بان القرآن يعد وحياً كافياً لكل العصور ، بالنسبة للعقيدة ، والأخلاقيات ، فإنه قد برزت آلاف المسائل التي لم ترد لها اجابة في القرآن ، ومن أجل ذلك كان لابد من اكتماله

(٣٥) د . س . مرجليوث (١٨٥٨ - ١٩٤٠) مستشرق انجليزي ، يعد من أشهر أساتذة العربية ومن بين أئمة المستشرقين ، كان أستاذاً لكرسي اللغة العربية في جامعة أكسفورد منذ عام ١٨٨٩ ، كما كان يتمتع بعضوية عدة مجامع علمية كالمجمع اللغوي البريطاني والمجمع العلمي العربي بدمشق والجمعية الشرقية الألمانية . وله دراسات عديدة عن الاسلام وتاريخه والأدب العربي واصوله . وقد قام بترجمة الكثير من النصوص العربية وتحقيق عدد من المخطوطات العربية .

ومن بين مؤلفاته : محمد ونهضة الاسلام (١٩٠٥) ، والاسلام (١٩١١) ، وانتشار الاسلام (١٩١٤) ، وجنوب الجزيرة العربية والاسلام ، والزندقة في الاسلام والمسيحية ، وأصول الشعر العربي .

والبحث الأخير هو الذي اعتمد عليه الدكتور طه حسين في كتابه عن الشعر الجاهلي الذي صدر عام ١٩٢٦ . ولم يشر بفانمولر هنا الى كتاب أصول الشعر العربي وما أثاره من ردود فعل مختلفة نظراً لأن مرجليوث قد نشر بحثه عام ١٩٢٥ أي بعد صدور كتاب يفانمولر بعامين . وقد قام الدكتور يحيى الجبوري بترجمة بحث مرجليوث الى العربية وقدم له بمقدمة قيمة عرض فيها « فكرة الانتحال : كيف نشأت ، وكيف عالجهما الكاتبون قديماً وحديثاً والام انتهت » . وقد صدرت هذه الترجمة تحت عنوان : أصول الشعر العربي - مؤسسة الرسالة : بيروت الطبعة الثانية ١٩٨١ .

بطرق شتى : عن طريق التشريع ، والطقوس ، والأخلاق ، وعلم الكلام ،
والفلسفة ، والتاريخ (٣٦) .

وقد كانت المهمة التي أخذها « مرجليوث » على عاتقه هي ارجاع
هذه الأمور المكتملة الى مصادرها الاصلية .

وقد قدم « مرجليوث » بالاضافة الى ذلك في دليل كمبرج للعلوم
والاداب : (Cambridge Manuals of Science and Literature)
عرضا شعبيا جيدا للاسلام وتاريخه بوصفه صورة من صور السدين
والحضارة .



(٣٦) لقد انبثقت النهضة العلمية التي شهدتها الأمة الاسلامية
اساسا من منطلق ان القرآن هو مركز الدائرة لكل الجهود العلمية ، فكانت
كلها جهودا من أجل خدمته والحفاظ عليه ومحاولة فهمه وادراك مقاصده .
وقد راعى الاسلام بما سوف يجد من تطورات في حياة الانسان وما سيطرأ
على حياة المجتمعات من ظروف لم يكن لها نظير من قبل ، فلم يشأ ان يسب
امامه المنافذ ويكبل عقله ويجهد تفكيره ، وانما اعان الاسلام المسلم وشجعه
على تكييف حياته طبقا لظروف العصر الذي يعيش فيه مع الحفاظ في الوقت
نفسه على الاسس الاسلامية الثابتة .

ومن المعروف ان هناك في الاسلام ما يسمى بالاصول والفروع أو
الثوابت والمتغيرات . فالثوابت أو الاصول لا مجال فيها للتعديل أو التغيير ،
أما الفروع فهي مجال التغيير أو التعديل طبقا لظروف العصر ، على أساس
من القواعد الاسلامية الثابتة . فالحياة الاسلامية الصحيحة إذن لا تبتعد
على الاطلاق في ظل المتغيرات المختلفة من اصولها وقواعدها الأساسية .
ومرجليوث لم يفهم هذه الرونة التي يقصدها الاسلام في الأمور الفرعية
وفهم ان هناك قصورا في القرآن كان في حاجة الى اكمال ، وهذا أمر
غير وارد اطلاقا . فانطلاق المسلم في بناء نهضة طيبة شملت الفقه
الاسلامي بهدارسه المختلفة وعلم الكلام والفلسفة والتاريخ والأخلاق وغير
ذلك من علوم دينية أو دنيوية كان استجابة أصيلة لنداء القرآن الذي حض
على العلم ورفع من شأن العلماء واحترم العقل الانساني وشجعة على السير
في طريق البحث والتأمل والابداع . وكان الاسلام في كل ذلك حائيا عليه
الى أقصى الحدود حين قرر ان المسلم اذا اجتهد مأظا فله أجر واذا اجتهد
نأصاب فله أجران .

« محمد » والخلفاء الأول ، وفى المحاضرة الثانية : يتحدث عن القرآن وتعاليم « محمد » ، وفى المحاضرة الثالثة : يتحدث عن عصر ازدهار الخلافة وعن عصر الانهيار .

وهذه المحاضرات الثلاث ذات طبيعة تاريخية ، ولا تتجاوز المعلومات التى نجدها فى المراجع المتعلقة بذلك بما فيها كتابه هو عن « الاسلام » .

أما المحاضرتان الأخيرتان : الرابعة : عن نظم الدولة الاسلامية حتى العصر الحديث ، والخامسة : عن الوضع الراهن للعالم الاسلامى ، فانهما على العكس من ذلك . يمكن أن يقدم أيضا شيئا لكل من المؤرخ ، وعالم الاجتماع ، والمستشرق - كما يرى هارتمان نفسه - .

١٢ - برونو فيوليت (Bruno Violet) : ...

يتحدث « فيوليت » (٤٢) فى محاضرة قصيرة عن مسألتين : المسألة الاولى هى : هل الاسلام دين مستقل ؟ والمسألة الثانية هى : هل هناك حضارة للاسلام تجمعها وحدة واحدة ؟

وتقول الاجابة : ان الاسلام دين يعبر بطريقة استقلالية ، عن شعور الاعتماد على الله ، وهو حضارة تنبئ عن وحدة معينة ، عن طريق الدين ، على الرغم من الاختلافات العميقة لحضارة العديد من شعوبه ، وبلاده ، وعصوره .

ولم يستخدم المؤلف للأسف الا مصدرا واحدا فقط وهو القرآن ، ولا شك أننا نحصل منه على الصورة الأقدم للاسلام ، ولكننا لا نحصل منه على صورة الاسلام الراهن (٤٣) ، وقد كان يتحتم على المؤلف عندما يعرض الاسلام الراهن أن يضم الى القرآن بحوثا دينية حديثة ، ومن خلال ذلك تنشأ صورة اخرى تماما .

(٤٢) برونو فيوليت مستشرق ألماني ، وقد صدر له عام ١٩١٦ فى برلين كتاب عن الاسلام بعنوان : الدين الاسلامى وحضارته .

(٤٣) تعبير (الاسلام الأقدم) و (الاسلام الراهن) يوحى بأن هناك أنواعا مختلفة من الاسلام عبر التاريخ ، كما نسمع اليوم أيضا نغمة شعوبية تحاول أن تخفى شعوبيتها على الاسلام ، وعلى ذلك يمكن أن

وبعد ذلك يتحدث « هارتمان » على وجه الخصوص بأسهاب عن الحق الخاص ، والحق العام ، وفقا للمذهب الشافعي ، وتشكل خاتمة الكتاب نبذة عن المجتمع الاسلامي ، وفصلا عن انتشار الاسلام ، مع ملاحظات تاريخية واحصائية قيمة .

والمعلومات الخاصة بمادة الكتاب عن حياة « محمد » وعن القرآن ، والعقيدة ، والتكاليف الدينية ، تستند على دراسة خاصة للمصادر ، وهي معلومات موتوق بها وان كانت ايضا غير كافية ، فهارتمان لم يخصص للحديث عن التصوف الا بضع سطور فقط ، مع ان التصوف يعد ذا أهمية قصوى ، وبدونه لا يمكن فهم الاسلام ، كما ان « هارتمان » لم يشر الى امور السحر (٤٠) ، ويصفه خاصة نجد ان النسق الاجتماعي لمفهوم « الحاجة الى التجمع » (Gesellungen) لدى « هارتمان » يسود تناوله للموضوع كله ، وقد كان يجب عليه ان يبرهن أولا على صحة هذا النسق .

ويتجه هارتمان بكتابه « خمس محاضرات عن الاسلام » (٤١) الى الجمهور العريض .

يتحدث في المحاضرة الأولى عن تاريخ ما قبل « محمد » ، وعن

(١٠) من الخطأ الاعتقاد بان الفهم الصحيح للاسلام يتوقف على فهم التصوف . فإذا كان المقصود بالتصوف هو الاتجاه الزهدي في الإسلام أو التصوف السني فإن هذا قد انبثق من الإسلام نفسه ، وبالتالي فإن فهم هذا التيار يتوقف على فهم الإسلام نفسه وليس العكس . وأما إذا كان المقصود بالتصوف هو تلك العناصر الأجبسية التي أخصت على الحركة الصوفية فإن فهم الإسلام لا يتوقف عليها بأي حال من الأحوال لأنها ليست من الإسلام في شيء . وأما ادخال أمور السحر في عرض الإسلام أو في فهمه فإنه لأمر يدعو الى الغرابة حقا . فقد قضى الإسلام على الخرافات والأوهام والتعوذ والكهانة وطمس الطريق للعقل الانساني ليفهم ويدرك ويميز بناء على أسس واضحة لا التواء فيها ولا اعوجاج .
فما شأن الإسلام بالسحر إذن ؟

وهكذا نجد أنه ليس هناك مبرر على الإطلاق لهذا النقد الذي وجهه بفابولر الى هارتمان لأنه لم يذكر التصوف الا في بضعة أسطر ولم يشر الى أمور السحر . الخ .

(١١) نشرت هذه المحاضرات في لسنج ، عام ١٩٠٢ .

« محمد » والخلفاء الأول ، وفي المحاضرة الثانية : يتحدث عن القرآن
وتعاليم « محمد » ، وفي المحاضرة الثالثة : يتحدث عن عصر ازدهار
الخلافة وعن عصر الانهيار .

وهذه المحاضرات الثلاث ذات طبيعة تاريخية ، ولا تتجاوز المعلومات
التي نجدها في المراجع المتعلقة بذلك بما فيها كتابه هو عن « الاسلام » .

اما المحاضرتان الاخيرتان : الرابعة : عن نظم الدولة الاسلامية حتى
العصر الحديث ، والخامسة : عن الوضع الراهن للعالم الاسلامي ، فانهما
على العكس من ذلك . يمكن ان يقدموا أيضا شيئاً لكل من المؤرخ ، وعالم
الاجتماع ، والمستشرق - كما يرى هارتمان نفسه - .

١٢ - برونو فيوليت (Bruno Violet) : . . .

يتحدث « فيوليت » (٤٢) في محاضرة قصيرة عن مسألتين : المسألة
الأولى هي : هل الاسلام دين مستقل ؟ والمسألة الثانية هي : هل هناك
حضارة للاسلام تجمعها وحدة واحدة ؟

ونقول الاجابة : ان الاسلام دين يعبر بطريقة استقلالية ، عن شعور
الاعتماد على الله ، وهو حضارة تنبئ عن وحدة معينة ، عن طريق
الدين ، على الرغم من الاختلافات العميقة لحضارة العديد من شعوبه ،
وبلاده ، وعصوره .

ولم يستخدم المؤلف للأسف الا مصدرا واحدا فقط وهو القرآن ،
ولا شك اننا نحصل منه على الصورة الأقدم للاسلام ، ولكننا لا نحصل
منه على صورة الاسلام الراهن (٤٣) ، وقد كان يتحتم على المؤلف عندما
يعرض الاسلام الراهن ان يضم الى القرآن بحوثا دينية حديثة ، ومن خلال
ذلك تنشأ صورة اخرى تماما .

(٤٢) برونو فيوليت مستشرق المساني ، وقد صدر له عام ١٩١٦
في برلين كتاب عن الاسلام بعنوان : الدين الاسلامي وحضارته .
(٤٣) تعبير (الاسلام الأقدم) و (الاسلام الراهن) يوحي بأن
هناك أنواعا مختلفة من الاسلام عبر التاريخ ، كما نسمع اليوم أيضا نغمة
شعبوية تحاول أن تفسح شعوبيتها على الاسلام ، وعلى ذلك يمكن أن

=

١٣ - شوبرت (Schubert) :

يبحث « شوبرت » (٤٤) الوضع الدينى الكنسى فى صلاته التاريخية ويتحدث فى بادىء الأمر عن « المسيحية فى أوساط الأديان » . وهنا يفرد فصلا خاصا عن « أديان التوحيد غير المسيحية ، وبصفة خاصة الدين الاسلامى » . وفى هذا الفصل يوحد احدث البحوث فى صورة رائعة .

١٤ - زاييتس (Seltz) :

يتناول « زاييتس » (٤٥) شخصية محمد وصفاته ، وكذلك تاسيمه لدينه ، وذلك فى أغلب الأحيان فى صورة اقتباسات حرفية ، من المراجع الاسلامية الحديثة ، ويبرز فضائل محمد ، ولكنه يذهب الى أبعد من ذلك كثيرا فى ابراز جوانب ضعفه ، أى ابراز الحاسة الدنيوية « لرسول الله » وقصور التبرير الالهى « للنبنى » . ويتعرض أيضا عمل « محمد » لمثل هذا النقد السلبي (٤٦) .

تكون هناك عدة أنواع مختلفة من الاسلام تعيش فى العصر الواحد فى شعوب مختلفة ، والأسلوب العلمى الصحيح يفرض على الباحث أن يدرس الاسلام — الذى هو دين الله — فى مصادره الأصلية ، لا فى ممارسات الشعوب التى قد تقترب أو تبتعد عن الاسلام .

(٤٤) هانز فون شوبرت ، باحث ألمانى . وقد صدر كتابه الذى تحدث فيه عن الاسلام عام ١٩٢٠ فى توبنجن بعنوان (وضعنا الدينى الكنسى فى صلاته التاريخية) .

(٤٥) أنطون زاييتس مستشرق ألمانى ، وقد صدر كتابه عام ١٩٢١ فى بادربورن (Paderborn) بعنوان : تأسيس محمد للدين .

(٤٦) الاسلام دين ودنيا ، ولهذا اهتم الاسلام بأمر الدنيا كما اهتم بأمر الآخرة . واعتبار اهتمام النبنى بالأمر الدنيوية نقطة ضعف أمر يدل على عدم فهم الاسلام . . ويعنى أن الباحث يأخذ الفهم المسيحى للمسيح ويجعله مقياسا يطبقه على محمد صلى الله عليه وسلم . وهذا أسلوب غير علمى وغير مقبول . أما التبرير الالهى للنبنى فيجب أن يبحث عنه فى التشرآن الكريم نفسه ، فهو أفضل سبيل لبيان أن رسالة محمد من عند الله . ولكن يبدو أن الباحث يريد هنا أيضا أن يجعل من الفهم المسيحى للمسيح من حيث الصلب والغداء . الخ مقياسا للتبرير الالهى يطبقه على النبنى . وهذا أيضا أمر مردود لا يمكن قبوله .

١٥ - ليبيل (Lippl) :

يقدم « ليبيل » (٤٧) نبذة عن نشأة الاسلام وتطوره وتعاليمه :
كثيرة لسلسلة من المحاضرات العامة . وهى محاضرات « لعلها تكون
وسيلة مساعدة مناسبة لتمهيد اولى لتاريخ الدين المحمدى وجوهره » .
وهى الخاتمة نجد قائمة بالمراجع المختارة بعناية .

١٦ - شبنجلر (Spengler) :

بوجه « شبنجلر » (٤٨) اهتمامه الخاص لمشكلات الحضارة العربية ،
ويصور الاسلام على انه (النزعة التطهيرية Puritanismus) لمجموعة
الاديان السحرية المبكرة كلها ، والذي ظهر فقط فى صورة دين جديد ،
وقد حدث هذا فى محيط الكنيسة الجنوبية واليهودية التلمودية ،
وسر الشجاح الأسطورى الذى حققه الاسلام يكمن فى هذا المعنى العميق
جدا (٤٩) ، وليس فى عتف الاكتساح الحربى .

وعلى الرغم من أن الاسلام قد مارس تسامحا عجيبا لأسباب سياسية ،
فان اليهودية ، والديانة الفارسية (Mazdaismus) والكنيسة المسيحية
الجنوبية والشرقية قد اختفت فيه بسرعة فائقة وبشكل تام . . .

ان الاسلام ليس دينا صحراويًا ، كما ان عقيدة (تسفنجلر)
(Zwingli) (٥٠) ليست دينا لسكان الجبال العالية ، وانه لمن قبيل

(٤٧) جوزيف ليبيل : يستشرق المانى . وقد صدر كتابه عن الاسلام
عام ١٩٢٢ بعنوان : الاسلام فى نشأته وتطوره وتعاليمه . .

(٤٨) هو أسفالد شبنجلر (١٨٨٠ - ١٩٣٦) أحد فلاسفة الحضارة
الألمانية . وقد نال كتابه (غروب الحضارة الغربية) شهرة واسعة .
وقد تناول فيه مشاكل الحضارة العربية فى الفصل الثالث من الجزء
الثانى . وقد صدر الكتاب لأول مرة عام ١٩٢٢ .

(٤٩) يتصد بذلك النزعة التطهيرية المشار إليها .

(٥٠) تسفنجلر (١٤٨٤ - ١٥٣١) زعيم الإصلاح الدينى فى
سويسرا ضد الكنيسة الكاثوليكية . كان معاصرا لمارتن لوتر ولكنه اختلف
معه فى بعض الأمور .

المصادفة (١) ان تكون الحركة التطهيرية - التي كانت الظروف في العالم
السحري قد تكاملت لظهورها - قد انطلقت من عند رجل من مكة ،
وليس من عند رجل من القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح (Monophysit)
او من عند رجل من اليهود « (٥١) .

* * *

١٧ - فرانتس بول (Frants Buhl) :

لقد قدم لنا علم الاسلاميات في بلاد الشمال بحثين قيمين . ففي
سلسلة كتيبات دينية تاريخية يلقى كتاب « فرانتس بول » (٥٢)

(٥١) ينطلق شبنجلر من افتراض مسبق وهو ان الاسلام دين بشري
جاء حصيلة بشرية لتطور دانات السحر . ولهذا لا نسجب من استنتاجاته
المبنية على هذا الافتراض الباطل . فالمصادفة في رأيه هي التي لعبت دورها
في ظهور محمد بهذا الدين الجديد ، وقد كان الأولي أن يظهر به أحد
اتباع المسيحية او اليهودية . ومثل هذه المزاعم معرونة من قديم . وقد قص
علينا القرآن أن مشركي مكة اعترضوا عندما جاءهم الحق من عند الله على يد
محمد وقالوا : « **لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم** » (الزخرف :
٢١) أي هلا أنزل القرآن على رجل عظيم كبير في أعينهم من أهل مكة أو
الطائف . وقد كان اليهود أيضا ينتظرون ظهور النبي ويستنصرون به على
مشركي العرب داعين الله أن يبعث هذا النبي الذي يجدونه مكتوبا عندهم
ليتصرهم على المشركين . فلما بعث الله محمدا ورأوا أنه ليس من بين
صفونهم كفروا به . يقول القرآن في ذلك : « **ولما جاءهم كتاب من عند الله
مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم
ما عرفوا كفروا به ، فلعمرة الله على الكافرين** » (البقرة : ٨٩) .

ان القضية ليست قضية مصادفة كما يتخيل شبنجلر ، وليست قضية
تهن كما تهني المشركون واليهود ، وانما هي قضية اصطفاء الهسي
« **الله يصطفى من الآلئكة رسالا ومن الناس** » (الحج : ٥٧) .
وهو اصطفاء لا يخضع لتأبيس البشر ، ولكن مدماته كانت ظاهرة كالشمس
لكل من حرف محمدا قبل البعثة او اتصل به من قريب أو بعيد .

أما أرجاع تصامح الاسلام الذي شهد به الاعداء الى مجرد أسباب
سياسية . فهذا من قبيل تجريد الاسلام من كل القيم والبادئ الأصلية مع
أنه الدين الذي جاء لترسيخ كل القيم والبادئ السماوية - وقد أعلن ذلك
محمد صلى الله عليه وسلم في قوله « **انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق** » .
(٥٢) فرانتس بول مستشرق ألماني . وقد صدر كتابه عن الدين

الاسلامي في كوبنهاجن عام ١٩١٤ .

« المذهب المحمدي بوصفه ديناً عالمياً » - في عرض مركز - نظرة على تاريخ الدين الاسلامي وكيف ينعكس هذا الدين في البحوث الحديثة .

وبعد ان يقدم وصفا للدين القرآني ، يبين كيف تطور هذا الدين الى نسق عظيم للاجماع في العالم الهلينستي ، على صعيد العقيدة والعبادة والقانون ، ويصف من جوانب مختلفة اهمية التصوف ، واثار تقديس الاولياء على الحياة الدينية اليومية ، مع مراعاة خاصة لاهمية التصوف بالنسبة لتقدير النبي ، الأمر الذي يمكن تصويره بأبيات من قصيدة البردة المشهورة في مدح « محمد » .

١٨ - أويسنروب (Oestrup) :

أما البحث الثاني . . .

فهو كتاب « أويسنروب » (٥٣) الذي ألفه لجمهور عريض بعنوان « الاسلام . . الدين المحمدي وتطوره في عرض اجمالي » ، ويتضمن هذا الكتاب بعض الأمور التي لم يكن لها مكان في كتاب « بول » ، وذلك مثل الحديث عن الفرق التي يندرج تحتها الحديث عن الشيعة ، ووصف أكثر عمومية للظروف المتعلقة بأمور العبادة في الشرق مع مراعاة للظروف السياسية في البلاد المختلفة للشرق المعاصر . ويشير أويسنروب أيضاً الى حركة الوحدة الاسلامية (Panislamism) ويهتم بصفة خاصة بالفرق بين الاسلام الآسيوي والاسلام العربي الأفريقي . ويلتزم في عرضه للدين القديم بالصورة المتوارثة بشكل أكثر مما يصنعه البحث الحديث في هذا الصدد .

(٥٣) أويسنروب (١٨٦٧ - ١٩٣٨) مستشرق دانماركي - حصل على الدكتوراه برسالته عن ألف ليلة وليلة ، وقد أرجعها في هذه الرسالة الى جذورها الأصلية ، ولم ينازعه في ذلك أحد حتى اليوم ، قام برحلات كثيرة الى الشرق الأوسط .

ومن مؤلفاته : موجز تاريخ الدين الاسلامي ، واللغة العربية ، وكان ما كان ؟ وقانون وأنواع المجلات الشرقية ، وبيان العملة العربية والتركية .

وله بحوث أخرى منها : الاسلام في القرن التاسع عشر ، والمغاربة والمغرب ، ومصر الحديثة ، وتركيا الفتاة .

١٤ - كاستريز (H. de Castries) :

وهناك مؤلفات تعد أقل أصالة من البحوث المشار إليها حتى الآن ،
لاثنين من الفرنسيين المشتغلين بالدراسات الاسلامية وهما : (دى كاستريز
وكارا دى فو) .

اما كتاب اولهما : وهو « الاسلام » (٥٤) فانه لا يشتمل الا على
انطباعات عن الاسلام ، ولكنه لا يتضمن صورة محايدة عن الاسلام ، فهو
يرى فى الاسلام حلقة وسطى وضرورية بين عبادة الأوثان والمسيحية ، وهو
يأسف ، لأن الغالبية من المستشرقين - باستثناء عدد قليل من بينهم ، ممن
ليس له تأثير فى السياسة - يميلون الى القول بأن الدين الحمدي يعد
صورة من صور الوثنية .

ويبدو له أن الاسلام يختلف عن المسيحية فى ثلاث نقاط وهى : تعدد
الزوجات ، وتصور الجنة ، والتواكلية (٥٥) .

وفى نهاية الكتاب نجد بعض الملاحق الهامة ، وعلى وجه الخصوص
نجد فصلا شاملا عن « افكار العصر الوسيط عن « محمد » وعن الدين
الاسلامى » .

(Les idées au moyen âge sur Mahomet et la religion musulmane)

ولكن المؤلف كان يمكنه هنا أيضا أن يستفيد من السابقين له فى هذا
المجال ، ونخص بالذكر (دانكونا D'Ancona) (ص١٥٦، ١٥٤ وما بعدها) .

(٥٤) صدر الكتاب فى باريس عام ١٨٩٦ تحت عنوان :
(L'Islam : Impressions et études)

(٥٥) التواكلية (Fatalism) ليست من الاسلام فى شيء .
فالاسلام يعرف التوكل ولكنه يرفض التسواكل . فالتوكل مقرون بالأخذ
بالأسباب . أما التواكل فهو توكل كاذب لأنه لا يأخذ بالأسباب . وقد خلط
كثير من المستشرقين بين المفهوم الحقيقى للتوكل فى الاسلام وما رأوه شائما
فى أوساط المسلمين فى عصور التأخر والانحطاط من تواكلية بغيضة
وسلبية جعلت المسلمين فى مؤخرة ركب التقدم والحضارة . وقد نسب
المستشرقون هذه التواكلية للاسلام والاسلام منها براء ..

ان راي كاستريز في « محمد » ايجابي اكثر مما ينبغي ، كما انه يرى في القرآن أيضا من البداية حتى النهاية عملا فريدا ورائعا ، وباختصار : انها انطباعات وليست دراسة علمية (٥٦) .

وقد وجهت الى المؤلف انتقادات مفصلة ، من جانب كل من (رينيه باسيه Basset) و (كارادي فو Carra de Vaux) وهما يعترفان للمؤلف بالصدق الذاتي ، والحماس للاسلام ، وان كانت لهما أيضا مآخذ كثيرة على الكتاب من ناحية التعمق العلمي .

* * *

٢٠ - كارا دي فو (Carra de Vaux)

يقول « رينيه باسيه » : انه لا يوجد في الفرنسية كتاب القسه مستشرق ، وخصه للجمهور العريض مثل كتاب «كارا دي فو» (٥٧) (المذهب المحمدي Le Mahométisme) الذي يقدم - في موضوعه - معرفة واضحة وعرضا سلسا .

ويبدأ « كارا دي فو » كتابه بتقديم صورة حية لبلاد المغرب قبل الاسلام ، حتى الوقت الذي بدأ فيه محمد دعوته ، ثم يتحدث عن الظهور الأول لمحمد واصطفائه .

(٥٦) اذا كان كاستريز - وهو غير مسلم - لم يجد في سيرة محمد الا كل ما هو ايجابي ومشرق ، ولم يجد في القرآن الا الروعة والتفرد ، فلماذا ينكر عليه بفاتهوللر ذلك باسم البحث العلمي ؟ ألا تكون دراسة الاسلام دراسة علمية الا اذا أنت بمطالب ؟ ان هذا حقا موقف غريب لا يبرر له في سوق العلم .

(٥٧) هو البارون كارا دي فو المولود عام ١٨٦٧ . درس العربية وتعلم بتدريسها في المعهد الكاثوليكي في باريس . وقد كان أكثر اهتمامه بوجهها الى مجالات الرياضيات والفلسفة والتاريخ ، وله فيها دراسات عديدة . وتسام أيضا بنشر وترجمة نصوص عربية مختلفة .

ومن مؤلفاته : الاسلام والمبترية السائية والعبثية الآرية (١٨٩٨) ، والغزالي (ترجمه عادل زعير الى العربية) ، وابن سينا ، ومثكرو الاسلام (في خمسة اجزاء) ونظرية الاسلام (١٩٠٩) .

ويتبع المؤلف ذلك بالحديث عن تاريخ « محمد » حتى وفاته ، وقد شرح المؤلف بطريقة واضحة الموضوعات التالية - حسب ترتيب ذكرها :

عرض أحداث العصور الأولى بعد موت محمد - الصراعات حول خلافته - التحرير النهائي للقرآن - التثبيت من الماثورات النبوية - رد فعل الروح والعقل والحرية ضد استبداد التعاليم الاعتقادية ، وبوجه خاص ضد استبداد التواكلية - القضاء على نظرية حرية الإرادة - انتصار نظريات الغزالي ، ذلك الانتصار الذي كان وخيم العواقب بالنسبة لمستقبل الاسلام (٥٨) . والمؤلف يقارن بين الغزالي وبين توماس الاكوينى (مولد الصوفية العربية عن الروح الاصلية للاسلام - وتكون الطرق الدينية كنتيجة لها .

ويتناول « كارا دى فو » فى القسم الثانى - كما فعل (ليتسرى Littré) من قبله - رد فعل العقل الأرى ضد النزعة السامية للاسلام الأصلى ، وبصفة رئيسية فى الاتجاهات الشيعية والصوفية ، ولكنه هنا يبالغ فى تقدير القيمة الحضارية لصورة « الظاهرة الشيعية » للاسلام ، ويعرض هذه الصورة بطريقة متحيزة ، بوصفها صراع الفكر الحر الجرىء ضد المذهب العقدى الأصلى ، الموصوف بضيق الأفق وعدم الحركية (la lutte D'une pensée libre et large contre une orthodoxie étroite et inflexible)

والأحرى هو ما أثبتته « جوندتسيهر » من ان ما أتى به الفرس لم يكن أبدا سعة أفق دينية ولا تسامحا ، ولا تزال هذه الآراء حول اهمية التناقضات العرقية السامية الآرية بالنسبة لتطور الاسلام - لا تزال فى حاجة الى مراجعة وتدقيق .

أما الكتاب الثانى لكارا دى فو وهو (نظرية الاسلام ' La Doctrine de l'Islam') فقد اهتم فيه بتقديم عرض شعبي للدين الاسلامى الأصلى ، بطريقة فلسفية مع مقارنته بأديان أخرى ، وهكذا يتناول فى عشر فصول الموضوعات التالية :

(٥٨) لقد أسىء فهم الغزالي من جانب أكثر الباحثين ، وحملوه مسئولية انهيار الحضارة الإسلامية . وهذا تبسيط غير مقبول لمشكلة معقدة لها أسباب عديدة . ولنا فى الغزالي رؤية مختلفة عن هذا الفهم السائد بسطناها فى كتابنا : « المنهج الفلسفى بين الغزالي وديكارت » .

الصلاة والحياة الآخرة والتواكلية والزكاة ، والأساطير حول عيسى
ومريم ، والحج الى مكة ، والجهاد ، ومكانة المرأة ، وتربية الأطفال ،
والتصوف ، ومستقبل الاسلام .

ثم يتبع ذلك بفصل ختامى يتناول فيه جزئيات شتى : قائمة مراجع
قاصرة وملاحظات عن المآذن والأجراس ، والموسيقى ، والتصوير ،
والضرائب ، والتقويم الفلكى ، والأعياد والصوم ورجال الدين ، وما الى
ذلك من موضوعات ، وقد تناول ذلك كله فى اسهاب كثير وسطحية !

* * *

دراسات تبشيرية عن الاسلام

يعتبر تصوير المبشرين للدين الاسلامى ذا نوعية خاصة ، وفيما يلى
نورد بعض النماذج من دراسات المبشرين للاسلام :

١ - ارنولد (J. M. Arnold) :

لقد عمل « ج . م . ارنولد » مبشرا فى اوساط المحمديين
فى يافا ، ، وفى جنسوب افريقيا ، وله كتاب كان يحمل ابتداء
العنوان التالى : « اسماعيل او الكتاب المقدس والقرآن » وقد طبع هذا
الكتاب فى انجلترا أربع طبعات ، وصادف ايضا نجاحا عمليا ، ادى الى
تكوين « جمعية تبشير المسلمين » لتحويل المحمديين الى المسيحية .
وقد ترجم الكتاب الى اللغة الالمانية (٥٩) بناء على رغبة هيئة تحرير
« مجلة التبشير العام » (الالمانية) .

وينقسم الكتاب الى اثنى عشر فصلا وهى :

- ١ - مهبط الاسلام .
- ٢ - عصر محمد وصفاته .
- ٣ - تاريخ القرآن وعقائده .
- ٤ ، ٥ - ما اخذه محمد من اليهودية والمسيحية (٦٠) .
- ٦ - انتشار الاسلام ونجاحه .
- ٧ - خصائص الاسلام وتأثيره .
- ٨ ، ٩ - وحدة العهدين القديم والجديد .
- ١٠ - الكتاب المقدس والقرآن .
- ١١ - مقارنات عامة .
- ١٢ - المساعى المضادة من جانب الكنيسة .



(٥٩) ظهرت الترجمة الالمانية عام ١٨٧٨ تحت عنوان : الاسلام :
تاريخه وخصائصه وعلاقته بالمسيحية .

(٦٠) سبق أن نبهنا فى هوامش أخرى على أن مثل هذه المزاعم مبنية
على افتراض باطل وهو أن الاسلام دين بشرى .

٢ - ادوارد سل (Sell) :

اما « ادوارد سل » المبشر بجمعية التبشير الكنسى الانجليزى ، فانه يقدم الصورة التى يعيشتها الاسلام اليوم لدى اتباعه ، وذلك فى اشكاله العقديّة وأشكاله العملية (٦١) . ويتناول فى ستة فصول رئيسية الموضوعات التالية :

- ١ - أسس الاسلام .
 - ٢ - تفسير القرآن والأحاديث .
 - ٣ - الفرق فى الاسلام .
 - ٤ - عقيدة الاسلام .
 - ٥ - التكاليف العملية فى الاسلام .
 - ٦ - اعياد الاسلام ، وصوم الاسلام .
- ويسهب « سل » فى تناوله للحركات الروحية الجديدة فى الاسلام مثل الحركة « الوهابية » .

٣ - زويمر (Zwemer) :

هناك دراسات ممتازة عن الدين المحمدي ، ومشكلات العالم المحمدي ، من وجهة نظر التبشير المسيحي . نجدها فى كتاب « الاسلام » للمبشر الشهير « س . م . زويمر » (٦٢) الذى كان يعمل مبشرا فى اوساط المحمديين ، ويتضمن الكتاب الموضوعات التالية :

- ١ - أصل الاسلام ومصادره .
- ٢ - محمد النبى .

(٦١) صدر كتابه بعنوان عقيدة الاسلام (Faith of Islam) فى لندن عام ١٨٨٠ وظهرت طبعته الثانية عام ١٨٩٦ والثالثة عام ١٩٠٧ . (٦٢) صوبل زويمر (١٨٦٧ - ١٩٥٢) : كان رئيس المبشرين فى الشرق الأوسط ، وله مؤلفات فى صلة الاسلام بالمسيحية يتضح فيها اتجاهه المبني على التعصب والتضليل . ومن هذه المؤلفات : الاسلام تحد لعقيدة ؟ (نيويورك ١٩٠٧ - ترجم الى الألمانية عام ١٩٠٩) ، ويسوع فى احبساء الفزالي . وداخل عالم الاسلام . وله دراسات كثيرة فى مجلة الاسلام التى كان يرأس تحريرها منها : الاسلام فى العالم ، وترجمات القرآن ، وأبوة النبى ، والحديث المحمدي ، وتنوع الاسلام فى الهند .

٣ - انتشار الاسلام .

٤-٦ - العقيدة والعبادات والأخلاق فى الاسلام .

٧ - التفرق والتمزق والاصلاح .

٨ - الوضع الراهن للعالم المحمدي .

٩ - التبشير فى اوساط المحمديين .

١٠ - مناهج ونتائج .

١١ - المشكلة والخطر .

١٢ - استفزاز العقيدة .

وبجانب زويمر يعد كتاب (جاردنر Gairdner) (لوم الاسلام
The Reproach of Islam) افضل مدخل الى الاسلام ومشكلة التبشير .

اتجاهات اسلامية هندية حديثة

١ - سيد أمير على :

هناك اتجاه عقلى وعصرى فى اوساط المذهب المسمى فى الهند يستحق اهتماما خاصا ، ويقود هذا الاتجاه سيد « أمير على » (٦٣) وهو من كبار الموظفين الهنود ، ومن قضاة المحكمة العليا فى البنغال ، وقد اختلف من علومنا الغربية ، ويعد من ابرز أتباع الاسلام وأكثرهم تنورا .

وقد اهتم بالدفاع عن الاسلام ضد الأحكام المسبقة للمسيحيين ، واهتم بعرض الروح الفلسفية والأخلاقية للإسلام ، على أمل أن يعمل المسلمون فى الهند على إقامة بعثهم الروحى والأخلاقى .

ويعقد المؤلف مقارنة بين الاسلام والمسيحية ، فيما يتعلق بالتقدم الأخلاقى ، والاجتماعى ، والسياسى ، ويضعها بجوار بعضهما ، من حيث العقيدة بوصفهما مصدرا للأخلاق السامية ، وبوصفهما هاديين فى الحياة ويتناول تأثيرهما الانسانى والتمدنى .

ويعارض على وجه الخصوص القول بأن الاسلام دين غير متسامح ، وأنه يساعد على العبودية ، وعلى تعدد الزوجات ، وأنه يضع المرأة فى وضع أدنى ، وأنه يقول بجنة حسية خالصة ، وأنه دين التواكلية ، وأنه يؤدى الى التردد السياسى والأخلاقى .

ولكن المؤلف يعترف بأن من الصعب عليه أن يعثر على توافق تصالحي ، بين التعاليم السامية والأخلاقيات للإسلام الاصلى ، وبين الشكلية المتصجرة التى انتهى اليها اليوم .

(٦٣) توفى عام ١٩٢٨ . ومن مؤلفاته بالانجليزية : حياة محمد وتعاليمه أو روح الاسلام (لندن ١٨٧٣) — وقد ترجم الى العربية تحت عنوان « روح الاسلام » وقام بترجمته أمين محمود الشريف وراجعه محمد بدران ونشر ضمن سلسلة الألف كتاب بالقااهرة ١٩٦١ . وأخلاق الاسلام (كلكتا ١٨٩٤) ، والاسلام (لندن ١٩٠٦) ، والاسلام وفتاده .

٢ - خودا بخش (Khuda Baksh) :

ويحذو « خودا بخش » (٦٤) حذو سيد امير على ، ولكن تصوراته تعنى تقدما من الدفاع العقلى الى المعرفة الدينية التاريخية ، والمؤلف مسلم ذو عقلية تقدمية منحررة ، وقد عاش فى انجلترا تسع سنوات ، وتعلم اللغة الالمانية أيضا لدرجة مكنته من دراسة كتاب جولدتسيهر « دراسات محمدية » ودراسة مؤلفات المانية أخرى .

وتتناول بحوثه على سبيل المثال الموضوعات التالية : « روح الاسلام » ، « رأى الاسلام فى السيادة أو الحكم » ، « حركة الشعوبية فى الاسلام » . اما الفصول التى تتناول « الأدب الهندوستانى » و « أفكار عن الظروف الراهنة » فهى بصفة خاصة فصول قيمة .

والمؤلف - الذى تعمق فى عالم الفكر الغربى ومع ذلك يتمسك بقرائه الذى ولد عليه - يعد مراقبا شجاعا للوضع الراهن ، ولسيادة الانجليز فى الهند :

« ان الشرق بالنسبة لى شرق والغرب غرب ، والهند لم يعد يمكن ان تكون انجلترا ، كما لا يمكن ان تصير انجلترا الهند ، وقد قدر لنا ان نتعلم على أوروبا ، ولكن ذلك لن يكون بالتضحية بذاتيتنا الشرقية » .



٣ - ليوناردز (Major Leonards) :

وهناك دفاع أوروبى عن الاسلام صدر عن المقدم الانجليزى « ليوناردز » (٦٥) ، غير انه دفاع ذاتى ، وغير تاريخى بالمرّة ، وتمثل

(٦٤) انظر كتاب خودا بخش بالانجليزية : مقالات هندية واسلامية (Essays Indian and Islamic) لندن ١٩١٢ .

(٦٥) انظر فى ذلك كتابه بعنوان (الاسلام) :

(Arthur Glyn Leonards : Islam' London 1909) .

قدوته العقلية فى كل من « كارليل » (٦٦) وسيد « امير على » ،
وهكذا يمتزج لديه نموذج اوروبى غير تاريخى اطلاقا لعبقريّة دينية
اصيلة ، بافكار العلماء المحدثين الهنود او المصريين ، الذين تنقفوا ثقافة
اوروبية ، والذين يحاولون - عن طريق استخدام نتائج البحث الغربى -
تحديث الاسلام والدفاع عنه .

وهم يضعون الاسلام فى مقابل المسيحية بوصفه الدين الوحيد
المتمشى مع الطبيعة والعقل .

(٦٦) لعنه يقصد توماس كارليل (١٧٩٥ - ١٨٨١) صاحب كتاب
(الأبطال) الذى عقد فيه فصلا رائعا عن النبى صلى الله عليه وسلم . وقد
نقله الى العربية الأستاذ على أدهم .

الاسلام فى كتب تاريخ الاديان

١ - هوتسما (M. Th . Houtsma) :

اما الفصول الخاصة بوصف الاسلام المتضمنة فى الكتب التعليمية لتاريخ الاديان العام ، فانها تستحق تقديرا خاصا ، ويأتى هنا فى المقام الاول ذلك العرض الممتاز للاسلام ، القائم على معرفة تامة بالمصادر من جانب « م . ث . هوتسما » (٦٧) فى الكتاب الذى اخرجه (شانتبى دى لاسوساى Chantepie de La Saussaye) وهو « كتاب تعليمى فى تاريخ الاديان » .

ويعد ما كتبه « هوتسما » من افضل ما كتب عن هذا الموضوع الى حين ظهور كتاب جولدتسيهر « محاضرات عن الاسلام » .

ويصور « هوتسما » فى البداية الاوضاع الدينية فى بلاد العرب عند ظهور « محمد » ، ثم يصور حياة « محمد » فى فصل مطول ، وفى الفصل الثالث : يتناول أسس تطور الاسلام ، القرآن والحديث ، والفقه .

اما الفصول التالية فتتناول : التشريع الدينى ، النزاع العقائدى ، نسق العقيدة السنى ، التصوف ، وقد خصص « هوتسما » فصلا خاصا للشيعنة ، فى حين يلقى فى الفصل الختامى نظرة على الاوضاع الراهنة . ومما له قيمة على وجه الخصوص تلك القوائم بالمراجع الملحقه بكل فصل .

(٦٧) هوتسما (١٨٥١ - ١٩٤٣) مستشرق هولندى . اضطلع بمهمة الاشراف على دائرة المعارف الاسلامية (١٩١٣ - ١٩٢٤) ، وكان يتمتع بمشوية عدد من الجامعات والجمعيات العلمية منها المجمع العلمى العربى بدمشق . وقد نشر عددا من المخطوطات العربية وترجم بعض النصوص العربية . ومن الكتب التى نشرها : تاريخ اليعقوبى (فى جزئين) ، كما ساعد فى نشر الطبرى (فى خمسة عشر جزءا) . وله دراسات فى الادب العربى والتاريخ الاسلامى . ومن بين مؤلفاته : العقيدة الاسلامية والاشعرى .

٢ - كونراد فون أوريللى (Conrad Von Orelli) :

أما كتاب « كونراد فون أوريللى » « تاريخ الأديان العام » (٦٨) فيتوحد فيه علم شامل مع تركيز قوى على ما هو جوهرى مع حكم معتدل ، وهو لا يخشى فى أى موضع من كتابه من أن يقيس التصورات التاريخية بمقياسه اللاهوتى الوضعى ، ولكن المرء يرى فى كل موضع ظهور سعيه نحو تقدير عادل .

وهو يتناول الاسلام فى خمسة فصول :

- ١ - دين العرب قبل الاسلام .
- ٢ - محمد : حياته وصفاته الشخصية .
- ٣ - القرآن .
- ٤ - التعاليم والعبادة فى الاسلام .
- ٥ - الانتشار والانقسامات فى الاسلام .

* * *

٣ - تيلى (Tiele) :

وكتلك يقدم « تيلى » فى كتابه « موجز تاريخ الأديان » (٦٩) عرضاً ممتازاً لدين العرب فى خمسة عشر فصلاً :

- ١ - دين العرب القديم .
- ٢ - دين العرب عند ظهور محمد .
- ٣ - اليهودية والمسيحية والحنفاء .
- ٤ - اصطفاء محمد .
- ٥ - الاتباع الاول .
- ٦ - الدين العالمى العربى الجديد .
- ٧ - انتشار الاسلام . وفاة محمد .
- ٨ - محمد كمؤسس للدين .
- ٩ - قواعد الاسلام الخمسة .

(٦٨) ظهرت الطبعة الاولى منه عام ١٩١١ فى بون بألمانيا والطبعة الثالثة عام ١٩٢٢ .

(٦٩) ظهرت الطبعة الرابعة منه بتعديلات شاملة عام ١٩١٢ فى برلين وقام باخراجها ناتان سودريلوم .

- ١٠ - الله والنبي .
- ١١ - القرآن .
- ١٢ - الحديث . معيار القانون الدينى .
- ١٣ - الشيعة .
- ١٤ - التصوف .
- ١٥ - خصائص الاسلام .

٤ - فورم (Wurm) :

- يقدم « باول فورم » فى كتابه « المرجع فى تاريخ الأديان » (٧٠) .
 عرضا شعبيا للاسلام قصد به أن يكون لدائرة من القراء أكثر اتساعا ،
 وبصفة خاصة للمدرسين والمبشرين وأصدقاء التبشير ، مستخدما فى
 عرضه مراجع التبشير فى حماس ، وينقسم الكتاب الى أربعة فصول :
- ١ - مكانة الاسلام فى تاريخ الأديان .
 - ٢ - حياة محمد .
 - ٣ - القرآن ، التعاليم والعبادة والحياة الدينية فى الاسلام .
 - ٤ - التطور الدينى فى الاسلام بعد وفاة محمد .

٥ - جيريمياس (Jeremias) :

يخصص « الفريد جيريمياس » لعصر ما قبل الاسلام ولدين العرب
 ما يقرب من نصف ما كتبه عن الاسلام فى كتابه «تاريخ الأديان العام» (٧١)
 ويتناول بعد ذلك فى فصل مطول حياة محمد وبيدايات الاسلام . أما كل
 ما عدا ذلك فقد تناوله تناولا قاصرا جدا (فكرة المخلص فى الاسلام
 الأصلى ، الشيعة : نظريتهم فى الامام ونظريتهم فى الخلاص والمصالحة ،
 التصوف ، الموت والحياة الآخرة فى الاسلام الأصلى اليوم ، انتشار
 الاسلام) . ويتناول المؤلف التصوف فى تسعة عشر مطرا .

(٧٠) ظهرت الطبعة الأولى من الكتاب فى شتوتجارت بألمانيا عام

١٩٠٤ .

(٧١) ظهر الكتاب فى ميونيخ بألمانيا عام ١٩١٨ .

٦ - فوللرز (Vollers) :

وكذلك يقدم « كارل فوللرز » نبذة قصيرة جدا عن الاسلام في كتابه « آديان العالم » (٧٢) اما فضله الرئيسي فانه يتمثل في انه كان اول من عقد في دقة مقارنة بين الادب الانجيلي والحديث النبوي الاسلامي .

٧ - بفليديرر (Pfliegerer) :

وقد تحدث « اوتو بفليديرر » (٧٣) ايضا باختصار عن الاسلام وصلته باليهودية والمسيحية ، ودين ما قبل محمد ، وحياة محمد وتعاليمه ، والسنة والشيعية ، والمعتزلة والأشعرية والتصوف ، وفي الخاتمة قدم بعض اقتباسات من الشعر الصوفي لجلال الدين الرومي .

٨ - سودربلوم (Soederblom) :

اما « ناتان سودربلوم » الذي كان له الفضل في اعادة النظر في كتاب تيلي « موجز تاريخ الأديان » واكماله ، فانه لم يخصص للاسلام في كتابه « مدخل الى تاريخ الأديان » (٧٤) الا ثلاثة فصول فقط :

وفي الفصل الأول منها : يلقي نظرة سريعة على حياة « محمد » وتعاليمه ، ويقدم بعض الملاحظات عن القرآن ، أما الفصل الثاني : فانه يصور فيه التقوى الاسلامية (قواعد الاسلام الخمس والتصوف) ، وفي الفصل الثالث : يتحدث عن انتشار الاسلام .

والكتاب لا يقدم للأسف أية قوائم ، أو بيانات عن المراجع . وقد تحدث المؤلف أيضا عن الاسلام باقتضاب شديد ، في أربع صفحات في كتاب سابق له بعنوان « أديان الأرض » (٧٥) .

(٧٢) ظهر الكتاب في بينا بألمانيا عام ١٩٠٧ .

(٧٣) في كتابه (الدين والأديان) برلين ١٩٠٦ .

(٧٤) ظهر الكتاب في ليزج عام ١٩٢٠ (في سلسلة العلم والثقافة

المجلد رقم ١٢١) .

(٧٥) ظهر الكتاب في توبنجن بألمانيا عام ١٩٠٥ .

(قارن ك - بث Beth) : ناتان سودر بلوم كمؤرخ للأديان فى مجلد :
العالم المسيحى ١٩٢٠ عمود ٢١٤ - ٢١٨) .

٩ - كليمن (Clemen) :

وفى مقابل ذلك يقدم « كارل كليمن » (٧٦) عرضا للاسلام فى
وضعه الراهن أكثر تفصيلا ، فبعد مقدمة قصيرة عن « تاريخ الاسلام
وانتشاره » يتناول الموضوع فى ستة فصول :

١ - الشريعة الاسلامية : (مدارس الفقه ، احكام العبادات ،
الاحكام القانونية والسياسية) .

٢ - علم العقيدة الاسلامى : (النظريات فى موضوعات : الله ،
والملائكة ، والأنبياء ، وامور الآخرة والقضاء والقدر ، على أساس من الكتب
التعليمية الدينية المعروفة) .

٣ - التصوف الاسلامى : (علم العقيدة والتصوف ، الغزالى ،
الدرراويش) .

٤ - الاسلام الشعبى : (تقديس الأولياء ، الكهانة ، السحر) .

٥ - الفرق الاسلامية : (الخوارج ، والشيعة وانقساماتهما ، البابية ،
والبهائية ، الأحمدية ، الوهابية) .

٦ - تحديث الاسلام : (الجهود العقلانية فى الهند ، وسوريا ،
وتركيا) .

وتقدم الخاتمة قائمة تفصيلية بالمراجع .

(راجع للمؤلف أيضا فيما يتعلق بتصور المحمدين عن الحياة بعد
الموت كتاب « الحياة بعد الموت فى عقائد الانسانية ») (٧٧) .

١٠ - بوسيه (Bousset) :

لقد جمع « فلهم بوسيه » (٧٨) الاسلام واليهودية والزرادشتية تحت
عنوان « ديانات التشريع » وحاول أن يبين الصور المميزة والخصائص
التي تجمع الديانات على هذه الدرجة (أى درجة ديانات التشريع) .

(٧٦) فى كتابه : « اديان الحضارة غير المسيحية فى وضعها الراهن »
ليبتزج وبرلين عام ١٩٢١ .

(٧٧) ظهر الكتاب فى ليبتزج وبرلين عام ١٩٢٠ .

(٧٨) راجع كتابه : « ماهية الدين » توينجن (ألمانيا) ١٩٢٠ .

١١ - أبرهاردت (Eberhardt) :

يتناول « باول أبرهاردت » (٧٩) الاسلام تناولا مفجما بالحب بصفة خاصة ، فهو فى حديثه عن « محمد » يتحدث عن « العظمة والروعة اللتين لا يمكن انكارهما » ويشير الى ان محمدا لم يتفكر لانسانيته قط ، حتى وهو فى قمة انتصارته ، ولم يتعاضم ابدا ويعتبر نفسه نوعا خاصا أكثر سموا ، وتظهر للمؤلف ايضا اخلاق الاسلام « اعظم ما تكون فى طهرها وعمقها » .

وفى النهاية يخصص المؤلف للتصوف الاسلامى - والتصوف الفارسى على وجه الخصوص - بعض التفصيلات الحماسية .



١٢ - كابشتاين (Kapstein) :

يقدم « تيودور كابشتاين » (٨٠) الى حد ما عرضا سطحيا للاسلام وفى البداية يضع أمامنا صورتين : الدراويش البكائين فى القاهرة ، وقبة الصخرة فى القدس مع الحجر المقدس ، وفى الخاتمة يصور مراسم دفن على الطريقة المحمدية ، ويعرض الأقوال عن حكمة صحراء العرب ، وفى اثناء ذلك يتحدث باختصار عن حياة « محمد » وتعاليمه ، وعن الفرق الاسلامية والتكاليف الدينية .



١٣ - فيبيج (Flebig) :

يجمع « باول فيبيج » (٨١) فى صورة (كراسة املاء Diktatheft) ما هو ضرورى لمعرفة الاسلام فى فصول ثلاثة :

- ١ - الدين العربى قبل محمد .
 - ٢ - محمد .
 - ٣ - من محمد الى العصر الحاضر .
- ويذكر فى الخاتمة أهم المراجع عن الاسلام .



(٧٩) انظر كتابه (علم الأديان) :

(Religionskunde . Gotha 1920)

- (٨٠) راجع كتابه: أديان البشرية - برلين ١٩٢٠ .
- (٨١) يرجع الى كتابه : تاريخ الدين وفلسفته لطلاب وطالبات المعاهد العليا . توينجن (ألمانيا) ١٩٢١ .

١٤ - بيث (Beth) :

يقدم « كارل بيث » اشارات قيمة لتفهم لاسلام ومقارنته بالديانات الأخرى فى كتابه « مدخل الى تاريخ الأديان المقارن » (٨٢) .

١٥ - فتسه (J . Witte) :

اما « فتسه » فانه يأتى بمقدمة (٨٣) تتضمن « الدين والأديان » ، « الشئء القيم فى الأديان غير المسيحية » ، « صراع الأديان والقضية الرئيسية للدين » ، وبعد ذلك يجيب عن السؤال التالى : ما موقف الأديان العالمية - غير المسيحية - من الأعداء الثلاثة الكبار للانسانية وهى : الشر ، والألم ، والموت ؟ .

ثم يصور المجالات الرئيسية الثلاثة التى تتضمن العنصر الايجابى ، الذى تريد الديانات غير المسيحية ان تقدمه للانسان ، وهذه المجالات هى : مسألة الألوهية ، والهدف ، والطريق الى الهدف .

وفى القسم الثانى من كتابه يتحدث المؤلف عن العمل التبشيرى الذى تقوم به الأديان العالمية غير المسيحية والذى يقوم به الاسلام بصفة خاصة .

١٦ - شوميروس (H.W. Schomerus) :

يرسم « شوميروس » (٨٤) فى خطوط عريضة مهمة المسيحية بالنسبة للشعوب غير المسيحية ، وضرورة تهيئة العمل التبشيرى للحياة الروحية للشعوب غير المسيحية ، وفى النصف الثانى من كتابه يستنتج من ذلك ضرورة حوار المسيحية مع الحياة الروحية للشعوب غير المسيحية ، ويذكر متطلبات هذا الحوار .

(٨٢) صدر الكتاب فى كل من لبيترج وبرلين عام ١٩٢٠ .

(٨٣) انظر كتابه : صراع الأديان العالمية حول النفس البشرية .

برلين ١٩٢١ .

(٨٤) فى كتابه : الحياة الروحية للشعوب غير المسيحية والدين

المسيحى . لبيترج ١٩١٤ .

١٧ - مور (C. F. Moore) :

من بين الكتب الانجليزية فى التاريخ العام للاديان - والتي لم يتيسر لى الاطلاع على البعض منها - نبرز هنا كتاب اديان العالم الكبرى ، (Great Religions of the World) وكتاب تاريخ الاديان (٨٥) من تأليف (س . ف . مور) .

١٨ - رايناخ (Reinach) :

اما تصوير « سالون رايناخ » (٨٦) للاسلام فى الثنتى عشرة صفحة من القطع الصغير ، فانه حقا تصوير غير كاف ، كما ان قوائم المراجع الملحقة قاصرة الى حد بعيد .

١٩ - هوداس (O. Houdas) :

وكذلك نجد ان كتاب « هوداس » (المذهب الاسلامى L'Islamisme) (٨٧) قاصر ايضا ، وبدون النقد الضرورى ، وبدون اطلاق على البحوث اللسانية فى العقود الاخيرة ، وقد اُسء تماما فهم دور النبى .

٢٠ - بريكو (J. Bricout) ، اوبى (Huby) :

وقد تناول ايضا كل من « بريكو » و « جوزيف اوبى » الاسلام تناولاً سيئاً فى كتاب كل منهما عن تاريخ الاديان العام (٨٨) .

(٨٥) صدر فى نيويورك عام ١٩١٢ وما بعدها .

(٨٦) فى كتابه بالفرنسية بعنوان : اورفيوس . التاريخ العام للدين

— باريس ١٩٠٩ .

(٨٧) صدر فى باريس عام ١٩٠٤

(٨٨) صدر كتاب بريكو فى باريس عام ١٩١١ بعنوان : حول تاريخ

الاديان . و صدر كتاب اوبى ايضا فى باريس عام ١٩١٢ بعنوان : المسيح

— الموجز فى تاريخ الاديان .

٢١- بزى (J. Pizzi) :

وأول عرض للاسلام أكثر تفصيلا بعض الشيء فى اللغة الايطالية ،
قام به «بزى» فى كتابه (المذهب الاسلامى L'Islamismo) (١٩) .
ويقدم هذا الكتاب بصفة اساسية نظرة عامة عن الدين الاسلامى ،
مستندا فى ذلك الى مراجع لشخصيات معروفة لها وزنها . ولكنه بجانب
ذلك ياخذ فى الاعتبار ايضا حضارة الاسلام وسياسته ويفتقد المرء فى
هذا الكتاب تاريخ تطور الاسلام .

(١٩) صدر هذا الكتاب فى ميلانو عام ١٩٠٣ .

نصوص اسلامية مترجمة

(ا) وقد اتاحت لنا بعض الكتب النصية لتاريخ الأديان ، والتي ظهرت في ترجمات جيدة - فرصة التعرف على مصادر الدين الاسلامي ، فقد ظهر في عام ١٩٠٨ - في وقت واحد تقريبا - كتابان من الكتسب النصية في تاريخ الأديان ، لكل من (ناتان سودربلوم Soederblom) و (الفريد برنوليست Bertholet) غير أن كتاب أولهما لم يظهر - للأسف - الا باللغة السويدية (٩٠) . وقد تناول (ك . ف . تسترستين Zettersteen) الاسلام في كتاب « سودربلوم » ، وتناوله (ا . ميز Mez) في كتاب « برتوليت » (٩١) ولكن الأخير لم يقدم الا مقتطفات من القرآن .

(ب) أما « الكتاب النصي لتاريخ الأديان » (٩٢) لمؤلفه (ادوارد ليمن Lehmann) فإنه يقدم عدا ذلك أحكاما مختلفة ، تتعلق بالصلاة ، وشعائر صلاة الجمعة ، والزكاة ، وصوم رمضان ، والحج ، والجهاد ، والأكل ، والشرب ، والزواج ، والعقائد السنوية (المتوفى عام ١٤٩٠ م) التي تستخدم كثيرا جدا في العالم المحمدي ، بوصفها كتابا تعليميا في قواعد الدين .

وقد اضيفت في الطبعة الثانية لكتاب « ليمن » مقتطفات من صحيح البخاري ، ومن قصيدة البردة في مدح « محمد » كما اضيفت أيضا على وجه الخصوص نصوص كثيرة في التصوف للحلاج ، والغزالي ، ومن التصوف الفارسي ، و اضيفت أيضا خمس قصائد ل (زيا جوك - الب Zia Goek - Alp) في تصوير الاسلام الحديث في الوقت الراهن .

(ج) وهناك كتاب مفصل يقدم مصادر لتاريخ الدين الاسلامي وهو

(٩٠) ظهر الكتاب في ستوكهولم عام ١٩٠٨ .

(٩١) ظهر كتاب برتوليت في توينجن بالمانيا عام ١٩٠٨ بعنوان : كتاب للمطالعة في تاريخ الأديان .

(٩٢) ظهر الكتاب في طبعته الأولى في ليبترج عام ١٩١٢ ، وظهرت الطبعة الثانية عام ١٩٢٢ .

كتاب « الدين الاسلامى » من تأليف (جوزيف هل Hall) (١٩٣)
فى سلسلة « الأصوات الدينية للشعوب » - فبعد مقدمة قصيرة عن تطور
علم العقيدة الاسلامى ، حتى عصر الغزالى ، يقدم ترجمة للنصوص
التالية :

- ١ - مختارات من القرآن مرتبة حسب وجهة نظر موضوعية .
- ٢ - الفقه الأكبر لأبى حنيفة .
- ٣ - العقيدة للطحاوى (المتوفى عام ٩٢٣ م) .
- ٤ - مختارات من كتاب اللمع للأشعري (المتوفى ٩٣٥ م) .
- ٥ - اسرار الوحي للسمرقندى (توفى فى نهاية القرن الرابع
الهجرى) .

٦ - بداية الهداية للغزالى (المتوفى ١١١١ م)
وهناك مجلد ثان ، يزعم ان يشمل التصوف من القرن العاشر الى
القرن الثالث عشر الميلادى .

(د) وهناك كتيب جذاب جدا عن الدين الاسلامى (٩٤) للسفير
التركى فى برلين محمود مختار باشا ، وهو يريد ان يواجه به سوء الفهم
للاسلام ، لأنه من النادر ان يجد المرء كتبا عن الاسلام باللغة الألمانية ،
ألقت من وجهة النظر الاسلامية ، وغاية الكتاب هى سد هذا الفراغ .

ويتناول الكتاب - معتمدا على القرآن ، وعلى مجموع الأحاديث
النبوية الذى أصدره « عارف بك » منذ وقت قصير ، ووجد لدى الأتراك
اقبالا عظيما فى اسطنبول - يتناول الموضوعات التالية :

الله فى الاسلام ، بعثة النبى ، تسامح الاسلام ، القرآن ، المسيح
والانبياء ، الخلق ، البيعت ، الجنة والنار ، الصلاة ، الصبح ،
الدرأويش ، العناية الالهية ، الزواج والنساء ، الأخلاق الاسلامية ،
الاسلام بوصفه عنصر الحضارة .

(٩٣) جوزيف هل (١٨٧٥ - ١٩٥٠) مستشرق ألماني ، كان يعمل
أستاذًا بجامعة ارلانجن بألمانيا ، وكان يهتم بصفة خاصة بالشعر العربى .
والعنوان الكمال لكتابه عن الاسلام هو : الدين الاسلامى : ترجمة من المؤلفات
الأساسية ، وقدم له جوزيف هل - بينا ١٩١٥ - الجزء الأول : من محمد
الى الغزالى .:

(٩٤) صدر الكتاب فى فبراير بألمانيا عام ١٩١٥ بعنوان عالم الاسلام
فى ضوء القرآن والحديث .

وحذا ألجمع لأقوال القرآن والحديث عمل جدير بالترحيب ، لأنه يعرض ما يراه المسلمون المثقفون المعاصرون معيارا للعقيدة والسلوك .
(هـ) ويقدم (فينل Weinel) المختارات النصية التالية لتصوير الدين الاسلامى .

١ - من السورة الثانية للقرآن .

٢ - من السورة السادسة والخمسين .

٣ - من كتاب بداية الهداية للغزالي (خوالى ١١٠٠ م) .

(و) وتزعم أيضا سلسلة « مصادر تاريخ الأديان » أن تاتى باصوات دينية من الاسلام ، وتشتمل الخطة على ما ياتى :

- القرآن من ترجمة (ف . شولتهس Schulthess) (٩٥) .

- مختارات من كتاب « الاحياء » للغزالي . من ترجمة (هانز باور

Bauer) .

- المواقف للايجى ، من ترجمة (ماكس هورتن Horten) (٩٦) .

- الانسان الكامل . من ترجمة هورتن أيضا

(ر) واخيرا . . فان السلسلة التى قام بانثائها واصدارها

(جوستاف بفانمولر Pfannmueller) عن « كلاسيكى الأديان »

تخصص أيضا كتابا عن « شخصية محمد » وتعاليمه ، وكتابا عن

« الغزالي » .

(٩٥) مستشرق المانى توفى عام ١٩٢٢ وكان جل اهتمامه موجها الى
الادب العربى .

(٩٦) ماكس هورتن (١٨٧٤ - ١٩٤٥) من بشاهير المستشرقين
الألمان . اهتم بصفة خاصة بالفلسفة الإسلامية وتاريخها .

ومن مؤلفاته : ما وراء الطبيعة لابن رشد ، ورد ابن رشد على
الغزالي ، وفلسفة الاسلام وعلاقتها بالأفكار الفلسفية فى المشرق العربى ،
واين سينا ، والدين والفلسفة فى الاسلام ، ومحمد عبده والاصلاح .
وله دراسات اخرى فى التصوف الإسلامى والحلاج وفلسفة ابن سينا
والقرايى ..

الفصل الثالث

سيرة الرسول في تصورات الغربيين

(١)

● تمهيد :

بعد هذا البحث امتدادا للبحث السابق الذي ترجمنا فيه بعض الفصول - المتعلقة بوجه عام بالدراسات الاستشراقية حول الاسلام - من كتاب المستشرق الألماني (جوستاف بفانمولر Gustav Pfannmueller) موجز في ادب علوم الاسلام (Handbuch der Islamliteratur) الذي اورد فيه المؤلف اهم المراجع في علم الاسلاميات في الغرب ، وصنفها تصنيفا موضوعيا ، وقام بتقديم عرض مختصر لضمون كل مرجع .

وفي الصفحات التالية نتابع ترجمة بعض الفصول المختارة المتعلقة بتصورات الغربيين لسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام (١) . ونظرا لطول هذا الموضوع فسنضطر الى تقسيمه الى حلقات ، وذلك بهدف وضع صورة اجمالية - امام الباحثين - للتصورات الغربية بصفة عامة والتصورات الاستشراقية بصفة خاصة في المجالات الأساسية المتعلقة بالاسلام ونبيه وتعاليمه ، لعل في ذلك ما يدفع بعض الباحثين الى التوفر على دراسة هذا الجانب في التراث الغربي .

وإذا كنا لم نحاول ان ندرس التراث الغربي ونحلله وننقده كما فعل الغربيون بتراثنا ، فلا أقل من ان ندرس ما كتبوه عنا حتى نعرف الاسباب التي من اجلها كانت حملتهم الظالمة علينا وعلى ديننا ومقدساتنا . ومن هنا تتضح حاجتنا المناسبة الى دراسة كل ما يكتب عنا وعن ديننا في السابق واللاحق دراسة عميقة واعية ، لأن هذه الكتابات تمنح

(١) انظر الصفحات من ١١٥ الى ١٢٥ ، ومن ١٥٠ الى ١٥٦ .

ومن ١٦٨ الى ١٩٦ من كتاب بفانمولر .

أقدس ما لدينا ، تمسنا في اخص خصائصنا وهو عقيدتنا التي نعتز بها ،
وتمس شخص نبينا الذي جعله الله لنا « أسوة حسنة » وتمس قرآننا
الذي جعله الله « تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » (٢) ،
وتمس سنة نبينا التي هي مصدرنا الثاني للتشريع ، وبصفة عامة
تمس تاريخنا كله .

وربما تكون بعض هذه التصورات الغربية عن الاسلام ونبيه قد
دخلت الى عالم النسيان ، وعفا عليها الزمن ، وخاصة ما يتعلق منها
باساطير العصور الوسطى عن النبي ﷺ ، ولكنها مع ذلك لا تزال
وستظل جزءاً أساسياً من تراث الغربيين لابد لنا من الاطلاع
عليه ومعرفته .

ومن المعلوم ان الكتابات الغربية عن الاسلام ونبيه تتراوح بين
الجهل التام والمعرفة الموجهة ، بين الاسفاف الشنيع والموضوعية النسبية ،
بين الافتراء والانصاف ، بين الاستعلاء والنزاهة ، بين الفحش الصارخ
والتسامح العاقل .

ونحن اذ نترجم هنا هذه الصفحات بما تتضمنه احيانا من اوصاف
شنيعة للنبي ﷺ ، وهجوم دنيء عليه وعلى دينه ، دون ان نحذف
من ذلك شيئاً ، فذلك لاننا على يقين من انه لن يجدى نفعاً اخفاء شيء
من ذلك ، فهذا الكلام منشور يشقى اللغات الحية . وكما لا يجدى النعمة
في شيء اخفاء راسها في الرمال ظناً منها انها ستكون بمنجاة من الصياد ،
فكذلك لا يجدينا في شيء ان نتجاهل كل ما ينشر عنا وعن ديننا ،
لاننا بذلك لن نستطيع ان نمحوه من تراث الغربيين ، او نبعده من رفوف
المكتبات في بلاد الغرب المختلفة ، او نمنعه من الوصول الى ايدي
الباحثين .

وسيالاحظ القارئ في ثنايا النص الذي ننقله هنا تكرارا لبعض
الأمور ، وخاصة للأسطورة التي نسجها خيال الغرب حول وفاة
محمد ﷺ . والسبب في هذا التكرار يرجع الى ان بفانموللر يعرض
هنا مؤلفات مختلفة تتردد فيها هذه الاساطير حيث يعزف الجميع
نفس اللحن . ومن خلال هذا التكرار نتبين مدى الانتشار الواسع لمثل
هذه الاساطير في تلك الأزمنة التي احتفلت بهذا اللون من الاساطير .

والفصول المختارة التي نترجمها هنا لم يضع لها المؤلف اية هوامش او عناوين جانبية ، وسنسمح لانفسنا بتقسيم الموضوع الى فقرات ووضع عناوين خاصة لهذه الفقرات تحمل في اغلبها اسم الكاتب الذي تتناوله كل فقرة على حدة . وبالإضافة الى ذلك سنقوم بوضع هوامش مختلفة نعرف فيها بالكتاب أو المستشرقين الذين يتحدث عنهم المؤلف ، ونورد فيها على بعض المزاعم أو المفتريات على الاسلام وبيده ، ونوضح فيها أيضا بعض المفاهيم الواردة في ثنايا النص طالما كان ذلك ضروريا .



ترجمة وتعليقات

أ - فيكتور شوفان (Victor Chauvin) :

يقدم لنا (فيكتور شوفان) (٣) فهرسا مفصلا للكتابات التي صدرت حول محمد وذلك في الجزء التاسع من كتابه الشيق : « فهرس المصنفات العربية او المصنفات المتصلة بالعرب »
(*Bibliographie des ouvrages Arabes ou relatifs aux Arabes*)

وفي القسم الأول من هذا المؤلف يتناول شوفان المؤلفات الحديثة ، اي المؤلفات التي صدرت حول محمد في الفترة الممتدة من عام ١٨١٠ حتى عام ١٩٠٨ . ويجانب ذكره لعناوين هذه المؤلفات بكل دقة فانه يقدم لنا أيضا بيانا بمحتويات المؤلفات ذات الأهمية ، ويشير الى أهم ما وجه اليها من نقد .

أما القسم الثاني فانه يتضمن ذكر المؤلفات السابقة على عام ١٨١٠ ، ويتناول بالتفصيل بصفة خاصة المؤلفات البيزنطية والاسبانية ومؤلفات القرون الوسطى .

وفي القسم الثالث يتناول رسائل جامعية حول بعض المسائل الخاصة مثل : الوفود ، بدر ، بحيرى ، الصرع (٤) ، قاطمة ، نساء محمد ،

(٣) فيكتور شوفان (١٨٤٤ - ١٩١٢) مستشرق بلجيكي ، تخرج من جامعة لييج (Liège) ، وعمل أستاذا للعربية بها . وقد وضع الفهرس المشار اليه في اثني عشر جزءا ، أصدر منها أحد عشر جزءا من عام ١٨٩٢ حتى عام ١٩٠٩ ، ونشر (بولن) الجزء الثاني عشر في عام ١٩٢٢ .

(٤) لعل القارئ يلاحظ هنا أن موضوع « الصرع » مقحم بين هذه الموضوعات التي تتحدث عن سيرة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن الأمر هنا يدور حول خطأ مطبعي أو خطأ في الترجمة ، ولكن الأمر ليس كذلك . فالحديث عن الصرع هنا حديث مقصود ، إذ يحلو لبعض المستشرقين أن يفسروا ظاهرة وحى الله الى نبيه عليه الصلاة والسلام بأنها كانت عبارة عن نوبات من الصرع تعريضة بين الحسين والحسين ، وذلك انطلاقا من مبدأ عدم الاعتراف بنبوته ، وبالتالي فليس هناك أصلا - في زعمهم - وحى كان يأتيه .

وهذا الموقف يدخل في باب التعصب الأعمى الذي هو نفسه مرض لا أمل في شفائه ولا جدوى من علاجه . وسنعود للحديث مرة أخرى عن هذا الموضوع في تعليق آخر على كلام يدور حول نفس المعنى .

شجرة النسب ، المعجزات ، وفاة محمد ، مولده ، نبالة نسبه ،
اسماء محمد ، صورته الجسمية وأخلاقه . . . الخ (٥) .

وأما القسم الرابع فإنه يخصصه للأساطير الغربية عن محمد ، كما
يخصص القسم الخامس للحديث عن محمد في الأدب . أما اختتام الكتاب
فيتكون من تقييم للمؤلفات وإضافات وتصويبات وملحق (يتضمن قائمة
بأسماء المؤلفين العرب من كتاب السيرة المحمدية طبقا لما أورده
بروكلمان) ، وبيان بالمحتويات .

وقد بذل شوقان جهدا هائلا في جمع المادة ، ولكن الموضوعات
قد تم ترتيبها للأسف ترتيبا أبجديا وليس حسب تسلسلها الزمني .

وبالمناسبة فإن كل المؤلفات حول الاسلام تكاد جميعها أن تكون
مشملة على أوصاف لحياة محمد (ص ١٦٤ - ١٩٨) (٦) وعلى مادة
ببليوجرافية ثرية عن حياة مؤسس هذا الدين وأعماله .

* * *

● مؤلفات أخرى :

وفي بحثه عن : « محمد وأصول علم الإسلاميات »

(Mahomet et les origines de l'islamisme)

يصف « رينان » (٧) الأفكار المختلفة - التي كونتها العصور

(٥) أورد شوقان هذه المسائل حسب الترتيب الأبجدي في
الفرنسية . ولهذا يتحدث عن وفاة محمد صلى الله عليه وسلم قبل حديثه
عن مولده ، وقد انتد بهاموللر هذا الترتيب - كما سيأتي بعد قليل - .

(٦) هذه إشارة إلى صفحات من كتاب (بهاموللر) الذي نترجم
منه هذه الفصول ويدور حديث بهاموللر في هذه الصفحات حول
المؤلفات الحديثة في سيرة محمد صلى الله عليه وسلم .

(٧) أرنست رينان (١٨٢٣ - ١٨٩٢) فيلسوف ومستشرق فرنسي .
من مؤلفاته (ابن رشد والرشدية) وقد ترجمه إلى العربية عادل زعير .
وقبه يذهب رينان إلى القول بأنه لولا ابن رشد ما فهمت فلسفة أرسطو .
ومن مؤلفاته أيضا : تاريخ الأديان وحياة يسوع (ألفه في أحد الأديرة
اليسوعية في لبنان) .

والشعوب المختلفة عن محمد - وبيان الصلة بينها ، بأنها عمل مشكور من جانب علم التاريخ . ولكن رينان نفسه لم يقدم لنا الا بعض الاشارات .

ويقدم لنا (سنوك هورجرونيه S. Hurgronje) (٨) فى حديثه عن سيرة محمد التى قام بتأليفها (جريمه Grimme) (٩) يقدم عرضا مختصرا عن أقدم كتب السيرة المحمدية (فى أوروبا) . وينطلق هورجرونيه فى ذلك من كتاب (ج . ه . هوتنجر Hottinger) (١٠) « تاريخ الشرق Historia orientalis » (الصادر فى زيوريخ عام ١٦٥١) . والهدف الذى يضعه هوتنجر نصب عينيه ليس هو تقدم التفسير وتقديم التاريخ العام فحسب ، وانما هو بالأحرى يرمى الى بلوغ هدفين آخرين : فى مقابل الاتهام الذى وجهه الكاثوليك الى دعاة الاصلاح بأنهم ينهجون نهج تعاليم الاسلام بطريقة خفية يقوم هوتنجر - من ناحية - بمحاولة البرهنة على عكس ذلك ، اى البرهنة على أن حجج (بلارمسين

وقد كان رينان أول من قرر أن الجنس السامى دون الجنس الأرى كما صرح بذلك فى كتابه : تاريخ اللغات السامية . تعرف على جمال الدين الأفغانى فى باريس ودار بينهما نقاش حول الاسلام فى جريدة (الدنيا) الفرنسية .

(انظر المستشرقون للعقيدى ١٩١/١ ، وزعماء الاصلاح لأحمد أمين) .
(٨) سنوك هورجرونيه (١٨٥٧ - ١٩٣٦) مستشرق هولندى . يعد عميد العربية بعد جولدتسيهر وفى طليعة الرواد فى دراسات الفقه الاسلامى والأصول والتفسير والحديث فى أوروبا . له بحوث ودراسات عديدة عن الاسلام وتاريخه وشريمته ، وحول طابع الاسلام وانتشاره ، وابراهيم فى القرآن ، والاسلام والمشكلة العنصرية ، وسياسة النبى الدينية . ومن مؤلفاته أيضا : الحج الى مكة ، والمهدى ، ومكة وجغرافيتها فى القرن التاسع عشر .

(٩) ه . جريمه (١٨٦٤ - ١٩٢٢) كان أستاذا للغات الشرقية فى مونستر بألمانيا . ومن أعماله : محمد (فى جزئين) ، وترجمة القرآن ، وله دراسات عديدة حول : اللغات السامية ، وعلماء الكلام ، والاسلام واليهودية ، واسم محمد ، وغير ذلك من موضوعات .

(١٠) هوتنجر (١٦٢٠ - ١٦٦٧) مستشرق سويسرى ، كان أستاذا للغات السامية فى كل من زيوريخ وهایدلبرج . ومن أعماله : فهرس المصنفات الشرقية ، ومعجم مختلف اللغات ، والآثار الشرقية ، ومجموعة مباحث شرقية .

(Bellarmin) (١١) للدفاع عن تعاليم الكنيسة الكاثوليكية قد استعيرت من علم العقيدة الاسلامى . ثم رغب هوتنجر (من ناحية اخرى) كما فعل (بيلياندر Bibliander) من قبل (ص ١٤٧) (١٢) بنقضه للقرآن - فى الاسهام فى مكافحة الخرافات المحمدية والسيادة التركية التى قامت مع الدين وسقطت معه . ولكن كتاب هوتنجر كله مملوء بالأحكام السابقة التى كان لا يزال يحس بها حينذاك عالم من العلماء ضد المذهب المحمدى .

وتصادف ايضا نفس النفور الداخلى ازاء محمد وتعاليمه لدى الأب (مارانتشى Marracci) (١٣) الذى قام بنشر ترجمة لاتينية للقرآن فى عام ١٦٩٨ مع نقض مفصل للقرآن (ص ٢١٤) ، وكذلك نجد هذا النفور لدى (بريسو Prideaux) (١٤) الذى جعل كتابه (حياة

(١١) روبرت بيلارمين (١٥٤٢ - ١٦٢١) كاردينال يسوعى ، كان فى طليعة المهاجرين للإصلاح الدينى الذى تم على يد مارتن لوثر وأتباعه .

(١٢) يجيل بيفانولر هنا الى ص ١٤٧ من كتابه ، وقد أشار هناك الى أن كتاب القسيس السويسرى بيلياندر - - - - - الذى صدر عام ١٥٤٣ م فى ثلاثة مجلدات - - - - - يمثل الوضع الذى وصل اليه الجدل كله ضد الاسلام حتى ذلك العصر ، كما يمثل حاصل هذا الجدل . فالكتاب لا يشتمل فقط على الترجمة اللاتينية للقرآن والتى تمت قبل ذلك بأربعمئة عام ، وإنما يشتمل أيضا على عدد كبير من الكتابات المضادة للقرآن وللإسلام ابتداء من عصر بطرس الوقر حتى عصر الإصلاح الدينى .

(١٣) يجيل بيفانولر هنا أيضا الى ص ٢١٤ من كتابه ، وهناك يشير الى أن الأب الايطالى لودفيج مارانتشى أمضى أربعين عاما فى دراسة القرآن وكتب التفسير العربية لكى يحارب محمدا بنفس سلاحه . - - - - - وقد كانت حصيلة هذه الدراسة هذا العمل « الضخم » الذى أنجزه ، والذى تضمن النص العربى الكامل للقرآن مع ترجمة لاتينية مصحوبة بهوامش توضيحية ونقض لكل مقرة قرآنية على حدة . وقد أصدر مارانتشى قبل ذلك - - - - - فى عام ١٦٩١ - - - - - كتابا حول نقض القرآن ، قدم فيه لمحة عن حياة محمد وعن القرآن ثم برهن - - - - - كما يزعم - - - - - على بطلان الاسلام وحقيقة الديانة المسيحية .

(١٤) هو همفري بريدو (١٦٤٨ - ١٧٢٤) مستشرق انجليزى . ويعلق نجيب العقيدى على كتاب حياة محمد لبريدو بقوله : « أنه » ترجمة ناتئة لا غناء فيها « (المستشرقون ٤٥/٢ الطبعة الرابعة) .

محمد) مرآة تعكس الصورة الخاصة لكل من الكفار والزنادقة واصحاب
مذهب التآليه الطبيعيه والاباحيين .

٢ - ريلاند (Hadrian Reland) :

اما الكتاب الصغير الممتاز الذى ألفه (هادريان ريلاند) (١٥) فى
عام ١٧٠٥ بعنوان « الديانة المحمدية De religione Mohammedica »
(ص ٦٣ وما بعدها) فانه يفصح عن طابع مختلف تمام الاختلاف .
فالاهداء المختصر لشقيقه والمقدمة الطويلة التى لا تزال قراءتها حتى اليوم
على جانب من الاهمية يبينان لنا كيف كان هذا العالم مدفوعا بحبه
للحقيقة وبحسه للعدالة التاريخية الى رسم صورة امينة للاسلام .

هل من الممكن ان تجد ديانة متناقضة - كما يصفها المؤلفون
المسيحيون - ملايين الأتباع ؟

دعوا المسلمين انفسهم يصفون لنا دينهم !

وفضلا عن ذلك فانه يتحتم على المرء ان يعرف الاسلام جيدا لكى
يستطيع ان يحاربه بطريقة فعالة . ولكن ضرورة محاربتة تنمو مع كل
يوم لان علاقات الأوروبيين بالمحمديين - فى تركيا وأفريقيا وسوريا وإيران
وجزر الهند التابعة لهولندا - تتسع دائرتها باستمرار . وفى وسع المرء عن

(١٥) هادريان ريلاند (١٧٧٦ - ١٧١٨) مستشرق هولندى ،
كان أستاذا للغات الشرقية فى جامعة أوترشست بهولندا . ومن مؤلفاته
التي كان لها صدى بعيد فى أوروبا كتابه عن الإسلام فى مجلدين ، أحدهما
عن الديانة الإسلامية والثانى حول بصويف فكرة الأوروبيين الخاطئة عن
الإسلام . وقد ترجم الكتاب الى عدة لغات أوروبية . وله أيضا : تعليم
المتعلم للزرتوجى ، وفى مقدمته فهرس لجميع النصوص العربية المطبوعة
فى أوروبا حتى أيله ، وله كتاب فى الجهاد ، والجغرافيا والآثار فى
فلسطين . (المستشرقون ٢ / ٣٠٤) .

ويحيل بفانمولر هنا الى ص ٦٣ وما بعدها من كتابه . وهناك يبين
بفانمولر أن ريلاند كان اول من قام بعرض على للاسلام فى أوروبا .
ويشير الى رهود الفعل التى أحدثها كتاب ريلاند عن الاسلام . (انظر
ترجمتنا لذلك فى ص ١٠٧ وما بعدها فى العدد الثانى من حولية كلية
الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة قطر) .

طريق النقاش الدينى - ان يكسب المسلمين الى صف العقيدة الحقّة ، وهذا افضل بكثير من القيام بتوجيه الشتائم لهم بطريقة حمقاء .
والمعرفة الدقيقة بالاسلام وانباعه ستجعلنا نضع مكان الكبرياء الساذجة الاحساس بالشكر لله الذى انعم علينا من فضله بالمسيحية . وعلى الرغم من كل ذلك فانه لم يدر بخلد ريلاند ان يقوم بتمجيد الاسلام . فهو بالاحرى يستفظعه - كما يوضح هو ذلك (١٦) - انه يريد فقط ان يتعرف المرء على الاسلام تعرفا حقيقيا ، والا يكون لنفسه عنه تصورات غير معقولة .

٣ - بولانفلييه (Boulaivillier) :

ولم يتأخر رد الفعل طويلا ضد علماء من امثال مارانشى وبيردو اللذين لم يستطيعا ان يريا فى الاسلام اى شىء طيب . ففى عام ١٧٣٠ ظهر فى لندن كتاب (حياة محمد) - وهو كتاب لم يكتمل - من تأليف الكونت (بولانفلييه) وقد مجد المؤلف فيه مؤسس الاسلام بوصفه واحدا من الحكماء ، واحل دينه فى جوانب كثيرة فى محل ارفع من المسيحية المألوفة .

ولم يكن الامر الذى دفع هذا الكونت الى هذا المديح لنبي مكة هو فقط المحبة الخالصة للحقيقة والعدالة ، فقد صور لنفسه - بمساعدة بعض المؤلفات الأوروبية - نبيا يرضى حاجة فى نفسه ، وكان يرى فى محمد نبيا قام بتمدين شعبه وانشأ دينا عقليا ، ويقرر بولانفلييه بسرور خفى ان محمدا ، فى الوقت الذى يحترم فيه تقوى الزهاد والرهبان ، يندد بالكهانة الدينية اشد تنديد . وهذا الميل المعادى لرجال الكهنوت فى رواية بولانفلييه سرعان ما اكتشفه معاصروه ايضا (١٧) .

(١٦) نعتقد ان صدور مثل هذه الأوصاف من ريلاند كان مجرد ذر الرباد فى العيون حماية لنفسه من بطش الكنيسة التى لم تقتنع بمثل هذه المبررات ، فحررت تداول الكتاب ، لأنها لم تكن تريد للحقيقة ان ترى النور حتى لا يطلع عليها جمهور الناس (راجع أيضا كتابنا : الاستشراق والخلقية الفكرية للصراع الحضارى ، ص ٣٣ - ٣٥ ، النوحة ١٤٠٤ هـ) .
(١٧) عنها نشر بولانفلييه كتابه أخذ عليه المنصبون من أهل ملته انه يتحدث عن محمد باعتباره رسولا للعناية الالهية (انظر الشرق والاسلام

٤ - جان جانبييه (Jean Gagnier) :

وبعد ذلك بوقت قصير رأينا (جان جانبييه) (١٨) يتجه ضد بولانغلييه وضد طريقة عرضه المنحازة ، وفى عام ١٧٢٣ قام جانبييه بترجمة سيرة عربية لمحمد - حديثة نسبيا - الى اللغة اللاتينية . وبعد قياس الكونت بولانغلييه بنشر روايته شعر جانبييه بأنه يتحتم عليه أن يصف بطريقة غير متحيزه - حسب المصادر المتوفرة لديه - ماذا يقول المحمديون عن نبيهم ، وذلك لكي يحافظ على الخط الوسط الصحيح بين الحماس الحاقد لكل من مارانتى وبريدو من ناحية والمبالغات المضحكة من جانب الكونت بولانغلييه من ناحية أخرى . ولكن مقدمة كتاب جانبييه ، التى يصف فيها محمدا بأنه أكثر الناس شرا ، وبأنه عدو لدود لله ، تبين لنا ماذا ينبغى أن يفهم المرء من « حياته » (١٩) .



فى أذهب جوفه لعبد الرحمن صدقى ص (٢١) ، ويحاول بفانمولر هنا أن يقلل من شأن النظرة الايجابية لبولانغلييه الى الاسلام ونبيه ، وذلك بارجاعها الى ميول ذاتية ونزعة معادية للكنيسة ، وفيما يلى سسنجد أيضا جانبييه يصف محاولات بولانغلييه بأنها مبالغات مضحكة .

وهكذا نجد أنه كلما اترب كاتب غربى من رؤية حقيقة الاسلام انبرت الأصوات من كل مكان فى الغرب تنبئه بالمبالغة أو الغرض أو العداة للكنيسة وما شاكل ذلك من اتهامات ، فهل هذا من العلم والموضوعية فى شىء ؟

الا تكون دراسة الاسلام دراسة علمية موضوعية الا اذا ابرزت مثالب واطهرت نقائص نلتصق بالاسلام ؟

ان هذا حقا موقف غريب ليس له مبرر علمى او اخلاقى .

(١٨) جان جانبييه (١٦٧٠ - ١٧٤٠) كان أستاذا للعبرية ثم العربية فى أكسفورد . قام بترجمة رسالة الرازى عن الجدرى ، ونشر من كتاب أبى الفداء « مختصر تاريخ البشر » (سيرة النبى) مقنا وترجمة لاتينية ، ثم نشر المختصر كله مع ترجمة فرنسية . وقد ألف كتابا عن حياة محمد فى جزئين بالفرنسية (استردام ١٧٣٢) . راجع : المستشرقون ٤٥ / ٢ .

(١٩) يفهم المرء من ذلك بطبيعة الحال عداوة سريحة وتحيزا مبدئيا ، اذ ما معنى أن يقدم جانبييه لكتابه بهذه الأحكام الباطلة والأوصاف الكاذبة ؟

٥ - سيل (Sale) :

أما (سيل) (٢٠) الانجليزي فإنه في مقدمته التمهيدية التي صدر بها ترجمته للقرآن قد حاول في البداية تقدير محمد تقديرا عادلا ، ولكنه لم ينجح في القضاء على الأحكام السابقة السائدة ، فقد ظل محمد مسددة طويلة ينظر اليه على انه مظل .



٦ - فولتير (Voltaire) :

أما (فولتير) (٢١) فقد كتب روايته المساوية « محمد أو التعصب » دون ان يراعى الحقائق التاريخية . وقد كان فولتير نفسه مقتنعا بأن كتابه المنبثق من خياله يتناقض تناقضا حادا مع التاريخ . ومع ذلك فقد أراد

ان الأمر هنا ليس له لدينا الا تفسير واحد ، وهو تصد توجيهه القاريء من بادىء الأمر لترادة الكتاب في ضوء هذه الأحكام ، وبهذا يؤثر جانبيه على القاريء ويضع قيادا على حريته ، ويتقدم له بذلك نظارة سوداء تلون كل ما تقع عليه عينه بهذا اللون القاتم . وهذا ليس من العلم ولا من الانصاف في شيء ، ولا يمت الى الأمانة العلمية بسبب .

ولا يشفع لجانيبه بعد ذلك أنه - كما يقول بفانمولر ص ١٧١ - كان يعتقد في كتابه اعتمادا تاما على المؤلفين العرب ، ويدعمهم بتحدثون بأنفسهم ، مبتعدا تماما عن المدح أو الذم ، متجنبا إضافة أى شيء من آرائه ، وأن كل همه كان هو تعريف الأوروبيين بمحمد من واقع ما يرويه المسلمون ويعتقدونه .

فالتناقض واضح بين المقدمات والنتائج ، وقصد الاساءة هو الذى يوجه جانبيه في كتابه . وهكذا نرى أن « الحيداد » الذى يعنيه هو مجرد لفظ فارغ لا معنى له .

(٢٠) جورج سيل (١٦٩٧ - ١٧٣٦) مستشرق انجليزي ، ترجم القرآن الى الانجليزية ونشرت الترجمة في لندن عام ١٧٣٤ وقد اشتملت على حواشٍ وشروح ومقدمة مسهبة عن الدين الاسلامي تضمنت الكثير من الاتك واللغو والتجريح .

(٢١) فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨) فيلسوف وأديب فرنسي شهير ، بعد قطب عصر التنوير في فرنسا .

ان يعرض على الجمهور شخصية (تارتوف Tartuffe) (٢٢) ممسكا
سلاحا في يده ، وكان يعتقد انه يستطيع ان يعير محمدا هذا الدور .
ولكن فولتير لم يكن له ان يفعل ذلك لو لم يكن التصور السائد حينذاك
هو ان محمدا يمثل التعصب والتضليل الديني (٢٣) .

وهكذا كانت أوروبا تموج بآراء كثيرة حول عمل محمد ، ولكن الحس
التاريخي الحقيقي الذي يتمتع به خيرة علماء عصرنا كان لا يزال معدوما
تماما .

(٢٢) تارتوف اسم يطلق على شخصية الرجل المنافق في إحدى
مسرحيات الأديب الفرنسي الشهير (موليير Moliere) (١٦٢٢ —
١٦٧٣) والتي تحمل نفس الاسم أيضا .
(٢٣) انه لأمر غريب حقا أن يلجا فولتير الى التشهير بالنبي عليه
الصلاة والسلام جاعلا منه في هذه الرواية التي مثلت على المسرح « منافقا
لا يعرف الحياء ومضللا وظالما تدنعه النوازع الحسية والتعطش للدماء . الخ »
وهو يعلم تمام العلم أن كل ذلك غير صحيح ولا يتفق مع الحقيقة التاريخية .
ولكن فولتير أراد بذلك أن يتخذ من محمد أداة حرب على الكنيسة على طريقة
« اياك أعنى وأسمى يا جارة » ، ولذلك يقول بفانمولر : « لكن فولتير
لم يرد اطلاقا بأساتته أن يصور شخصية محمد التاريخية ، وإنما أراد بذلك
فقط أن يحول دفة الحارث ضد المسيحية الكاثوليكية وضد التضليل الكهنوتي ،
وضد الخرافات ، وضد الدين نفسه وما يرتبط به ضرورة من تعصب » .

وقد مثلت المسرحية في مدينة « ليل » عام ١٧٤١ ، ثم قدمتها
« الكوميدي فرانسيز » في باريس عام ١٨٤٢ فاحتج عليها السفير التركي
لدى الحكومة الفرنسية وعقد مؤتمرا دعا اليه كتاب فرنسا الأحرار فأوقفت
الحكومة تمثيلها حينذاك (انظر : الشرق والاسلام في أدب جوته
لعبد الرحمن صدقي ص ٢٣) .

وبجانب هذه الصورة الظالمة نجد فولتير في مقالته (Essai sur les
moeurs) يقدم لنا صورة أخرى يصف فيها محمدا بأنه « الرجل العظيم
الذي جمع في شخصه بين الفاتح والمشرع والحاكم والكاهن ، والذي لعب
أعظم الأدوار التي يمكن أن يلعبها إنسان على ظهر الأرض » (انظر
بفانمولر ١٧٢) . وفي وسط هذا البحر المتلاطم بأعوار التخبط الواضح
والتناقض الصارخ لم يكن هناك مكان للحقيقة التاريخية والموضوعية الفزيهة .
ومما هو جدير بالذكر أن فولتير كان يعد من الملاحدة حيناً ومن متكري النبوات
عاماً في أكثر الأحيان .

٧- جوستاف فايسل (G. Weil) :

وعندما نشر الأستاذ (جوستاف فايل) (٢٤) في عام ١٨٤٣ كتابه عن سيرة محمد كان في وسعه ان يقول بحق في مقدمته ان آخر اسلافه الذي كان لمؤلفه قيمة شخصية كان جانبيه الذي الف كتابه قبل ذلك بقرن ونصف .

وقد قام فايل بخطوة كبيرة الى الامام ، وذلك بسعيه في رسم صورة اكثر تاريخية لأصول الاسلام على اساس من مصادر اكثر جودة واوفر عددا مما لم يكن متوفرا لأسلافه . وقد حققت الدراسات الاستشراقية تقدما هائلا في خلال الخمسين عاما التي مضت بعد ظهور كتاب فايل ، ولكن ذلك لم يقلل في شيء من الخدمة التي اداها فايسل بوصفه اول من قام ببحث نقدي تاريخي حول هذا الموضوع والنتيجة التي ينتهي اليها فايل في كتابه هي ان محمدا يمكن ان يرى ايضا في اعين غير المحمديين بأنه « رسول الله » .

* * *

٨ - كوسان دي برسيفال (Caussin de Perceval) :

ومنذ ذلك الوقت بدأ محيط العلماء يزداد ميلا الى مثل هذا التقدير . وهكذا يوضح (كوسان دي برسيفال) (٢٥) في « مقالاته » انه من غير

(٢٤) يأتي التعريف بـ جوستاف فايل لدى نجيب العتيقي (المستشرقون ٢/ ٢٦٦) تحت اسم سيهون فسائل ، وله مسسو ، فالمعلومات الواردة تحت هذا الاسم تخص جوستاف فايل (١٨٠٨ - ١٨٨٩) وهو مستشرق ألساني شهير ، قام بنشر وترجمة العديد من المؤلفات العربية . ومن مؤلفاته التي تعنينا هنا الكتاب الذي يشير اليه بفانموللر وهو « محمد النبي : حياته وتعاليمه » شترتجارت ١٨٤٣ .

(٢٥) هو ارمان كوسان دي برسيفال (١٧٩٥ - ١٨٧١) كان استاذا للعربية في معهد فرنسا وعضوا في المجمع اللغوي . ومن بحوثه : وقعة بدر - مرحلة من حياة الرسول (المجلة الأسبوعية ١٨٣٩) وباكورة تاريخ العرب في ثلاثة مجلدات (١٨٤٧) وتداول فيه العرب قبل الاسلام ثم عصر النبي ، ثم انصواء القبائل تحت راية الاسلام (المستشرقون ١ / ١٧٧) .

المعقول الا يستطيع المرء ان يرى في محمد الا مخادعا ذكيا او عبقرية طموحة . لقد كان محمد - حسب رايه - على وجه الخصوص انسانا مقتنعا بانه قد انتدب لتخليص شعبه من الضلال والعمل على احيائه .

وقد كانت المصادر التي استطاع هؤلاء الكتاب ان يضعوها تحست تصرفهم مصادر ثرية جدا بالمقارنة الى ما كان متوفرا لأسلافهم ، ولكنها مع ذلك كانت أقل بكثير جدا مما أصبح متيسرا لنا في خلال العشرين او الثلاثين سنة الأخيرة (٢٦) . وبالإضافة الى ذلك كانت لا تزال هناك ثغرات هامة في منهج بحوثهم .

وقد عرف كل من فايل وكوسان - مثلما عرف أسلافهما - ان المؤلفات العربية غالبا ما دخلت عليها يد التغيير لأسباب عقدية او لأسباب حزبية طائفية . وقد ميزا ببصيرة أكثر من ذي قبل الجيد منها من الرديء . ولكنهما لم يلاحظا ملاحظة كافية ان سيرة محمد - على الأقل ما ينتسب منها الى الفرق الاسلامية - قد تطورت واعيد تشكيلها بنفس القدر الذي تطور به الدين المحمدي نفسه ، الأمر الذي يجعل التقدير الدقيق للمصادر لا يمكن أن يتم الا على أساس من الدراسة العميقة لتاريخ « الكنيسة » المحمدية (٢٧) .

وفضلا عن ذلك فإنه لم يكن هناك حتى عصريهما من لاحظ ملاحظة كافية الفرق بين « تعاليم محمد » وبين « الاسلام » الذي انبثق عنها (٢٨) . ولو كان هناك من لاحظ ذلك لكان يطيب للمرء عندئذ أن يتحدث عن

(٢٦) يلاحظ أن بنامولر قد كتب هذا الكلام عام ١٩٢٣ .

(٢٧) استخدم بنامولر هنا تعبير « الكنيسة المحمدية » وهو مصطلح غريب عن الاسلام وعن الدراسات الاسلامية بوجه عام . والمعروف لكل المستشرقين أنه لا توجد في الاسلام مؤسسات كهنوتية لها سلطات روحية على أتباعها مثلما هو الحال بوجه خاص في الكنيسة الكاثوليكية .

(٢٨) يثر بنامولر هنا قضية ثرية ، حيث يفهم أن الاسلام شيء وتعاليم محمد شيء آخر ، فدين محمد وهو الاسلام يختلف عن تعاليم محمد ، على اعتبار ان الاسلام قد طرأت عليه تطورات مختلفة لم يكن لها وجود في التعاليم الأصلية للنبي عليه الصلاة والسلام . وهذا اضطراب في الفهم لا أساس له . فالاسلام وتعاليم محمد شيء واحد وصدرها هو القرآن الكريم والسنة الصحيحة .

« دين محمد » وليس عن « تعاليمه » ولكانت الشهادة المسموح بها لهذا الدين هي القرآن وحده ، وذلك بتفسير تاريخي طبقا لأقدم الأحاديث . ويدلا من معرفة هذا الفرق راج المرء يخلط بين القديم والحديث وراح يمدح محمدا او يذمه لأمور لم يفكر فيها محمد على الاطلاق .

وقد تم اخيرا فتح الطريق الصحيح عن طريق المؤلفات التي ظهرت في وقت واحد تقريبا لكل من تولدكه وموير واشبرنجر .

* * *

٩ - مويسر (Muir) :

أما (موير) (٢٩) فإنه على الرغم من ارثوذكسيته الانجليزية فإنه قد اكتسب خلال دراسته تعاطفا معيناً لرجل (يقصد محمدا) ظهر له أنه

أما ما طرأ على الفكر الإسلامي (وليس على الإسلام) من تطورات مختلفة على مر العصور ، وما نتج عن ذلك من ظهور مذاهب أو فرق إسلامية مختلفة فهذا أمر لا يمس الإسلام أو تعاليم محمد في شيء ، لأنه يتعلق فقط بأفهام أصحاب هذه المذاهب والفرق ، ولا يتحمل الإسلام مسؤولية ما قد يكون في هذه الأفهام في بعض الأحيان من خلط أو اضطراب في الفهم .

وعلى ذلك فإن التفرقة الصحيحة التي كان على بفانمولر أن يدركها هي بين الإسلام والفكر الإسلامي ، على اعتبار أن الإسلام وحى الله لقبه ليقيم بتبليغه وتبيينه للناس «وانزلنا اليك الذكر انبين للناس ما نزل اليهم» (النحل : ٤٤) أما الفكر الإسلامي فهو فكر انساني يخطيء ويصيب ويعتريه التطور والتغيير . وقد فتح الإسلام أمام المسلمين طريق الاجتهاد في الأحكام الفرعية ، وقرر أن المجتهد إذا اجتهد وأخطأ فله أجر واحد وإذا أصاب فله أجران ، وذلك تشجيعاً على الاجتهاد والبحث عن الحلول لكل ما يجد في المجتمع الإسلامي من مشكلات .

(٢٩) السير ولیم موير (١٨١٩ - ١٩٠٥) مستشرق اسكتلندي ، عمل في الهند ثم اختير رئيساً لجامعة أدنبره . ومن مؤلفاته : (حياة محمد Life of Mohamet) في أربعة أجزاء ، وقد صدر في لندن من ١٨٥٨ حتى ١٨٦١ . وله أيضاً حوليات الخلافة ، ومصادر الإسلام ، ودولة المالك في مصر .

كان ضحية للشيطان (٣٠) . وعلى الرغم من أن موير كانت تنقصه المسادة الضرورية لمسيرة حقيقية فان كتابه يتضمن مع ذلك سلسلة من الأبحاث النقدية التي لها قيمة باقية .

١٠ - اشبرنجر (Sprenger) :

اما كتاب (اشبرنجر) (٣١) « حياة محمد وتعاليمه » فانه يبرهن من عنوانه على أن المؤلف لم يفرق تفرقة كافية بين دين محمد وبين الاسلام . وغالبا ما وجدت الخدمات الجليلة التي قام بها اشبرنجر ما تستحقه من تقدير . ولكن فيلهاوزن وحده هو الذي قدم لنا تقديرا نقديا حقيقيا لكتاب اشبرنجر (انظر : محمد في المدينة لفيلهاوزن ، برلين ١٨٨٢ ص ٢٠ وما بعدها) . وقد خلص اشبرنجر الى الاقتناع بان محمدا كان انسانا هستيريا (٣٢) . فلنترك جانبا ضعف الوقائع التي يستند اليها التشخيص

(٣٠) محمد صلى الله عليه وسلم ليس في حاجة الى مثل هذا التعاطف المردود على صاحبه . وقد سبق لثركي مكة أن زعموا أن محمدا به مس من الجن ، فلا جديد في زعم موير فهو ترديد لمزاعم قديمة في صورة أخرى .

(٣١) الويس اشبرنجر (١٨١٣ - ١٨٩٣) مستشرق نمساوي الأصل ، تجنس بالجنسية البريطانية عام ١٨٣٨ ، عمل في الهند ثم عمل أستاذا للغات الشرقية في جامعة برن بسويسرا . نشر الكثير من المخطوطات العربية . ومن مؤلفاته : أصول الطب العربي على عهد الخلفاء ، وحياة محمد في ثلاثة اجزاء . وقد صدر الجزء الأول في (الله آباد) عام ١٨٥١ بالانجليزية ، ثم صدرت الأجزاء الثلاثة بالألمانية في برلين من ١٨٦١ حتى ١٨٦٥ ، وأعيد طبعه عام ١٨٦٩ . ويعلق المستشرق الألماني المعاصر « رودى بارت » على كتاب اشبرنجر « حياة محمد » بأنه كتاب جاء مخيبا للآمال في أكثر من ناحية وانه لم يراع شروط ومتطلبات التفسير العلمي (انظر : الدراسات العربية والاسلامية في الجامعات الألمانية لبارت ، ترجمة مصطفى باهر ص ٢٣) .

(٣٢) سبق أن أشرنا في تعليق سابق الى زعم بعض المستشرقين بأن ظاهرة الوحي المتبني لم تكن الا نوبات من الصرع تعترية ، وينهج اشبرنجر هنا نفس المنهج حين يزعم أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان مصابا بالهستيريا . وأساس هذه المزاعم كلها يكمن في محاولة استبعاد القول بنبوته وانكار تلقيه الوحي من عند الله .

انه على كل حال سيتحتم على المرء ان يعترف بان القيمة الخاصة

وما دام هذا هو الموقف المبدئى لهذه المذاهب فلن يستطيع القائلون بهسا
نهم ظاهرة الوحي . ولو طبقتنا هذه المذاهب على جميع الانبياء والمرسلين
لابطلنا الاديان السماوية جميعا .

وهذا الموقف ليس امرا جديدا فقد سبق لمشركى مكة ان اتخذوا موقفا
مماثلا من محمد صلى الله عليه وسلم ، كما اتخذ المعاندون من اقوام
الانبياء السابقين مواقف مشابهة . والقرآن نفسه يخبرنا ان محمدا عليه
الصلاة والسلام والمرسلين من قبله قد وجهت اليهم تهمة الجنون من اقوامهم .
ومن ذلك قوله تعالى حكاية عنهم : « وقالوا يا ايها الذي نزل عليه الذكر انك
اجنون » (الحجر : ٦) وقوله : « كذلك ما اتى الذين من قبلهم من رسول
الا قالوا ساهر او مجنون » (الذاريات : ٥٢) ، وقوله : « ثم تولوا عنه
وقالوا معلم مجنون » (الدخان : ١٤) ، وقوله : « كذبت قبلهم قوم نوح
فكذبوا عبدا وقالوا مجنون وازنجر » (القمر : ٩) ، ولسنا هنا فى حاجة
الى مناقشة مستفيضة لاسطورة الصرع والهستيريا ، فكل من يعرف
اعراض هذين المرضين وما لهما من آثار فى شخصية المصاب باى منهما ،
ويعرف السيرة الصحيحة لمحمد صلى الله عليه وسلم يعرف حقا ان هذه
المذاهب لغو باطل وافتراء كاذب لا يستحق ان ياخذ المرء مأخذ الجد .

وقد اساء المستشرقون عن جهل او عن عمد نهم الظواهر التى كانت
تصاحب الوحي عند نزوله على النبى صلى الله عليه وسلم من انه — كما يقول
الرسول نفسه — كان ياتيه مثل صلصلة الجرس ، وكما تقول عائشة :
« رأيتُه ينزل عليه الوحي فى اليوم الشديد البرد فينصم عنه وان جبينه
ليتصد عرقا » كما روى ذلك البخارى فى صحيحه فى حديث مشهور .
ولو تأمل الباحث المصنف فى ان تلقى الوحي يعنى الانسلاخ عن حال
البشرية الى حال الملكية ، لعرف ان هذه الظواهر المصاحبة لنزول الوحي
ليست الا نتيجة لهذا الانسلاخ .

وقد كان الكتساب البيزنطيون ، ووجه خاص (ثيوفانس
Theophanes) ، هم أول من اذاع فى الغرب اسطورة الصرع .
(انظر ص ٥٢٢ من : (Handwoerterbuch des Islam) . فقد كانوا
هم المصدر الوحيد الذى تلقى منه الغرب معلوماته الأولى عن الاسلام ،
واليهم ترجع أغلب الاساطير التى شاعت فى الغرب حول محمد صلى الله
عليه وسلم فى العصور الوسطى . ويعتسف المستشرقون انفسهم بان
البيزنطيين كانوا مصدرا غير موثوق به فيما يتعلق بالاسلام ، كما يعرض
علينا ذلك بماتولر فى موضع آخر من هذا البحث) .

لمحمد يجب ان تتمثل في هذا الذي يختلف فيه عن الهستيريين الآخرين .
وليس في الحالة المرضية التي يشترك فيها معهم .

١١ - نولدكسه (Nöldeke) :

وأما كتاب (نولدكه) (٣٣) « تاريخ القرآن » فإنه يفى بكل متطلبات العلم . انه كتاب عظيم القيمة لكل الذين يدرسون الاسلام ، ولكنه بالنسبة لغير المستشرقين كتاب شاق الاستعمال . أما كتاب « حياة محمد » لنفس المؤلف فإنه كتاب شعبي ومختصر وهو يقينا أفضل كتاب من هذا النوع ، ولكنه لا يستوفى سيرة النبي .

● الكم والكيف :

ومنذ أن مهد كل من موير واشيرنجر ونولدكه الطريق الصحيح لم يظهر كتاب واحد له قيمة ابداعية عن حياة محمد . وهناك عدد كبير من المؤلفين الذين قاموا بنهب مؤلفات هؤلاء العلماء بدرجات متفاوتة في الفهم ، وعرضوها على الجمهور في صورة دراسات لا تحصى ، أما دون اي تغيير واما بإضافة شيء من عندهم . وهذا احيانا ما يكون أكثر سوءا . ويظهر المؤلفات المشار اليها نما عدد المواد المتوفرة لسيرة محمد . وقد أصبح من الميسور عن طريق الطباعة الاطلاع على نصوص عربية هامة بأعداد كبيرة . ومن مؤلفات العلماء الأوروبيين يكفي أن نذكر هنا بكتاب جولدمسيهر (٣٤) « دراسات محمدية » وكتاب فيلهاوزن (٣٥) « لمحات وأعمال أولية » .

(٣٣) تيودور نولدكه (١٨٢٦ - ١٩٣٠) مستشرق ألماني ، كان أستاذا للغات الشرقية في عدد من الجامعات الألمانية ، له إنتاج غزير في مجالات التحقيق والترجمة والأدب العربي واللغات السامية والدراسات الاسلامية . وقد صدر كتابه « حياة محمد » في هانوفر عام ١٨٦٣ .

(٣٤) اجناس جولدمسيهر (١٨٥٠ - ١٩٢١) مستشرق يهودي من أصل مجري ، يعد من كبار أئمة الدراسات الاسلامية في أوروبا . كان واسع الاطلاع غزير الانتاج بلغات مختلفة . وقد عرف ثراء العربية له كتابين هما : العقيدة والشريعة في الاسلام ، وتاريخ مذاهب التفسير الاسلامي .
(٣٥) نيلهاوزن (١٨٤٤ - ١٩١٨) مستشرق ألماني ، له دراسات

وكل من يشعر لسبب أو لآخر انه يتحتم عليه ان يكتب سيرة محمد من جديد لا يستطيع ان يقتصر اليوم على النظر الى الامور القديمة من زاوية جديدة ، وانما يجب عليه ان يضيف شيئا جديدا الى ما اتى به سابقوه .
والى هذا الحد كان العرض الذى قدمه سنوك هورجرونييه فى عام ١٨٩٤ .

* * *

١٢ - بيير مارتينو (Pierre Martino) :

يقدم لنا (بيير مارتينو) نظرة تاريخية على بدايات سيرة محمد فى فرنسا ، وذلك فى بحثه عن « محمد فى فرنسا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر » وهذا البحث مأخوذ من كتاب كبير للمؤلف بعنوان « الشرق فى الأدب الفرنسى فى القرنين السابع عشر والثامن عشر » الصادر فى باريس عام ١٩٠٦ .

وفى الفصل الاول من هذا البحث الذى جعل عنوانه « ما قبل القرن السابع عشر » يقدم مارتينو نظرة سريعة على رأى العصر الوسيط فى محمد ، مترسما فى ذلك خطى (دانكونا d' Ancona) و (ياسيه R. Basset) و (دوتيسه Douthe) (٢٦) وقد كان للحروب المريرة بين المسيحيين والمحمديين فى عصور الحروب الصليبية اثرها فى عدم ظهور نظرة موضوعية عن النبى واعماله . ففى الرواية التى كتبها (الكسندر دوبون A. du Pont) عن محمد (Roman de Mahomet) يظهر محمد بوصفه احد قطاع الطرق ، وقد أصابه من

اسلامية عديدة منها : السيادة العربية ، والخوارج والشيعة ، والدولة العربية وسقوطها من ظهور الاسلام حتى نهاية الدولة الاموية . وقد ترجعت هذه الكتب الثلاثة الى العربية وله أيضا محمد فى المدينة ، والنهيد للتاريخ الاسلامى فى سنة أجزاء ، ودستور المدينة أيام الفجر ، والأحزاب المعارضة فى الاسلام قديما دينا وسياسة ، وغير ذلك من دراسات (المستشرقون ٢ / ٢٨٦ وما بعدها) .

(٢٦) سياى الحديث فيما بعد عن كل من دانكونا وياسيه ودوتيه فى نهاية هذا البحث .

من الشيطان ويفهم بفعل كل نوع من انواع الافعال الدينية والتضليل (٣٧) .

اما كتاب (القانون لدى المسلمين Livre de la loi au Sarrasin) فانه يتضمن جميعا لأكثر خرافات المحمديين زراية . وحقيقة الأمر هي أن ما كان يعرفه المرء عن المسلمين كان شيئا قليلا مثل الوضوء وبعض الأشياء عن الصلاة وتعدد الزوجات . وقد كان ذلك تقريبا هو كل شيء . وقد كان هناك اعتقاد بأن محمدا قد أكلته الخنازير ذات يوم عندما كان مخمورا . وليس من العجيب إذن أن المحمديين لا يشربون الخمر ولا يأكلون لحم الخنزير ؛ ولكي يجعل المرء من النبي المزيف شخصية مكروهة تماما فقد عمدوا الى جعله بسذاجة بالغة مسيحيا سيئا ، أي زنديقا مارقا . أجل ، لقد جعلوا منه كاردينالا أسلم نفسه للشيطان ليأسه من أن يظفر بمنصب البابا ؛ وقد كان حكم العصر على شخصية محمد كلها هو الانغماس في المتع والخديعة (٣٨) .

(٣٧) سيأتى الحديث مرة أخرى عن هذه الرواية في موضع آخر من هذا البحث . ونود أن نشير هنا — كما سيذكر بفانمولدر فيما بعد — أن أساس هذه الرواية يتمثل في الأساطير التي روجها بعض الشعراء عن محمد ، والتي انتشرت في الغرب في العصر الوسيط . وهي أساطير من وحى الخيال ولا تعتمد على أية معرفة حقيقية بالاسلام ونبيه .

ويعترف بفانمولدر بأن ما كان يعرفه الناس عن المسلمين حينذاك لم يكن يمدى أمورا نادرة مثل الوضوء وشيئا عن الصلاة وتعدد الزوجات ؛ فلا عجب أن جعلوا من محمد صلى الله عليه وسلم « كاردينالا » كان يطمع في منصب البابوية ثم انشق على الكنيسة لعدم حصوله على هذا المنصب ، وراح خيالهم المريض ينسج قصة شريفة حول وفاته صلى الله عليه وسلم .

ولعل القارئ كان ينتظر منا أن نحذف مثل هذه الأباطيل ، ولكننا نحيل القارئ الكريم الى ما كتبناه عن ذلك في مقدمة هذا البحث . ومن ناحية أخرى لا بد لنا من التعرف على أسلوب تفكير الغرب نحونا في تلك العصور الوسطى التي كانت تعد بحق عصورا مظلمة (The Dark Ages) باعتبار الغرب نفسه ، في الوقت الذي كانت فيه لدى المسلمين حينذاك حضارة مزدهرة وفكر راق وعلم متقدم ، فعمل في ذلك عبرة لمن يريد ان يعتبر .

(٣٨) انظر الهامش السابق .

أما الفصل الثاني (من بحث مارتيانو) الذى يحمل عنوان « الدراسات الاسلامية الأولى » فإنه يتناول بالبحث أولا كتاب ميشيل بوديه « تاريخ ديانة الأتراك ومولد وحياة ووفاء نبيهم المزيف محمد » (٣٩) الصادر فى (باريس) عام ١٦٢٥ (وقد أعيد طبعه عام ١٦٣٢ ، وعام ١٧٤١) وقد كان بوديه أول من قام بتأليف سيرة لمحمد بالفرنسية .

ثم تناول مارتيانو بعد ذلك ترجمة (دوريه Du Ryer) (٤٠) للقرآن .

أما الفصل الثالث الذى جاء بعنوان « التأثير الكبير لمحاربة الكاثوليكية للإسلام » فإنه يصف المحاربة والنقض المنظمين لمحمد من جانب كل من بسكال (٤١) وماراتشى وبريدو .

(٣٩) لقد كان بوديه يهدف بكتابه — كما يقول هو نفسه — الى « الكشف عن أباطيل ورتائل نبي الأتراك ، والكشف عن تضليله وتقامه طائفته ووحشية تعاليمه المضحكة » .

فهل يمكن أن ينتظر أحد بعد ذلك أن يقول بوديه كلمة حق فى محمد ؟ لقد كان كاثوليكيا متعصبا يستقى معلوماته — كما يقول بفانمولر — من المصادر الكنسية دون أدنى فحص أو تحييص . وقد ساعد كتابه على حجب حقيقة الإسلام وحقيقة نبيه عن الأوروبيين طوال القرن السابع عشر (انظر بفانمولر ص ١٦٨) .

(٤٠) تعد ترجمة دوريه للقرآن التى ظهرت عام ١٦٤٧ أول ترجمة فرنسية للقرآن . وقد عمل دوريه مدة طويلة قنصلا لبلاده فى مصر ، وهناك تعلم العربية ، وقد طبعت هذه الترجمة مرات عديدة على مدى تسرن ونصف ، وأقبل الناس على قراءتها اثباتا كبيرا . ولم يكن دوريه منصفاً للإسلام بأى حال من الأحوال . وقد ظلت ترجمته تمارس تأثيرها الى أن قام (سافارى Savary) بإنجاز ترجمة فرنسية أخرى للقرآن ظهرت عام ١٧٨٣ .

(٤١) (بليس بسكال Blaise Pascal) (١٦٢٢ — ١٦٦٢) هو الفيلسوف الفرنسى المعروف ، وقد صدر كتابه : خواطر حول الدين (Pensées sur la religion) فى باريس عام ١٦٧٠ . وقد كان بسكال يرى فى محيد العدو اللئيم للكنيسة ، ولهذا كان حريصا كل الحرص على محاربتة ، ففى كتابه السابق يتناول محمدا صلى الله عليه وسلم فى نسج

أما زرد الاعتبار لمحمد - كما يتناول ذلك الفصل الرابع الذي يحمل عنوان « رد الفعل البروتستانتي والفكر الحر » - فقد كان عملا من أعمال القرن الثامن عشر . فبعد العمل الذي قام به كل من هوتنجر و (موني Moni) قاد كل من رسلاند وجانييه الدعوة إلى نظرة أكثر موضوعية لشخص محمد وأعماله لدرجة أن الكونت بولانفلييه رأى في محمد شخصية عبقرية ومشرعا وفاتحا عظيما .

وقد خصص المؤلف الفصل الخامس لموضوع « محمد في الأعمال المسرحية » وهنا يركز مارتينو على كل من ليساج (٤٢) وفولتير .

وفي الفصل السادس الذي جاء بعنوان : « محمد والموسوعيون » يعرض مارتينو عمل فولتير « مقال عن العادات » وأعمال الموسوعيين . ويختتم مارتينو هذا البحث الهام بالحديث عن ترجمة سافاري للقرآن . ويأتي بعد ذلك ملحقان هما :

١ - المؤلفات الفرنسية الأساسية للقرنين السابع عشر والثامن عشر فيما يتصل بالاسلام .

شذرات من بين الشذرات التي يضمها هذا الكتاب ، ويعتمد في أحدها مقارنة بين محمد والمسيح يقول فيها : أن محمدا لم يجر التنبؤ بظهوره في العهد القديم في حين جرى التنبؤ بظهور المسيح ، ومحمد كان يقترب القتل في حين كان المسيح يدع أتباعه يقتلون ، ومحمد كان يحرم القراءة في حين كان الحواريون يأمرون بالقراءة ، ومحمد صادف نجاحا دنيويا في حين كان المسيح مغلوبا على أمره وانتهى به الأمر إلى الصلب . . . الخ . . . وكان بسكال يفتقد لدى محمد عدم اتيانه بالمعجزات ، كما أن تعاليمه لم تشتمل على أسرار (كما هو الشأن في المسيحية) ، وينكر بسكال على محمد الأخلاق « السيئة » التي أتى بها ، كما ينكر عليه تصوراته الخسسية للجنة ، ويقول أنه لم يجد في هذا الدين سببا يحمله على قبوله لأنه دين ليس فيه أي إشارة من إمارات الحقيقة . (راجع يفانبولر ص ١٤٩) . هذا هو بسكال الفيلسوف . والفلسفة تعنى البحث عن الحقيقة ، وتعنى التجرد التام والنزاهة الموضوعية ، وترفض التقليد وقبول الأحكام المسبقة . ولكن بسكال كان في موقفه من الاسلام ونبيه يفتقد كل هذه الصفات ، وبرهن على جهل فاضح وراح يتبنى الآراء الكاذبة السائدة حينذاك حول الاسلام ونبيه شأنه في ذلك شأن رجل الشارع ، فأساء لنفسه والفلسفة والحقيقة بصفة عامة .

(٤٢) ألان رينيه ليساج (١٦٦٨ - ١٧٤٧) أديب فرنسي .

٢ - ترجمات القرآن في القرنين السابع عشر والثامن عشر .

١٣ - مينيسور (Minor) :

اما مينور فانه يقدم لنا في الفصل الأول من بحثه « محمد لدى جوته » (٤٣) نظرة على تاريخ ما قبل محمد ، ويمس باختصار آراء العصر الوسيط في محمد ، ويعرض علينا أولا سلسلة من « خليط لا ترابط فيه » عن تركيا والأتراك ، يتضمن أشد الأخبار خرافة عن محمد وقرآنه مما هو منتشر على نطاق واسع . وقد استطاع جوته في القرن الثامن عشر أن يطلع على آراء القرنين السابقين (في محمد) في تاريخ الأحداث لـ (جوتفريد Gottfried) وفي المقالة المطولة في قاموس بايل .

وبعد ذلك يعرض علينا مينور تاريخ ترجمات القرآن وتاريخ طبعاته . وفي حين أن الكنيسة الكاثوليكية قد أمرت بحرق نسخ طبعة القرآن التي صدرت في البندقية عام ١٥٣٠ ، وهي حين أن البابا الكسندر السابع (١٦٥٥ - ١٦٦٧) قد منع طبع القرآن ، كما منع أيضا ترجمته ، فإن مضمون القرآن قد أصبح سهل المنال عن طريق الترجمة من الجانب البروتستانتي ، ولكن مع اضافة نقض مفصل للقرآن من وجهة النظر المسيحية . وقد أعاد (بيلياندر Bibliander) - خليفة (تسفنجلي Zwingli) (٤٤) نشر الترجمة اللاتينية الأولى للقرآن التي أنجزت عام ١١٤٣ م بايعاز من الأب بطرس الكلوني ، وذلك بعد أربعمئة عام من صدورها ، وأضاف إليها عديدا من الردود المفندة .

وقد توالفت بعد ذلك الترجمات التي قام بها كل من (شفياجر Schweigger) (٤٥) و (دوريه du Ryer) و (يوهان لانجسه Lange) و (نريتر Nerreter) و (ماراتشي Marracci) .

- (٤٣) نُشر مينور هذا البحث في بينا بألمانيا عام ١٩٠٧ .
(٤٤) أولريش تسفنجلي (١٤٨٤ - ١٥٣١) قطب الإصلاح الديني في سويسرا ، سقط قتيلًا في الصراع ضد الكاثوليك .
(٤٥) قام سالون شفياجر باتجاز هذه الترجمة إلى الألمانية عن ترجمة ايطالية معتمدة أساسا على النص العربي . وقد ظهرت ترجمة شفياجر للقرآن في ثلاثة أجزاء في مدينة تورينج عام ١٦١٦ و عام ١٦٢٣ .

وقد حدث تحول في الحكم على محمد عن طريق العلماء البروتستانت ، وبوجه خاص عن طريق ريلاند . وقد أخذ جانبيه موقفا وسطا بين الاتجاه اللاعن الذي تبناه كل من ماراتشي وبريدو من ناحية ، والاتجاه المجد لمحمد والذي يمثله يولانفلييه من ناحية أخرى . وقد قص علينا جانبيه حياة محمد بكل ما فيها من معجزات وأساطير باذلا قصارى جهده في استخدام مصادر جيدة ، وغالبا ما كان يقتبس منها حرفيا . وبعد ذلك بعامين (أي عام ١٧٣٤) ظهرت في إنجلترا ترجمة انجليزية للقرآن قام بها سيل ، وقد حظيت هذه الترجمة بتقدير فائق وسمعة طيبة في القرن الثامن عشر .

وبعد ذلك يعرض علينا مينور بالتفصيل صورة محمد في عصر التنوير : ويصادفنا هنا في عرضه أسماء كل من نيبنتز وليسنج وفولفبوتلر المجهول (Wolfenbuettler) وهاجيدورن وجاليم ونوربين ، وبصفة خاصة فولتير « بطل عصر التنوير » . وهناك أيضا ترجمتان ألمانيتان للقرآن قام بترجمتهما من الأصل العربي مباشرة كل من (ميجرلين Megerlin) (٤٦) و (بويزن Boysen) (٤٧) وقد لقيتا حقهما من التقدير . ويختتم مينور الفصل الخاص بما قبل التاريخ بالحديث عن (جيبون Gibbon) وهردر ، و (اولزير Oelsner) .

وبعد ذلك يتناول مينور بالتفصيل في الفصل الثاني شسذرات فرانكفورت لجوته . وفي الفصل الثالث يتناول رواية فولتير الدرامية عن محمد . وفي الفصل الرابع يتحدث عن الخطة في « الشعر والحقيقة » لبيوته . تم يتناول أخيرا في الفصل الخامس الفترة الشرقية الغربية . وهناك هوامش مفصلة تقدم اشارات بليوجرافية قيمة بالاضافة الى ملحق يتضمن النصوص المتعلقة بمحمد من مؤلفات جوته (٤٨) .

(٤٦) ظهرت هذه الترجمة في فرانكفورت عام ١٧٧٢ .

(٤٧) ظهرت ترجمة بويزن للقرآن في هاله بألمانيا عام ١٧٧٣ وأعيد طبعها عام ١٧٧٥ .

(٤٨) جوته (Goethe) (١٧٤٩ — ١٨٣٢) هو أعظم الشعراء الألمان على الإطلاق ، وقد كان منصفا للشرق والاسلام ونبيه .

١٤ - فولفسل (Adolf Wohlwill) .

أما أدولف فولفل فقد قام على نحو موفق بتكملة العرض الذي قدمه مينور ، وذلك في بحثه المفصل « ألمانيا والاسلام وتركيا » (٤٩) .

وفي فصل تمهيدي يتناول باختصار العلاقات السياسية بين تركيا والغرب عبر القرون ، وبعد ذلك يصف لنا (في فصل آخر) الخطر التركي كما يصوره الشعر الألماني والدراما بصفة خاصة ، وذلك من القرن الخامس عشر حتى القرن السابع عشر . وفي الفصل الثالث يتناول انخفاض درجة العداء ضد الاسلام بتأثير عصر التنوير والمصالح السياسية . وهنا يتناول فولفل النشرة العربية للقرآن التي قام بانجازها (هينكلمان Hinckelmann) (٥٠) ، كما يتناول أيضا الترجمات الألمانية الاولى

قرأ القرآن بأسمان في ترجمتين احدهما لاتينية والأخرى ألمانية ، واقتبس منه الكثير ، ويظهر تأثيره بالقرآن بوجه خاص في الديوان الذي أسماه « الديوان الشرقي الغربي » . ومن بين ما نقرؤه له في هذا الديوان قوله : « لله المشرق ولله المغرب ، وفي راحته الشمال والجنوب جميعا . هو الحق ، وما يشاء بعباده فهو الحق سبحانه له الأسماء الحسنى وتبارك اسمه الحق ، وتعالى علوا كبيرا » .

وفي بعض أشعار الحكمة من ديوانه يقول عن الاسلام : « من حياة الإنسان في دنياه أن يتعصب كل منا لما يراه ، وإذا الاسلام كان معنساه التسليم لله فأننا أجمعين ، نحيا ونهوت مسلمين » .

وقد وضع جوته مشروع تمثيلية عن محمد تدل على إعجابه وتقديره لنبي الاسلام ، مما يدل على سعة أفقه وسمو فكره ونزاهة حكمه ، وترفعه عن التعصب الشعبي والديني . (انظر مزيدا من التفصيل عن ذلك في كتاب : « الشرق والاسلام في أدب جوته » للأستاذ عبد الرحمن صدقي ص ١٤ وما بعدها من سلسلة المكتبة الثقافية رقم ١٠) .

(٤٩) نشر هذا البحث في العدد رقم ٢٢ من مجلة (إيغريون

(Euphorion) عام ١٩١٥ ص ١ - ٢١ ، وص ٢٢٥ - ٢٦٧ .

(٥٠) كان القس أبراهام هنكلمان من هامبورج هو أول من تجرأ على نشر النص القرآني بالعربية عام ١٦٩٤ وذلك بعد احراق أول طبعة عربية كاملة للقرآن في أوروبا عام ١٥٣٠ في البندقية بأمر البابا ، وبعد الحظر الذي قرره البابا الكسندر السابع (١٦٥٥ - ١٦٦٧) والذي كان يقضى بعدم نشر أو ترجمة القرآن .

للقرآن ، ويبين كيف ان العداء ضد الاسلام قد أخذ يضعف بالتدريج ويحل محله - فى تزايد مستمر - حسن النية لدى مؤلفى عصر التنوير (هادريان ريلاند ، ليبنتز ، ليسنج ، رايماروس) .

وفى الفصلين التاليين لذلك يقدم فولفل عرضا مختصرا لتاريخ الاسلام فى مرآة العلم والشعر اثناء عصر الكلاسيكيين لدينا ، واثناء النصف الاول من القرن التاسع عشر . وهنا يقوم اولاً - بناء على دراسات متخصصة - بتقدير نشاط المستشرق (دافيد فريدريش ميگرلين D. F. Megerlin) الفورتمبرجى (نسبة الى مقاطعة (Wuerttemberg) بألمانيا) الذى يرجع اليه الفضل فى القيام بانجاز اول ترجمة المانية للقرآن على اساس النص العربى . وبعد ذلك يصف لنا فولفل موقف شعرائنا الكبار - هرذر ، وجوته ، وفيلاند ، وشيلر - من الاسلام ومن مؤسسه .

وبالإضافة الى ذلك يتحدث فولفل عن النشاط التأليفى لكل من اولزغر و (هامر بورجشتال Hammer - Purgstall) (٥١) . وقد كان لهذا الأخير عن طريق تأثيره على جوته فضل لا ينمى . وقد حظيت بالتقدير ، بجانب « الديوان الشرقى الغربى » لجوته ، الأعمال الشعرية المتعلقة بالشرق لشعراء من بينهم (روكرت Rueckert) (٥٢) و (بلاتين

(٥١) جوزيف فون هامر - بورجشتال (١٧٧٤ - ١٨٥٦) مستشرق نمساوى ، طوف فى مصر وفلسطين وسوريا ولبنان وأيران وتركيا ، وأنشأ فى فيينا مجمع العلوم ، وكان يحسن الكتابة بعشر لغات . له دراسات وافرة ولا سيما فى تاريخ الشرق وآدابه وتاريخ الاسلام ، وقد حثق الكثير من النصوص العربية ونشرها وترجم بعضها الى الألمانية أو الإنجليزية أو الفرنسية . أصدر فى فيينا اول مجلة استشرافية متخصصة فى أوروبا هى مجلة (بناييع الشرق) التى صدرت من عام ١٨٠٩ حتى عام ١٨١٨ . وأهم مصنفاته : تاريخ الدولة العثمانية فى عشرة مجلدات بالألمانية ثم ترجم الى الفرنسية ، وتاريخ الآداب العربية فى سبعة مجلدات . (المستشرقون ٢ / ٢٧٤ وما بعدها) .

(٥٢) فريدريش روكرت (١٧٨٨ - ١٨٦٦) شاعر ألماني ، اهتم بالأدب العربى وعمل استاذاً للغات الشرقية فى أرنجن وبرلين . له دراسات حول مقامات الحريري ، وطرفة بن العبد ، وعمرو بن كلثوم ، وامرئ القيس ، وديوان الحماسة لأبى تمام ، وقصيدة البردة لكعب بن زهير ، وقد ترجم الى الألمانية كثيراً من هذه الآثار الأدبية .

(Platen) (٥٣) ، وكذلك النشاط العلمى لكل من هامر بورجشتال ،
(جورج فريدريش داومر Daumer) وعدد من المستشرقين الألمان .
أما الفصل السادس فقد خصصه فولفل لرواد العلاقات الجديدة بين
المانيا وتركيا من أمثال (مولتسكه Moltke) و (كريستيان
فريدريش فورم Wurm) و (فريدريش ليست List) (٥٤) .
أما الفصل الختامى فانه يقدم نظرة سريعة على السياسة الألمانية والشعوب
الاسلامية فى بداية القرن العشرين .



١٥ - هاز (Haas) :

ان ما اخذه هاز على عاتقه لم يكن هو عرض الصورة الحمسية
لمحمد عبر تحولات العصور (٥٥) - فالعرض التصويرى للانسان كان محرما
بالنسبة للمحمديين - وانما اخذ على عاتقه رسم الصورة الروحية للرجل
كما صورت فى رؤوس الناس على مدى العصور . وذلك لان أفضل سبيل
... فى رأى المؤلف ... لتكوين حكم على محمد يتمثل فى استحضار الاحكام
الاساسية التى ذاعت خلال تحولات العصور وعبر القرون عن هذا الرجل
ذى الأهمية التاريخية .

وفى البداية يصف هاز مدى تباين الحكم على محمد من جانب
معاصريه ومواطنيه الذين كان يعيش بينهم (٥٦) . ويعد ذلك يتحول هاز
الى الحديث عن الآراء التى تكونت عن محمد خارج العالم الاسلامى .

(٥٣) بلاتين (١٧٩٦ - ١٨٣٥) شاعر ألماني .

(٥٤) فريدريش ليست (١٧٨٩ - ١٨٤٦) من علماء الاقتصاد
الألمان .

(٥٥) نشر هانز هاز بحثه عن محمد بعنوان « صورة محمد عبر
العصور » فى مجلة التبشير وعلم الأديان . العدد رقم ٣١ عام ١٩١٦ .

(٥٦) من المعروف ان هذا التباين فى الحكم على محمد من جانب
معاصريه ومواطنيه لم يظهر الا بعد بعثته ودعوته الى دين الله وتبذ عبادة
الأصنام . أما قبل البعثة فقد كان هناك اجماع على تقديره ، وشاع حينذاك
وصفه بالصادق الأمين .

وعلى رأس التفصيلات الى اوردها « هاز » نجد تقديرا لدراما فولتير « التعصب او محمد النبى » ولحة - عن انتصارات الاسلام على العالم المسيحى .

وبعد ذلك يقدم لنا هاز لمحة تاريخية مختصرة عن الجدل المسيحى ضد محمد وضد القرآن بدءاً من يوحنا الدمشقى (٥٧) حتى نهاية القرن السابع عشر . وفى اثناء العصر الوسيط كله ، وكذلك فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، كان الحكم على محمد حكماً سيئاً الى ابعد الحدود . اذ يوصف بأنه دجال ونبى مزيف ومؤسس طائفة (٥٨) وتجسيد لشتى الوان الرذائل والمنكرات .

أما رد الاعتبار لمحمد فقد جاء أولاً من جانب مؤلفين بروتستانت ، وبصفة خاصة من جانب كل من هوتنجر ، وريلاندى ، وسيل . وقد كان عصر التنوير والغليان على وجه الخصوص يولى شخصية محمد اهتماماً كبيراً . وهنا يعرض « هاز » تصورات كل من فولتير وبابيل وجيبون وليبنتز وليسنج وفولفتوتلر المجهول وهردر وغيرهم ، ويسهب بصفة خاصة فى عرض تصورات جوته عن النبى العظيم .

وأخيراً جاء القرن التاسع عشر يعرض تاريخى نقدى لحياة النبى العربى وأعماله . وقد وضع حجر الأساس فى هذا السبيل « فايل » بكتابه عن سيرة محمد . وقد تبع ذلك فى الستينيات من القرن الماضى المؤلفات الكبيرة عن محمد لكل من موير واشبرنجر ونولدكه ، وقد سار على دربهم كل المتأخرين من أمثال كريل وأوجست موللر .

وفى نهاية البحث يقدم « هاز » عرضاً قصيراً لأهم المؤلفات الحديثة عن محمد والاسلام . والأمر الذى له أيضاً قيمة خاصة هو تلك الاقتباسات المطولة من المؤلفين المعنيين الذين ظهروا على وجه الخصوص ابتداء من القرن الثامن عشر بأعداد كبيرة .

* * *

(٥٧) يوحنا الدمشقى (٦٧٦ - ٧٤٩ م) عالم مسيحى عاش فى ظل الدولة الأموية وخدم فى القصر الأموى ، ومن بين مصنفاته كتاب « محاوراة مع مسلم » ، وكتاب « ارشادات النصرانى فى جدل المسلمين » .
(انظر كتابنا : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى ص ١٩) .

(٥٨) يعنى مؤسس طائفة منشئة على المسيحية .

يبحث (تور أندريه) (٥٩) - على أساس من اطلاعه الواسع على المراجع الكثيرة - التصورات المتعلقة بشخص محمد في تعاليم طائفة المسلمين وعقيدتهم منذ البدايات الأولى حتى تكوين التقديس للنبي . وفي مقدمة دقيقة للغاية يناول أندريه مسألة المكانة التي طالب بها محمد نفسه لشخصه في النسق الديني . فمن ناحية كان محمد يحس بأنه ليس إلا مبلغاً للوحي الالهي الثابت المكتوب ومن أجل ذلك وضع شخصه في الخلفية على نحو يتسم بالخضوع .

ولكن التغيير غير المتوقع لظروفه الخارجية - وبصفة خاصة انتصاره في بدر - كان له تأثير قوى على وعى النبي بامطفائه . وأخيراً أصبح الوحي الذي كان يظهر في البداية بوصفه تأثيراً من جهة عليا فوق الشخص دون أن يكون ذا صلة واعية بحياة النبي النفسية - أصبح بالتدريج يأتيه أيضاً مرتبطاً بوعى عادي ، وهذا الارتباط جعل الوحي أخيراً واقعاً إلى حد ما تحت مراقبة نفسية . وهكذا وصل الأمر بالنبي بالتدريج إلى الحد الذي جعله يعتبر ما يبدو له من أفكار وقرارات على أنها وحي الله ، ويتحدث عن الله ورسوله حديثاً يكاد يجعلهما في مكانة واحدة (٦٠) .

(٥٩) تور أندريه (١٨٨٥ - ١٩٤٧) مستشرق سويدي ، عمل أستاذاً للعلوم الدينية في جامعتي استوكهلم وأوبساله - ومن مؤلفاته : بحوث في الكنائس النسطورية في البصرة واليمن وأثرها في الإسلام . ولسه دراسات حول : القصص في الإسلام ، والصوفية ، والنصرانية والإسلام ، والإسلام عقيدة ووحى ، ومن هو محمد ؟

أما كتابه عن سيرة الرسول (شخص محمد في تعاليم وعقيدة أتباعه) فقد كان رسالته للدكتوراه التي تقدم بها إلى جامعة استوكهلم عام ١٩١٧ . وقد ترجم هذا الكتاب إلى الإيطالية والإنجليزية والألمانية ، وهو الكتاب الذي يتحدث عنه بنامولر هنا . (المستشرقون ٣ / ٣٣ ، بنامولر ١١٣) .

(٦٠) لقد بدأ وعى محمد بامطفائه مع بداية بعثته والا لما استطاع أن يصمد هذا السمود العجيب مدة ثلاثة عشر عاماً في مكة يدعو فيها إلى دين الله . ومن منطلق وعيه ألتام بامطفائه ويأمن ما جاء به هو الحق كانت قولته الشهيرة لعمره أبي طالب : « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » .

وقد بدأ محمد أيضا متسامحا الى درجة معينة ازاء ما كان يقدمه له اصحابه من الاحترام أو التقديس الخرافى الذى كان يقدم فى العصور القديمة للرجل القديس . وكنتيجة اخيرة للتطور الذى وصل اليه الوعى النبوى لدى محمد بتأثير من انتصاراته العظيمة نجد الاقتناع لديه بأن رسالته جاءت عامة للعالم كله ، وان دينه قد قدر له ان يحقق النصر على

وهكذا نرى أن هذا الوعى بالاصطفاء لم يكن — أو لم يزيد — نتيجة ظروف خارجية « غير متوقعة » ، فقد كان واضحا جليا منذ اللحظة التى أمره الله فيها أن يصدع بدعوته ويعلن على الناس رسالته ، فخرج اليهم قبل انتصار بدر بائتى عشر عاما يقول لهم : « انا رسول الله اليكم خاصة والناس كافة » .

وعلى الرغم من هذا الوعى القوى بالاصطفاء ، فإنه قد ظل حتى آخر لحظة يشعر بأنه ليس الا مبلغا رسالة ربه . ، وقد ورد تأكيد هذا المعنى فى القرآن فى اثني عشر موضعا على الأقل نصفا مدنى والنصف الآخر مكى . وقد كان الوعى منذ البداية مرتبطا بعلاقة واعية متيقظة بحياة النبى النفسية فقد روى البخارى فى صحيحه عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل : كيف يأتيك الوعى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده على فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعنى ما يقول » .

أما القول بأن الأمر قد وصل بالنبى الى اعتبار أن ما كان يبدو له من أفكار وقرارات وحيا من عند الله فهذا يعنى اتهام محمد بالكذب على الله إذ ينسب اليه ما لم يقله . وهذا كلام مردود لا يستد له من الواقع . فنحمد صلى الله عليه وسلم كان قبل البعثة وبمعداها هو الصادق الأمين الذى لم يجرب عليه أحد كذبا قط ، وكان قمة التعم فى السلوك الفاضل الذى استحق به أن يمدحه الله فى قوله : « **وانك لعلى خلق عظيم** » (القلم : ٤) .

أما أن محمدا كان يتحدث عن الله ورسوله حديثا يكاد يجعلها فى مكانة واحدة فلعل (اندريه) يعنى هنا ما ورد فى القرآن الكريم من مثل قوله تعالى : « **من يطع الرسول فقد اطاع الله** » (النساء : ٨٠) ، وقوله : « **اطيعوا الله ورسوله** » (الأنفال : ٢٠) ، وقوله : « **قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحبكم الله** » (آل عمران : ٣١) ، وأمثال هذه الآيات كثير . ولكن المتكلم هنا هو الله لا محمد ، والله أيضا هو الذى كان يعاتب نبيه عندما كان يتخذ قرارا لا يكون هو القرار الأولى ، كما عاتبه فى عبد الله بن أم مكتوم وفى فداء الأسرى .

كل الديانات الأخرى . وأنه هو نفسه « خاتم النبيين » ، وأفضل الأنبياء وآخرهم ، وأنه كان مقصد تطور النبوة كله في حقيقة الأمر . وعلى هذا النحو كان في وسع التقديس الذي نشأ فيما بعد للنبي أن يجد في الواقع أيضا نقاط ارتباط معينة في الشهادات الذاتية لمحمد (٦١) .

(٦١) لم يطلب محمد صلى الله عليه وسلم لنفسه مكانة معينة . ولم يتقبل أن يقدم لسه أحد تقديسا أو احتراما خرافيا أو غير خرافي . فقد كان — على العكس من ذلك — يرفض مثل عسدا اللون من التقديس . وفي ذلك يقول عليه الصلاة والسلام : « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، فإنما أنا عبده فقولوا عبد الله ورسوله » — رواه البخاري — ، وقد روى ابن ماجه عن ابن مسعود قال : أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل فكلمه فجعل ترعد فرائضه فقال له : « هون عليك فإني لست بملك ، إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد » .

والقرآن يؤكد في العديد من آياته على بشرية الرسول . ومن ذلك قوله تعالى : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما الوحي اله إله واحد » (الكهف : ١١٠ ، وفصلت : ٦) ، وقوله : « قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا » ؟ (الإسراء : ٩٣) .

أما اقتناع محمد بعموم رسالته لكل البشر فلم يكن ذلك نتيجة لانتصارات معينة ، بل كان ذلك الاقتناع من أول يوم صدع فيه بالدعوة حين خرج على الناس يقول لهم : « أما رسول الله اليكم خاصة وإلى الناس كافة » — وعموم رسالته يعنى ختم النبوة ، فمن المعروف أن موسى عليه السلام قد أرسل إلى بني إسرائيل فقط ، وأن عيسى عليه السلام قد أرسل إلى « خرافة بني إسرائيل الضالة » . أما محمد صلى الله عليه وسلم فقد أرسل إلى الناس جميعا . وفي ذلك يقول — فيما يرويه البخاري ومسلم : « وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ويبعث إلى الناس كافة » . فليس هناك إذن مجال لرسالة أخرى بعد أن أكمل الله الدين ورضى الإسلام ديننا للعالمين : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » (المائدة : ٣) ، والدين عند الله بصيغة عامة هو الإسلام « أن الدين عند الله الإسلام » (آل عمران : ١٩) .

ولكن نسخ الإسلام للشرائع السابقة لم يجعل محدا يظل من شأن الأنبياء السابقين عليه فكلهم من نفس النبع اغتزلوا . وفي هذا الصدد يقول القرآن : « لا نفرق بين أحد من رسله » (البقرة : ٢٨٥) ، وقد روى البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا تخبروني على موسى » .

وفى الفصل الأول يصف أندريه نشأة « اسطورة النبي » وكيف كانت بصفة خاصة عملا من اعمال القصاص ، وهم أولئك الذين احترفوا مهنة حكاية الاساطير ، وتصادقنا آثار نشاطهم فى كتاب ابن اسحاق (٦٢) . فحياة محمد كلها يتم نسجها هكذا بالتدريج فى شبكة من المعجزات . ويبسط أندريه القول بوجه خاص فى قصة ميلاد محمد والمعراج ومعجزات الطعام والماء ومعجزة الشفاء وثق الصدر وانشقاق القمر . والمصدر الرئيسى لهذه المعجزات هو اساطير واقاصيص دوائر الحضارة الهلينية (٦٣) . وبعد مضى بعض الوقت (على اعمال القصاص) ظهرت مؤلفات حول معجزات محمد ، وقد حظيت هذه المؤلفات ايضا بعرض تفصيلى من جانب أندريه .

اما الفصل الثانى فانه يصف المحاولات التى قام بها العلم المختص بالعميقة لمناقشة هذه المعجزات التى استقرت فى عقيدة الشعب . وتشكل تعاليم عصمة النبي محتوى الفصل الثالث . وقد تزايد باستمرار تبرة شخص محمد من كل الاخطاء وتحرير افعاله من كل ما يمكن ان يكون

(٦٢) ابن اسحاق : هو أبو عبد الله محمد ، نوه على جمع الاحبار والقصص المتعلقة بحياة النبي صلى الله عليه وسلم ويظهر انه قام بتدوين سيرة النبي فى كتابين أولهما : « كتاب الهندى » أو « كتاب المبدأ ونقص الأبياء » ويتضمن تاريخ النبي حتى الهجرة ، وثانيهما هو كتاب « المغازى » وقد عرف ابن هشام كتاب المغازى عن طريق تلميذ مباشر لابن اسحاق هو زياد بن عبد الله الكوفى ، وقد جمع ابن هشام كتابى ابن اسحاق وهذبها كثيرا فى مواضع معينة واستخلص منها « كتاب سيرة رسول الله » وقد أخرج هذا الكتاب فى صورته الحالية فى القرن الرابع الهجرى الوزير المغربى ، وشرحه السهيلي المتوفى عام ٥٠٨ هـ . أما ابن اسحاق فقد توفى فى بغداد حوالى عام ١٥٠ من الهجرة . (راجع : دائرة المعارف الاسلامية) .

(٦٣) بروى الكتب المسيحية الأوروبية المأثمة عن حياة القديسين المسيحيين الرومانى من الأقباصيص والغرائب وخوارق العادات وعجائب الأمور التى حدثت على أيدي هؤلاء القديسين ، ويستكثر أندريه على محمد النبي أن تحدث له مثل هذه المعجزات ، ويسارع بردها الى الحضارة اليونانية اثنى منطى هذا ؟ وكيف وأين اتصل هؤلاء « القصاص » الذين بروى عنهم ابن اسحاق هذه المعجزات بالحضارة اليونانية ؟ .

مثارا للنقد (٦٤) . وفى الفصل الرابع الذى جاء بعنوان (شخص محمد
والسنة) يظهر محمد أيضا بوصفه المثل الأعلى لكل مجالات الحياة
الإخلاقية . وقد كان لصورته المثالية قوة تأثير عظيمة لدى الصوفية .
أما الفصل الخامس الذى يحمل عنوان (شخص النبى والتقوى)
فانه يصف المكانة التى يتمتع بها النبى بوصفه شفيعا او وسيطا بين
المذنبين من الناس والرب الرحيم ، وأخيرا يتناول الفصل الأخير موضوع
(نشأة تقديس النبى) وكيف تم تكوينه بصفة رئيسية عن طريق الصوفية
بتأثير شيعى . وقد تسرب أيضا مفهوم الوحي وكذلك تعاليم الوجود
السابق والعقل (اللوجوس) الى الاسلام السنى بالتدرج بتأثير شيعى .
ويعد محمد المنفذ الوحيد للقدرة الالهية . لجل ، أنه يعد فى النهاية
المثل الأعلى لكل المتصوفة الذين تربطهم بالنبى علاقة تقديس مفعم
بالحب (٦٥) .

(٦٤) ليس هناك محاولة مصطنعة من جانب علم الكلام لتبرئة
النبى عليه الصلاة والسلام من كل الأخطاء . فان من لوازم النبوة بالضرورة
وجوب الاعتقاد فى أمانة النبى فى تبليغ ما أمره الله بتبليغه ، وعصمته من
كل ما يشوه سيرته ، وهذه من الصفات التى يجب أن تتوفر فى كل الأنبياء .
وسيرة محمد صلى الله عليه وسلم خير شاهد على ذلك . ومن ناحية
أخرى فان الأنبياء يجرى عليهم ما يجرى على غيرهم من أفراد البشر من
الأمور التى لا تخل بمقام الرسالة ، فهم يأكلون ويشربون وينامون ويسهون
وينسون فيها لا علاقة له بتبليغ الأحكام ، وتمتد اليهم أيدى الظلمة وينالهم
الاضطهاد . وقد تكفل علم الكلام بتفصيل القول فى ذلك وفى غيره من
أمور الاعتقاد .

(٦٥) سبق أن أشرنا الى أن اجلال المسلمين للنبى صلى الله عليه
وسلم لا يخرجهم من اطار البشرية ، وهو اجلال يقف عند حدود ما رسمه
القرآن الكريم . أما التأثيرات الدخيلة التى يرى أندريه أنها تسربت الى
الاسلام بتأثير شيعى فنود هنا أن نؤكد أن الاسلام — بمصدره القرآن
والسنة الصحيحة — لا يتحمل تبعة أية اتهام تنحرف بتعاليمه خارج اطار
هذين المصدرين اللذين لم يمتزجا أو يتأثرا فى يوم من الأيام بأية تغيرات
دخيلة من أى نوع وفى أى شكل . وهذه ميزة نريدة يمتاز بها الاسلام
عما عداه من أديان سماوية اختلفت فيهما الدخيل بالأصيل لدرجة
الامتزاج التام .

ولست أدري ماذا يقصد أندريه بجعله مفهوم الوحي ضمن العناصر

وقد أغفل أندريه تماما الشعر المعاصر لمحمد والفترة المبكرة للإسلام .

التي دخلت الى الإسلام «السنى» بتأثير شيعى . بالمعروف أن مفهوم الوحي مفهوم قرآنى خالص يعرفه المسلمون قبل ظهور مفاهيم الشيعة والسنة وغيرها .

لما أن محمدا صلى الله عليه وسلم يعد المثل الأعلى للصوفية الذين تربطهم بالنبى علاقة مفعمة بالحب فنود أن نؤكد هنا أيضا أن النبى صلى الله عليه وسلم هو المثل الأعلى لكل المسلمين وليس للصوفية فقط . فالله سبحانه وتعالى قد جعله «أسوة حسنة» للجميع يترسمون خطاه ويسيروا على هديه «لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر» (الأحزاب : ٢١) وقد امتدحه الله فى قوله : «وانك لعلى خلق عظيم» (القلم : ٤) وأمر الله المسلمين جميعا بالصلاة عليه اقتداء بربهم وملائكته فى ذلك «أن الله وملائكته يصلون على النبى ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما» (الأحزاب : ٥٦) .

والمسلمون جميعا — وليس الصوفية فقط — تربطهم بتبنيهم علاقة حب عامر يجل عن الرصف . وينطلق هذا الحب من القرآن نفسه الذى ربط بين اتباع النبى ومحبة الله «ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحبكم الله» (آل عمران : ٣١) ، وقد جعل القرآن جميع ألوان الاهتمامات الدنيوية التى يمكن أن تكون محورا للحب فى كفة وحب الله ورسوله فى كفة أخرى . وفى ذلك يقول الله تعالى : «قل ان كان آباؤكم وإبنائكم وأخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين» (التوبة : ٢٤) .

وهذا الحب العامر يتمثل بصورة جليلة فى القصة التالية :

أسر المشركون زيد بن الدثنة وساقوه الى ساحة القتل ، وهناك سألته أبو سفيان — والرمح موجه الى بطن زيد ليفرس فى أحشائه — أنشدك بالله يا زيد ، أتحب أن محمدا الآن عندنا مكانك تضرب عنقه وأنت تسالم فى أهلك ؟ فأجابه زيد : «والله ما أحب أن محمدا صلى الله عليه وسلم الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه واتى جالس فى أهلى» . وهنا قال أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحسدا يحب أحدا كما يحب أصحاب محمد محمدا .

(القصة منقولة عن مقال لفضيلة الشيخ محمد القزالي بمجلة الدوحة مارس ١٩٨٤) .

ويشير (جوزيف هوروفيتس Josef Horowitz) (٦٦) فى هذا المجال فى مقالته التى تحدث فيها بأسهاب عن كتاب اندريه فى مجلة « الاسلام » (مجلد ١١ من عام ١٩٢١ ص ٢٧٧ - ٢٨٢) .

١٧ - شفالى (Schwally) :

وأخيرا يقدم لنا (شفالى) (٦٧) لمحة قصيرة عن البحوث المسيحية لحياة محمد فى المجلد الثانى من الطبعة التى قام بإعدادها من جديد لكتاب نولدكه « تاريخ القرآن » (ص ١٩٨ - ٢٠٨) وذلك تحت عنوان : « السير المسيحية للنبي » وطبقا للتحويل الذى طرا على الحكم على المأثورات العربية (قارن ص ١٩٣ - ١٩٨ : نقد المأثورات) يقسم شفالى المؤلفات الغربية عن حياة محمد الى ثلاث فترات (على النحو التالى) :

١ - السيادة المتصلة للتقاليد الموروثة حتى منتصف القرن التاسع عشر (شبرنجر) .

٢ - عصر بداية النقد لأجزاء منفردة من الموروثات .

٣ - عصر النقد المنهجي للموروثات جميعها .

أما الفترة الأولى فتمتد من العصر الوسيط كله حتى منتصف القرن التاسع عشر . وهنا يشير باختصار الى كل من هوتنجر وماراتشى وريلاندر ،

(٦٦) جوزيف هوروفيتس (١٨٧٤ - ١٩٢١) مستشرق ألماني ، كان أستاذا للعربية فى جامعة عليكرة بالهند ، ثم فى جامعة فراانكنورت بألمانيا . له دراسات عديدة فى الاسلام والأدب العربى ، نشر أو اشترك فى نشر العديد من المؤلفات العربية ، وترجم بعضها الى الانجليزية أو الألمانية .

(٦٧) فريدريك شفالى (١٨٦٣ - ١٩١٩) مستشرق ألماني ، تعلم على نولدكه . قام بنشر كتاب المحاسن والمساوىء للنبيهى فى ثلاثة مجلدات (جيبسن ١٩٠٢) وعنه طبع فى التساهرة ، اشترك فى نشر الطبقات لابن سعد . أعاد طبع « تاريخ القرآن » لنولدكه بعد تحقيقه والتعليق عليه فى مجلدين - ليبتزيج ١٩٠٩ - ١٩١٩ - (المستشرقون ٢ / ٤١٠) .

وبعد ذلك يتناول بتفصيل أكثر كلا من جانبيه وكوسا دي برسيفال وجوستاف
فايل. أما الفترة الثانية فيذكر منها الأسماء التالية : شبرنجر وموير ونولدكه
ودوزي وكرييل ورائكه وأوجست ميللر وجريمه وبول ومرجيليوت .
وأما الفترة الثالثة التي نعيش في بداياتها فينتهي إليها بصفة خاصة
الكتاب الضخم الذي قام بتأليفه (ليونى كيتانى Leone Caetani) (٦٨)

* * *

(٦٨) الأجر ليونى كيتانى (١٨٦٩ - ١٩٢٦) مستشرق ايطالى ،
كانت لديه ثروة طائلة أنفقها على العلم والرحلات واقتناء الكتب والمخطوطات
النفيسة ونشر مؤلفاته حتى أفلس في النهاية ومن مؤلفاته : دراسة التاريخ
الشرقى ، في عدة مجلدات (ميلانو ١٩١١ وما بعدها) وقد خصص منها
مجدا لسيرة الرسول . وله أيضا : حوليات الإسلام في حوالى ستة مجلدات
(ميلانو ١٩٠٥ - وما بعدها) . وقد أنفق على ثلاث بعثات لمناطق الفتح
لرسمها جغرافيا وطبوغرافيا ، وجمع المصادر من اللاتينية والسريانية
والعربية ، وتناولها بالتقد والتحليل لتحقيق أخبار المصادر العربية التي لم
تنشر بعد ، وتحديد ما يتبغى الرجوع اليه منها لمعرفة كل حادثة . وكان يعد
بالاشتراك مع جوزيبى جابريلى معجم الإسلام عن شخصيات العالم
الإسلامى الذى كان ينتظر أن يتبع في ٣٥ مجلدا ، ولكن الموت حال بينه وبين
اتمام هذا العمل فوقف عند الجزء الثانى منه ، انظر أيضا « المستشرقون »
٢٩/١ وما بعدها) .

اسطورة العصر الوسيط عن محمد

١ - كواريسميوس (Quaresmius) :

لقد كانت المحاولة الاولى لتناول اساطير العصر الوسيط عن محمد هي تلك التي قام بها (كواريسميوس) في صورة مختصرة (قارن ايضا دراسته حول مولد محمد وتطوره والعصر الذي عاش فيه :
(De ortu, progressu et tempore quo floruit Mahomet)

ولكن هذه المحاولة ظلت محاولة فردية تماما . وفي القرن التاسع عشر بدا المرء يوجه قدرا اكبر من الاهتمام للتصورات العديدة التي تكونت في العصر الوسيط عن محمد .

* * *

٢ - رينو (Reinaud) :

وقد صاغ رينو في نشرته لرواية محمد (Roman de Mahomet) (٦٩) المهمة المطروحة في هذا الصدد امام العلم في قوله : « انه لمن الامور ذات الفائدة ان تكون هناك قائمة دقيقة وكاملة عما كتب في صورة متتابعة حول موضوعات هامة من جانب مختلف الطوائف المسيحية . فبوسع المرء ان يلحظ في ذلك الاثر البطيء والحتمي لفعل العصور والاحداث والاماكن ، وبوسعه ان يلاحظ التأثيرات المختلفة التي تحدثها المعتقدات الخاصة والوضع الاخلاقي والسياسي والجوانب الحضارية المتقدمة او المتخلفة » .

وقد رسم رينو باختصار بعض خطوط هذه الصورة . وفي البداية يقدم لنا لمحة عن التصورات التي اتخذها المرء عن شخص محمد وحياته بدءا من العصر الوسيط حتى عصر بايل وجانييه وجيبون . وبعد ذلك يتناول المؤلفات العديدة للمجادلات التي جرت حول ديانة محمد في الشرق والغرب ، ويقدم لنا باختصار بعض الخصائص المميزة لبعض هذه المؤلفات .

* * *

(٦٩) صدرت هذه الطبعة في باريس عام ١٨٣١ ، والرواية في الاصل منسوبة الى الكسندر دو بون من القرن الثالث عشر الميلادي .

١١٣

(٨ - الاسلام في تصورات الغرب)

٣ - زيوليكي (Zirolecki) :

ونظرا لأن طبيعة « رواية محمد » لرينو وميشيل كانت قد نفذت فقد قام زيوليكي بنشرها من جديد (٧٠) وأضاف إليها مقالة بعنوان « بحوث حول أسطورة محمد في العصر الوسيط » .

* * *

٤ - ادلستان دو ميريل (Edéstand du Ménil) :

أما أساس « رواية محمد » لـ (الكسندر دو بون A. du pont) فإنه يتمثل في « الأساطير الشعرية عن محمد » (otia de Mahomete) لـ فالتيريوس (Waltherius) أو جوتيه الكومبيسي (٧١) . وقد نشرها أول مرة ادلستان دو ميريل في كتابه « الأشعار الشعبية اللاتينية في العصر الوسيط »

وقد أجمل الناشر في مقدمته لها بعض الخطوط المميزة لأسطورة محمد في الغرب والشرق . وقام (بروتس Prutz) بأخراج ونشر « أساطير محمد الشعرية » نفسها اعتمادا على مخطوطة أخرى وتناولها بإسهاب .

* * *

٥ - دي لينسي (Le Roux de Lincy) :

ويقدم لنا (ليرودى لنسى) (٧٢) بعض النماذج من أسطورة محمد في العصر الوسيط من أمثال ما ورد في تاريخ الأسقف (تريبين Turpin) (٧٣) ، و « المرأة التاريخية » من تأليف فينسنس

(٧٠) صدرت هذه الطبعة في أوبلن (Oppeln) عام ١٨٨٧ .

(٧١) نسخة إلى مدينة كومبين (Compiègne) الفرنسية .

(٧٢) صدر كتاب دي لنسى في باريس عام ١٨٢٦ بعنوان : كتاب

الأساطير .

(٧٣) صدر كتاب تريبين بالفرنسية حوالي عام ١٧٧٣ بعنوان : تاريخ

محمد مشرع العربية .

فون بوفيه ، وقصيدة الثعلب البغيض (Je Renard contrefait) والكتاب
الذى ألفه اليهودى المنصر الفونس المنتسب الى (اسپينا Spina) بعنوان
(Fortalitium Fidei)

٦ - جاساس (Gass) :

أما جاس (٧٤) فإنه يقدم لنا فى البداية لمحة قصيرة عن الجسد
المسيحى لكل من الغرب والشرق ضد محمد وضد تعاليمه ، هذا الجسد
الذى يرى أنه يشكل القسم الرئيسى الثانى لدفاع الكنيسة المسيحية الموجه
نحو الخارج .

وفى قسم ثان يصف التقاليد المسيحية فيما يتصل بحياة محمد
وشخصه ، نظرا لأن الكتاب المحدثين لسيرة محمد من أمثال جانييه وتربين
وأيضا فايل قد اعتمدوا فى الغالب على أبى الفداء (٧٥) وعلى مصادر شرقية
أخرى .

وبعد ذلك عرض فى القسم الثالث الى الخامس تعاليم محمد والاسلام
فى مقارنة متواصلة بالتعاليم المسيحية وبصفة خاصة ما يتصل بالله والمسيح
وتجسد المسيح والأسرار المقدسة والصلاة والصوم وفعل الخير والحج
والقدر . أما الفصل الختامى فإنه يشتمل على « وجهات نظر حول القضاء
والقدر » .

(٧٤) الكتاب الذى يعرضه بفانولر هنا من تأليف جاس هو كتاب :
« الأرسطية والأفلاطونية فى الكنيسة اليونانية » مع بحث حول معارضة
الاسلام فى العصر الوسيط « وقد صدر فى برسلاو عام ١٨٤٤ .
(٧٥) أبو الفداء : هو اسماعيل بن على الأيوبي ، سليل أحد
مروع الدولة الأيوبية فى مصر ، ولد عام ٦٧٢هـ بدمشق ، تولى إمارة
حماه ، وكان له نشاط علمى ملحوظ ، وقد أشتهر بوجه خاص بوصفه
مؤرخا وجغرافيا . وأهم مؤلفاته كتابه « مختصر تاريخ البشر » وكتابته فى
« تقويم البلدان » وقد تناول فى الكتاب الأول تاريخ ما قبل الاسلام ثم
تاريخ الاسلام حتى عام ٧٢٩ هـ . وقد طبع هذا الكتاب فى مجلدين
بالتسطنطينية عام ١٢٨٦هـ وترجمت أجزاء منه الى اللاتينية والفرنسية
والانجليزية . أما كتابه فى « تقويم البلدان » فقد انتهى من تأليفه عام ٧٢١هـ .

وقد كانت اكثر الاعمال استفاضة من جانب (بروتنس) فى تناوله لموضوع « تصورات العصر الوسيط المسيحى عن محمد وتعاليمه » وذلك فى الفصل الخامس من الكتاب الأول من مؤلفه « التاريخ الحضارى للحملات الصليبية » (٧٦) ويبرز بروتنس فى بادىء الأمر مدى قلة المعلومات الصحيحة عن الاسلام التى تم الحصول عليها من خلال الاتصال الذى حدث عن قرب بين الاسلام والمسيحية سواء فى اسبانيا أو فى فلسطين أو فى سوريا . فالمحمديون والمسيحيون يواجهون بعضهم بعضا بعد فترة طويلة من التعارف المتبادل وهم فى حالة من انعدام الفهم مثلما كان الأمر لدى الاتصال الأول . فالصورة التى اتخذها المسيحيون فى الغرب عن محمد وتعاليمه أصبحت كلما مر الزمن كلما ازدادت كدورة عن طريق أسوأ الخرافات ، وفى النهاية شوهدت تماما عن طريق أسخف التصورات الجنونية وأخيبت الافتراءات .

وقد كان السبب الرئيسى لذلك هو أنه لم يكن هناك من سبيل الى معرفة الاسلام الا عن طريق السلطات الكنسية التى كان يهملها بطبيعة الحال أن تعرض تعاليم محمد فى صورة منحطة وفاسدة بقدر الامكان ، فى حين اننا لم نكن نتوقع حكما موضوعيا نسبيا الا من جانب أولئك الذين عاشوا لسبب من الأسباب فترة طويلة فى سلام فى وسط العالم المحمدي ، ويوجه خاص من جانب بعض الميشرين من أمثال فيلهلم الطرابلسى وريكولدوس دى مونت كروتسيس .

وبعد هذه الملاحظات التمهيدية يصف لنا بروتنس أولا آراء الغرب فى محمد وفى تعاليمه . فبعد المحاولة التى قام بها اليهودى الأسباني المنتصر بتروس الفونسوس لنقض القرآن فى بداية القرن الحادى عشر ، تناول هذا العمل بتعمق خاص بطرس الموقر رئيس رهبان (كلونى Cluny) (٧٧) الذى كان صديقا للقديس برنهارد المنتسب الى

(٧٦) صدر هذا الكتاب فى برلين عام ١٨٨٣ . ولبروتس أيضا بحث بعنوان : « حول أساطير محمد لجوتيه الكوبينى » من منشورات أكاديمية العلوم فى ميونيخ عام ١٩٠٣ .

(٧٧) بطرس الموقر (١٠٩٤ - ١١٥٦) راهب فرنسى ينتمى الى

(كليرفو Clairvaux) . وقد عمل بطرس الموقر في البداية على أنجاز ترجمة للقرآن الى اللغة اللاتينية (٧٨) . وبالإضافة الى ذلك أمر بترجمة كتابين آخرين أحدهما عن سيرة النبي والثاني عرض للنقاط الأساسية في تعاليم العقيدة المحمدية في شكل حوار .

وأخيرا قام بتأليف أربعة كتب « ضد الزندقة البغيضة لطائفة المسلمين » . وهذه الأعمال التي قام بها هذا الرجل الكلوني المتحمس لا ترسم مجرد بداية الجدل الأوروبي ضد الاسلام فحسب بل أصبحت المصدر الرئيسي أيضا للتصورات غير المعقولة التي صارت فيما بعد مالوفة لدى المسيحيين عن حياة محمد وتعاليمه . والى مؤلفات بطرس الموقر ترجع غالبية المؤلفات الجدلية العديدة التي نشأت في العصر الوسيط ضد الاسلام ، سواء اكانت نثرا أو في شكل شعري أو في صيغة اخبار وتقارير حول المناقشات التي جرت - زعما كان ذلك أو حقيقة - بين رجال الدين المسيحيين والمحمديين . وفي هذه المناقشات يظهر محمد ليس فقط نبيا زائفا ومضللا ، وإنما أيضا محتالا وضيعا ومن عشاق اللذة (٧٩) .

ومن بين التصورات التي كانت منتشرة بصفة خاصة القول بأن المحمديين لم يكونوا يجلون محمدا لمجرد كونه نبيهم ومؤسس دينهم بل كانوا يعبدونه بوصفه يمثل الألوهية . وبالإضافة الى ذلك وصف دين محمد - على النقيض تماما من الحقيقة التاريخية - بأنه دين الشرك

جماعة الرهبانية البندكتية التي شيدت دير كلوني عام ٩١٠ في فرنسا . قصد الاندلس فيمن تصدها مستزيدا من علومها ، وكان الرهبان الأسبان قد جعلوا من دير كلوني في القرن الثاني عشر مركزا خطسيرا لنشر الثقافة العربية .

(٧٨) تمت هذه الترجمة عام ١١٤٢ م على يد العالم الانجليزي روبرت أوف كيتون بايعاز من بطرس الموقر .

(٧٩) اذا كان هناك قدر كبير من هذا الهراء يعود في أصله الى لباطيل الأب بطرس « الموقر » فليست أنهم سببا معقولا لوصفه بالموقر ، إذ أن ما قام به - من وجهة نظر موضوعية - هو اثبات على الحقيقة وجريئة في حق التاريخ وتضليل متعمد وكذب صريح . فهل يبقى بعد ذلك مكان لوصفه بالتوقير والاحترام ؟ .

وتعدد الألوهية . وقد اتهم المحمديون أيضا - دون سند تاريخي - بأنهم يمارسون عبادة التماثيل بطريقة فظة ، وكذلك كان المرء يهزا من أمية النبي ويسخر من الراعى السابق للابل والحمير (٨٠) .

ولابد أن يعود هذا الجهل التام وسوء التقدير للاسلام - رغم الاختلاط الكثير المباشر - الى حد ما الى أن التعرف الأول على الاسلام قد تم عن طريق وساطة لا يوثق بها الا قليلا ، اعنى عن طريق البيزنطيين .

وترجع أقدم التقارير التاريخية التى لدينا عن نشأة الاسلام الى (تيوفانس Theophanes) البيزنطى . وقد عرضه أمين المكتبة الرومانى اناستاسيوس فى كتابه عن تاريخ الكنيسة . والى هذا التقرير ترجع غالبية الأساطير التى قيلت عن محمد فى العصر الوسيط .

وبعد ذلك قدمت الحملات الصليبية دافعا جديدا . ومن هنا اتخذت صورة محمد باستمرار لونا أشنع من ذى قبل . وعرضت باستمرار بصورة أكثر فظاعة . ويقدم لنا أولا « جيبير النوجنتى » (Guibert de Nogent) صورة شاملة ، وكثيرا ما عرضت اسطورة محمد أيضا فى صور شعرية . وهكذا قام هيلديبيرت المنتسب الى (ليمو Lemans) والذى كان فيما بعد رئيسا لأساقفة (تور Tours) (توفى عام ١١٢٣ م) قام بكتسابة تاريخ محمد فى صورة شعرية معينة (Distichen) تتضمن ذكريات كلاسيكية - وقد ظهرت فيما بعد قصيدة مشابهة وهى

(٨٠) لسنا فى حاجة الى التعليل على هذه التصورات الباطلة ، نهى - كما يقول بفانوللر - تصورات تناقض الحقيقة التاريخية وتفتقد أى سند تاريخي . وقد كان البيزنطيون - كما يقول بفانوللر بعد قليل - هم أول من اذاع فى الغرب معظم الأساطير التى شاعت حول محمد والاسلام .

ويبقى ان نشير الى أن أمية محمد عليه الصلاة والاسلام والتى أشار اليها القرآن فى آيات عديدة كانت من دعائم الإعجاز ، نهى بناط فخر وبرهان صدق على دعوته لا مثار سخرية واستهزاء . أما رعيه صلى الله عليه وسلم للابل أو الغنم فلم يكن فى ذلك بدعا من الرسل ، فقد مارسوا جميعا رعى الغنم وهى ذلك يقول عليه الصلاة والسلام : « ما بعث الله نبيا الا رعى الغنم » - رواه البخارى - ويقول أيضا : « كنت ارمى غنم أهلى » - زواة الترمذى - وليس فى ذلك سبة أو منقصة كما يفهم الجاهلون بقدره وقدر الانبياء جميعا .

« اساطير محمد لدى فالتيرى » (Otia Walteri de Mahomet) وعلى
هذه القصيدة اللاتينية تعتمد اعتمادا تاما « رواية محمد » (Roman de
Mahomet) التى كتبها (الكسندر دو بون du Pont) وفى العرض
الذى قدمه لنا اندريا داندولو الفينيسى (Andrea Dandolo) تتجمع عناصر
الاساطير البيزنطية عن محمد ، مع الاختراعات التى يجب أن توضع
على حساب خيال المحاربين الصليبيين وعلى حساب قادتهم الروحانيين .
ونحن نجد التجميع الكامل لكل ما يتعلق بمحمد من اساطير
وخرافات ومخترعات افتراضية للعصر المسيحى الوسيط فى كتاب
(فينسينز Vincenz) (المنتسب الى بوفيه Beauvals) والمسمى
(المرأة التاريخية Speculum historiale) .

وهناك حكم أكثر موضوعية الى حد بعيد عن محمد والاسلام نجده
لدى الراهب الواعظ فيلهلم الطرابلسى الذى يبدو أنه قد اغترف كثيرا
من المصادر الشرقية ، وفى وسعه أيضا أن يطلعنا على معلومات هامة
حول نشأة القرآن .

أما جيرهارد الاشتراسبورجى (٨١) الذى ذهب الى صلاح الدين
فى عام ١١٢٥ م بتكليف من القيصر فريدريك الأول - فان التقرير الذى
وضعه حول اخلاق وعادات المومدين يبرهن ليس فقط على ملاحظات
جيدة ، بل يبرهن أيضا على حكم متسامح وموضوعى .

وهناك حكم أكثر تسامحا وموضوعية نجده فى العرض المسهب
لعقيدة المومدين وحياتهم واخلاقهم نذكره بالفضل للراهب الواعظ
« ريكولدوس دى مونت كروسيوس » (Recordus de Monte Crucius)
الذى كان له نشاط فى نهاية القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر ،
والذى عاش سنوات طويلة مبشرا بين المومدين . ولكن مثل هذه الأحكام
والمعارف تصادفنا منفردة نسبيا فى العصر الوسيط .

وعلى العموم فإن فى وسع المرء أن يدعى « أن الكفاح المرير الذى
قاده العصر المسيحى الوسيط بالسلاح وبالجدال اللاهوتى ضد تعاليم
محمد و ضد أتباعه ، قد تم دون اية معرفة كافية بالخصم ودون اية فكرة

(٨١) نسبة الى مدينة اشتراسبورج الفرنسية .

عن ماهيته وطبيعته : فالإسلام الذي انطلق العصر المسيحي الوسيط
للقضاء عليه لم يكن له وجود فعلى فى يوم من الأيام .

تلك كانت الخطوط الرئيسية للعرض المسهب الذى قدمه بروتس ،
هذا العرض الذى كان ينبض بالحياة عن طريق الاقتباسات الوافرة من
المؤلفين المعنيين والذى اكتمل بالأسانيد المصدرية المفصلة وبالادلة .

٨ - دانكونا (D'Ancona) :

تمثل بحوث (دانكونا) المسهبة تكملة ممتازة لعمل بروتس وقد
قادته دراساته المقارنة فى الآداب الرومانية الى طرح سؤال حول نوع
المعرفة التى كانت لدى القرون المختلفة عن سيرة محمد (٨٢) .

وعلى اساس من اطلاعه الشامل رسم لنا دانكونا صورة لاسطورة
محمد فى العصر الوسيط ، تلك الصورة التى عرض شوفان بعض خطوطها
ببراعة فائقة فى مؤلفه البيبليوجرافى (Bibliographie) (قارن ايضا
النقد المفصل لرينان فى مجلة العلماء (Journal des Savants)
١٨٨٩ م ص ٤٢١ - ٤٢٨) .

ويتناول دانكونا على وجه الخصوص التأثيرات المسيحية على محمد
(الراهب بحيرى) (٨٣) والأخبار المختلفة حول وفاة محمد ، ويبين

(٨٢) يرجع فى ذلك الى البحث الذى نشره دانكونا فى العدد رقم ١٣
من المجلة التاريخية للآداب الايطالية بعنوان « اسطورة محمد فى الغرب »
من ص ١٩٩ الى ٢٨١ ، عام ١٨٨٩ .

(٨٣) بحيرى : راهب نصرانى ، كانت له صومعة فى بصرى من
أعمال الشام على طريق القوافل ، وقد مر به محمد صلى الله عليه وسلم
وهو فى سن الثانية عشرة من عمره مع عمه أبو طالب ، فعرفه ببعض ملامحه
وقال : « سيكون لهذا الغلام شأن عظيم » وأوصى عمه بحمايته .
ويصر بعض المستشرقين على تضخيم أثر مقابلة الرسول عليه الصلاة
والسلام لبهيرى رغم انه لا يوجد لذلك سند صحيح ، وقد قال هوارت فى
بحث له حول هذا الموضوع : « لا تسمح النصوص العربية التى عثر عليها
ونشرت وبحثت منذ ذلك الوقت بان نرى فى الدور المسند الى هذا الراهب
السنورى الا مجرد قصة من نسج الخيال » .

(راجع : مدخل الى القرآن الكريم للدكتور محمد عبد الله دراز
ص ١٢٤ - هامش ١ ، دار القلم بالكويت ١٩٧٤ ، وانظر كتابنا :
الاستشراق ص ٨٥) .

دانكونا الوحيدة المميزة لهذه الأساطير منذ زمن المؤرخ البيزنطي (تيوفانس Theophanus) . وطبقا لهذه الأساطير يظهر محمد على أنه زنديق ، وأنه آريوس جديد أسوأ من آريوس الأول (٨٤) . واسطوره تنهج نهج أسطورة الزنادقة الكنسيين الكبار من أمثال (سيمون ماجوس S. Magus) أو (نيكولائوس Nikolaus) .

(٨٤) آريوس (٢٧٠ - ٣٣٦ م) ولد في الإسكندرية وكان تسييسا بها ، وقد عارض أسقف الإسكندرية الذي كان يذهب إلى القول بأن المسيح ابن الله وأنه مساو للآب وأن له طبيعة وذاتا واحدة مع الآب . وقد ذهب آريوس إلى القول بأن المسيح غير مساو للآب في الجوهر والعظمة وأنه مخلوق بإرادة الآب حادث غير أزلي . الخ . وقد تبع آريوس كثيرون ، وعندما طرد من الإسكندرية خرج قاصداً فلسطين وسوريا فتنزب له أساقفة كثيرون في تلك الجهات ولا سيما أسقف قيصرية وغيره من أساقفة بيروت وصور واللاذقية وغيرها .

وقد عقدت عدة مجامع كنسية لناقشة تعاليمه منها مجمع الإسكندرية عام ٣١٩ ، ومجمع نيقية عام ٣٢٥ بإمر الإمبراطور قسطنطين ، ومجمع القسطنطينية عام ٣٣٦ . وعلى الرغم من أن الغلبة في النهاية استقرت لآراء مخالفيه الذين جعلوا من المسيح الها وقالوا بالتثليث فإن تعاليمه قد انتشرت بعد موته أكثر مما انتشرت في حياته ، وأعتق الملك قسطنس خليفة قسطنطين آراء آريوس . وقد أمر قسطنس بمقتل مجمع في ميديولان (ميلان) حضره أكثر من ثلاثمائة أسقف ، وتبين أن أكثرية الآراء فيه كانت للآريوسيين . وقد بقيت التعاليم الآريوسية ممتدة في إسبانيا والولايات الجرمانية أكثر من ثلاثة قرون .

ولكن عندما وضع الانشقاق بين الآريوسيين وانقسموا إلى فرق عديدة ضعفت قوتهم وتمكن منهم خصومهم . وفي أيام نيودوسيسيوس الثاني صدر الأمر باستئصال الآريوسيين وبادنتهم ، وكان ذلك في عام ٤٤٨ م . ويقال أن سرفقس أحيا تعاليم الآريوسية في القرن السادس عشر فذاعت هذه التعاليم وبسبب ازعاجها للكنيسة التي سارعت بالتصديق على معتقبيها . (راجع دائرة معارف البستاني) .

والأمر الجدير بالذكر هو أن الرأي الذي كان يقول به آريوس هو الرأي الذي يعتبره القرآن الكريم العقيدة المسيحية الصحيحة التي ترفض التثليث وترفض الوهية المسيح . ومن هنا جاء هذا الاتهام الموجه إلى منجد صلي الله عليه وسلم بأنه آريوس جديد لأنه أكد بنص القرآن بشرية المسيح ورفض ما عدا ذلك من تعاليم مصنوعة .

وتضيف المؤلفات الشعبية الى ذلك اقتراءات شنيعة ، ولكن هناك بجانب ذلك اقوالا ايجابية أيضا . ونظرا لأنه قد حيل بين محمد وبين منصب البابوية الذي يستحقه - نظير خدماته التي اداها بجعل قسم كبير من العالم يدين بعقيدة الايمان باله واحد - فقد تحول الى منشق على الكنيسة (٨٥) .

وبين دانكونا بعد ذلك كيف ان جزءا من اسطورة محمد - ذلك الذى يتصل بأصل محمد وعلاقته بالمسيحية واليهودية - يبتعد قليلا عن الحقيقة التاريخية (٨٦) . ولكن بمرور الزمن تبتعد الاسطورة بصفة متزايدة باستمرار عن الحقيقة التاريخية ، ويصبح محمد متسببا لنيكولاوس و (بلاجيوس Pelagius) ، أجل ، فالبعض كان يرى ان الاسلام قد انبثق من النزاعات الداخلية الخبيثة للكرادلة الرومانيين ، والخرى تبقى الاسطورة عند موت محمد مع احساس بنوع خاص من الغبطة . فالخنزير قد التهمته وهو فى حالة سكر ! ولهذا السبب أصبح اكل لحم الخنزير محرما لدى المحمديين (٨٧)

* * *

وليعرض العلماء نظره ثابتة فى تفسير لفظ « الأريسيين » الذى ورد فى رسالة النبي صلى الله عليه وسلم الى هرقل قيصر الروم ، والتي جاء فيها : «اسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فان توليت فطريك أثم الأريسيين» ويذهب هذا البعض من العلماء الى أن المقصود بالأريسيين هنا هم أتباع أريوس القائلين بالمعقيدة المسيحية الصحيحة . وهذا تفسير ذكى أقرب الى العقل والمنطق من كل ما عداه من تفسيرات أخرى .

(٨٥) هذه أسطورة مضحكة لا تستحق الوقوف عندها .

(٨٦) هنا إشارة خفية الى ان هناك تأثيرا يهوديا مسيحيا على محمد ورسالته . وهذه نغمة قديمة سائدة فى معظم الدراسات الاستشراقية حول الاسلام . (انظر فى ذلك كتابنا : الاسلام فى الفكر الغربى ص ٦٧ وما بعدها . دار القلم بالكويت ١٩٨١ وانظر أيضا كتابنا : الاستشراق ص ٨٤ وما بعدها) .

(٨٧) الاسطورة لا عقل لها ، وهى فى الأصل قصة خرافية من نسج الخيال . ولكن الامر الغريب هنا هو ان الغرب كان يصور لنفسه هذه الاساطير وكأنها حقائق ، ولهذا كان المرء يستسلم لهذا الشعور الكاذب بالغبطة لما فعله هذه الاساطير من أميات كاذبة ترضى فى نفسه نزوات معادية للاسلام وتبويه .

٩ - كاسترى (Castries) :

يتناول (كاسترى) (١٨٨) فى كتابه عن الاسلام فى ملحق خاص « فكرة العصر الوسيط عن محمد والديانة الاسلامية » . ويزعم خطأ أن هذا الموضوع لم يتناوله أى مؤرخ من مؤرخى العصر الوسيط . وأذن فهو لا يعرف لا تلك الأعمال المشار اليها لكل من ليرودى لنسى ، ودو ميريل ، ولا العرض المسهب لكل من بروتس ودانكونا .

ولا يقدم لنا عمل كاسترى شيئاً جديداً الا القليل ، وحكمه على المعرفة التى كانت لدى لاهوتيين العصر الوسيط عن الاسلام ليس دائماً حكماً صائباً (قارن النقد التفصيلى لرئيسه باسيه فى مجلة تاريخ الأديان (Revue de l'histoire des religions) ٣٥ ، ١٨٩٧ ص ١٢١ - ١٢٣) .

* * *

١٠ - شرودر (R. Schroeder) :

أما (ر . شرودر) فإنه قد جمع الخطوط الرئيسية لاسطورة محمد فى العصر الوسيط . كما تتمثل فى الشعر الفرنسى القديم (١٨٩) .

وحسبما ورد فى هذا الشعر فإن محمداً وحده هو صاحب نظرية التعدد فى الألوهية بكاملها ، تلك النظرية التى يقول بها المسلمون ،

(١٨٨) ه . دى كاسترى (١٨٥٠ - ١٩٢٧) ، ورد فى ترجمته لدى نجيب العقيدى أنه كان مقدماً فى الجيش وبهتما بالدراسات المغربية ، وأنه قد اشترك فى إصدار مجموعة بعنوان « مصادر شعر منشورة عن تاريخ المغرب » . ولم يذكر له العقيدى كتاباً عن الاسلام . ولكن بفاتمه وللر يعتمد فى حديثه عن دى كاسترى هنا على كتاب له عن الاسلام بعنوان (L'Islam) وقد صدر فى باريس عام ١٨٩٦ .

ولكاسترى بعض أقوال ايجابية عن الاسلام . وقد اتهم بأن رأيه فى محمد ايجابى أكثر مما ينبغى (أنظر فى ذلك البحث الذى نشرناه فى العدد الثانى من جولية كلية الشريعة بجامعة قطر ، ص ١١٥ ، ١٤٦) .

(١٨٩) يرجع فى ذلك الى كتاب شرودر الذى صدر بالألمانية فى ارلانجن عام ١٨٨٦ بعنوان « العقيدة والخزافة فى الأسماع الفرنسية القديمة » .

وفى الأساطير الشعبية الأصيلة لا يظهر محمد أبدا بوصفه نبيا ، وإنما يظهر باستمرار بوصفه الها ، وعلى وجه التحديد بوصفه اعظم وأقوى الآلهة الوثنية . وقبل أن يتحول محمد الى هذا الاعتقاد كان مسيحيا مؤمنا ، وكان هو نفسه يؤمن بعقيدة الخلاص المسيحية .

ويعد محمد لدى الوثنيين خالق هذا العالم وحافظه . وتحدث عبادته بطبيعة الحال فى شكل عبادة التماثيل ، هذا الشكل الذى اعتادته جماعة المحمديين . وكما هو الحال مع الهه المسيحيين فإن محمدا محاط أيضا فى السماء بالقدسين . ومثلما تعد القدس مدينة مقدسة بالنسبة للمسيحيين فكذلك تعد مكة مدينة مقدسة بالنسبة للوثنيين . حيث يوجد داخل اسوارها قبر الههم . أما العيد الكبير السنوى الذى يقام لتمجيد محمد فيوصف بأنه يتوافق مع عيد الفصح .

وأشد التناقضات بين المؤسسات المسيحية والوثنية تتمثل فى رأى الجانبين فى الزواج . والمحمديون يكرهون الهه المسيحيين ، وكذلك لا تعرف كراهية المسيحيين لاتباع محمد حدودا تقف عندها . فالمسيحيون يشكون بشتى الطرق الممكنة فى طهارة محمد من الذنوب اثناء حياته الأرضية . وتروى بشغف خاص قصة موته الذى برشى له - فالخنازير قد وجدته مخمورا فوق كومة من القمامة فالتهمته (٩٠) .

١١ - دريسباخ (Dreesbach) :

اهتم (دريسباخ) فى رسالته للدكتوراة برسم صورة للشرق وساكنيه كما صورها أدب الحمسلات الصليبية الفرنسى القديم (٩١) .

(٩٠) الاسطورة - كما سبق أن أشرنا - لا عقل لها ، ولذلك لا يعجب المرء من انتشار مثل هذه الغرائب المنكرة حول محمد صلى الله عليه وسلم وحول دينه فى عصر كان يعتقد فى فهمه للاسلام ونبيه على مثل هذه الخرافات التى روجت لها السلطات الكنسية . . وأعتقد أن القارئ لا ينتظر منا أن نتقنا طويلا عند مناقشة ما جاء فى هذه الأساطير من تفصيلات ، إذ يكفى أنها أساطير لا أصل لها .

(٩١) ظهرت هذه الرسالة الجامعية بالألمانية فى برسلو عام ١٩٠١ بعنوان « الشرق فى الأدب الفرنسى القديم للحمسلات الصليبية » .

فعلى النقيض من الملاحم الفرنسية القديمة (chansons de geste) التي كانت لا تزال تعرض المسلمين كما كانوا يوصفون لنا قبل الحملات الصليبية فانه بوسعنا أن نعرض صورة حقيقية عن الشرق من ادب الحملات الصليبية . فالمسلمون الذين يصفهم هذا الادب هم مسلمون حقيقيون من لحم ودم . صحيح اننا لا نزال نجد في هذه الكتابات تصورات خاطئة عن محمد وعن الاسلام ، ولكنهما مع ذلك يعرضان بطريقة مختلفة تماما بما يتفق كثيرا جدا مع الحقيقة التاريخية . فمحمد لم يعد يظهر بوصفه الها وانما بوصفه نبيا ومؤسسا للاسلام ، وقد أصبحت اهم وصاياها الرئيسية واهم النقاط في تعاليمه معروفة . وقد برز الفرق واضحا بين السنة والشيعية . وهناك اهتمام خاص يثيره الحشاشون وزعيمهم « شيخ الجبل » (٩٢) .

١٢ - دوتيه (Douité) :

يتناول (دوتيه) الخرافة التي انتشرت انتشارا واسعا في العصر الوسيط والتي تقول بأن محمدا كان في الاصل كاردينالا رومانيا يسعى

(٩٢) الحشاشون اسم يطلق على ذلك الفريق من الاسماعيلية الذين كانوا يحتلون ايام الحروب الصليبية الحصون الجبلية في الشام وغيرها ، والذين جروا على التخلص من اعدائهم بالاغتيال . ومؤسس هذه الجماعة السرية الخطيرة هو الحسن بن الصباح . ويبدأ تاريخ الحشاشين بفتح الحصن الجبلي « الموت » على يد الحسن بن الصباح عام ٤٨٣ هـ . ويقال انه انشأ هناك حدائق غناء كان الغدائيون يهتمون فيها بالملذ التي يتوقعون التمتع بها في الفردوس . ولكن الذي لا ريب فيه ان جفتهم تلك كانت محض خيال يصوره لهم الحشيش الذي كانوا يدخونونه .

وفي عام ٥٣٥ هـ فتحتوا عددا آخر من الحصون في شمال بلاد الشام وغيرها . وكان رأس هؤلاء الحشاشين الشاميين المؤقت يدعى « شسيخ الجبل » وقد قضى المغول عليهم ، واحتل جنود هولوكو قلعة « الموت » عام ٦٥٤ هـ ولكن الضرية القاضية التي قضت تماما على السلطان السياسي لهذه الفرقة المروعة كانت على يد سلطان المالك بيبرس عام ٦٧١ هـ . (راجع دائرة المعارف الاسلامية) .

للحصول على تاج البابوية ، ولكنه عندما فشل فى الحصول عليه انس
الطائفة المحمدية وصرف آلافا كثيرة من النفوس عن المسيحية (٩٣) .

١٣ - باسيه (Basset) :

اما (باسيه) (٩٤) فقد تناول بالبحث العميق أسطورة لخرى
عن محمد كانت هى الأخرى منتشرة أيضا انتشارا واسعا فى العصر
الوسيط ، وتقول هذه الأسطورة أن القيصر كارل الكبير قام بتحطيم
كل تماثيل الالهة التى كانت قائمة فى اسبانيا ما عدا تمثالا واحدا فقط
كان موجودا فى (قادس Cadiz) (٩٥) . ويروى المسلمون أن محمدا
نفسه قد قام بعمل هذا التمثال أثناء حياته باسمه هو وأنه بفضل ما لديه
من فن سحرى قام بحبس كتيبة من الجن بداخله . وقد عملت هذه
الكتيبة بما لها من تأثير على منع تحطيم هذا التمثال من جانب أى أحد
يريد تحطيمه .

وقد أثبت باسيه بالتفصيل انتشار هذه الأسطورة فى المصادر
المسيحية والعربية والاسكندنافية ، ويرهن على أن الأمر هنا يدور -
على الأرجح - فى الأصل حول تمثال لهرقل ظن المحمديون خطأ أنه
يرمز الى محمد . ثم انتقلت الأسطورة عن طريق المسلمين الى المسيحيين

(٩٣) لقد تناول أدموند دوتيه هذه الموضوعات فى كتابه بالفرنسية
« محمد الكردينال » الصادر فى باريس عام ١٨٩٩ .

(٩٤) رينيه باسيه (١٨٥٥ - ١٩٢٤) مستشرق فرنسى ، نشر
العديد من الأبحاث والدراسات الإسلامية والعربية والبربرية والحبشية
فى مجلات علمية كثيرة ، ورأس مؤتمر المسشرقين بالجزائر عام ١٩٠٥ ،
وأسهم فى دائرة المعارف الإسلامية ، وكان عضوا فى العديد من المجالس
العلمية . والبحث الذى يشير اليه بفانمبولر هنا هو البحث الذى نشره
باسيه بعنوان « هرقل ومحمد » عام ١٩٠٣ فى مجلة العلماء من ص ٣٩١
حتى ص ٤٠٢ .

(٩٥) قادس (Cadiz) مدينة اسبانية وهى عاصمة اقليم
قادس ، ويسكنها حوالى ١٣٦٠٠٠٠ نسمة ، وهى مدينة قديمة يرجع تاريخ
انشائها الى عام ١١٠٠ قبل الميلاد .

فى اسبانيا . ومن هنالك تسربت الى الأدب الفرنسى فى العصر
الوسيط. (٩٦) .

(٩٦) اذا رويت هذه الاساطير على السنة القريبين ودونت فى
مؤلفاتهم فهذا أمر مفهوم وقد اعتدنا عليه . أما أن يقال ان المسلمين أنفسهم قد
قالوا بهذا الهراء وأن مصادرهم قد دون فيها هذا الباطل فهذا أمر لا يمكن
تصديقه ، وذلك لأسباب كثيرة أهمها ما يأتى :

أولا : المسلمون يعرفون تماما أن النبى صلى الله عليه وسلم قد حرم
التمثيل لأنها تذكر بالأصنام من ناحية ولأن فيها مهاكاة لخلق الله من ناحية
أخرى . وقد ورد فى هذا الصدد العديد من الأحاديث الصحيحة ومن ذلك
ما رواه مسلم فى صحيحه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا تدخل
الملائكة بيتا فيه تماثيل أو تصاوير » . وقوله : « يا عائشة : أشد الناس
عذابا عند الله يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله » وفى رواية أخرى :
« الذين يشبهون بخلق الله » فهل يعقل بعد هذا التحذير الشديد - أن
ينسب المسلمون الى نبيهم أنه صنع لنفسه تمثالا أو أعز بصنمه ؟ وقد
يقال ان بعض العلماء فى العصر الحديث قد قال بتأويل بطل هذه الأحاديث .
ولكن هذا التأويل لم يكن بالقطع قائما لدى المسلمين فى الأندلس .

ثانيا : المسلمون يتخرجون حتى اليوم - بعد مرور أكثر من أربعة عشر
قرنا على ظهور الاسلام - من مجرد ظهور شخصيات تمثل دوار أحد من
الصحابة فى شاهد «ادفة» ، فاهيك عن إقامة تماثيل لهم . فما بالك اذا كان
الأمر يتعلق بالنبى صلى الله عليه وسلم . واذا كان هذا شأن المسلمين
اليوم حيث تنتشر التماثيل فى كل مكان وحيث أصبح التمثيل أمرا بالوفسا
فما بالك بالمسلمين منذ قرون عديدة ، وفى بلاد أحرقت كتاب الأحياء للفزالى
فلما أنها أنه ربما يحمل أفكارا فلسفية لا يرضى عنها الاسلام .

ان الأمر الأقرب الى المعقول هو ان هناك أسطورة كانت قائمة قبل
ان يدخل المسلمون الى هذه البلاد ، ثم جورها الأوروبيون أنفسهم - وإيمانهم
بالاساطير كان شديدا فى العصر الوسيط - وروجوها على السنة المسلمين .

الفصل الرابع

سيرة الرسول في تصورات الغربيين (٢)

● تمهيد :

لسنا هنا في حاجة الى اعادة ما سبق ان ذكرناه في تقديم الحلقة الاولى عن اهمية هذا البحث ومبررات ترجمته رغم ما قد يكون فيه من اوصاف تسيء الى نبينا صلى الله عليه وسلم . ولهذا نرجو من القارئ الكريم ان يرجع في ذلك الى ما ذكرناه في هذا الصدد في موضعه من الحلقة الاولى .

ولكننا نود هنا ان نضيف الى ذلك حقيقة هامة تتمثل في اننا اذا اردنا ان نعرف سر موقف الأوروبيين اليوم من الاسلام ونبيه فان علينا ان نبحث عن ذلك ، ليس في الظواهر السطحية التي نراها اليوم هنا أو هناك ضد أو مع الاسلام ونبيه ، بل فيما رسخته القرون السابقة من مواقف تجاه الاسلام ونبيه صلى الله عليه وسلم ، والتي لا تزال في اعماق الأوروبيين تظهر في المناسبات بوعي أو بغير وعي . ومن هنا تأتي اهمية التعرف على هذه المواقف السابقة .

ولعلني أنتهز هذه المناسبة لأوجه نداء الى المؤسسات العلمية الاسلامية لتخصيص جزء من جهودها لدراسة التراث الغربي المتعلق بالاسلام . وربما كان من الأوفق ان تتجه بعض هذه المؤسسات الى انشاء مركز علمي خاص لدراسة التراث الغربي المشتغل بالاسلام . وهو تراث غزير في كنهه . ويكفي أن يشير هنا الى ان ما الفه المستشرقون عن الشرق في قرن ونصف (منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين) قد بلغ ستين ألف كتاب (١) .

(١) ادوارد سعيد : الاستشراق ص ٢٩ ترجمة كمال أبو ديب - مؤسسة الأبحاث العربية - بيروت ١٩٨١ .

ومواقف الغرب الأساسية تجاه الاسلام لم تتغير كثيرا في عصرنا الحاضر رغم بعض الظواهر الايجابية في بعض الاحيان . ففي الوقت الذي نرى فيه سكرتارية الفاتيكان لغير المسيحيين تصدر كتابا تدعو فيه الى الحوار بين المسيحية والاسلام على اسس متحررة من الاوهام والاحكام السابقة ضد الاسلام والتي هي من موروثات العصور الوسطى (٢) نجد مؤلفات تصدر في الغرب بين الحين والآخر في ايامنا هذه تحذر من خطر الاسلام على مستقبل الغرب والحضارة الغربية (٣) ، ونجد بعض الكتاب الغربيين - مستشرقين وغير مستشرقين - لا يزالون حتى اليوم اسرى للتصورات القديمة التي خلفتها العصور الوسطى عن الاسلام ونبيه ، ناهيك عما تفعله وسائل الاعلام في الغرب بالاسلام ومقدساته .

وفي هذا الجزء من البحث (٤) يلاحظ القارئ الكريم ان بفانمولر يعود للحديث مرة اخرى عن بعض المؤلفات التي سبق ان تناولها في الحلقة الاولى . ولكن الحديث هنا يختلف ، اذ انه هنا يفصل ما سبق ان لجمله وذكره هناك في عبارات قصيرة ، ويلقى اشواء على جوانب لم يشر اليها من قبل . ومن هنا يمكن ان بعد الحلقة السابقة - التي حد ما - بمثابة تمهيد لهذه الحلقة . فهنا تعرض وجهات النظر مفصلة ومدعمة في اغلب الاحيان باقتباسات من المؤلفات المعنية . وقبل ان نعرض الترجمة الكاملة للفصول التي اخترناها من كتاب بفانمولر نود ان نقدم لها بنظرة اجمالية تشير فقط الى اهم النقاط في خطوط عريضة :

(٢) صدر هذا الكتاب في روما عام ١٩٦٩ وأعيد طبعه مرة أخرى عام ١٩٧١ بعنوان :

(Guidelines for a Dialogue between Muslims and Christians)

ويشتمل هذا الكتاب على كثير من الجوانب الايجابية .

(٣) انظر على سبيل المثال الكتاب الذي ألفه (John Laffin) بعنوان : خطر الاسلام (Danger of Islam) (١٩٧٩) وتمت ترجمته أيضا الى الألمانية عام ١٩٨٠ ، وانظر أيضا ما تضمنه في هذا الصدد الكتاب الذي يحمل عنوان « 1985 » من تأليف (Anthony Burgess) والذي صدر في لندن عام ١٩٧٨ وأعيد طبعه بعد ذلك عدة مرات .

(٤) يراجع في ذلك كتاب بفانمولر « موجز في أدب علوم الإسلام » من ص ١٦٨ الى ص ١٩٦ .

لقد بدأ اهتمام المستشرقين بالكتابة عن حياة محمد اعتبارا من القرن السابع عشر بعد أن كانت الكتابات السابقة في هذا المجال كتابات جدلية كنيسية تعبر عن اتجاه الكنيسة المعادى بطبيعة الحال للإسلام ولكن هدف المستشرقين الواضح والمعلن حينذاك لم يكن أيضا هدفا علميا ، بل كان محاربة الإسلام والدفاع عن المسيحية . ومن أجل هذا الغرض وجد المستشرقون أن أفضل وسيلة لمحاربة محمد تتمثل في معرفته . ومن هنا كان لا بد من الاطلاع على القرآن ومحاولة فهمه . وقد اشتملت المؤلفات في ذلك الوقت على أكثر الأساطير مدعاة للسخرية وأكثر المزاعم والشتمات وقاحة ، وذلك جنبا الى جنب مع ذكر وقائع وحقائق تاريخية وكذلك ترجمات من القرآن الكريم .

ولعل « بولانفلييه » كان أول من تجرأ في وسط هذا الجو القائم - على وصف محمد صلى الله عليه وسلم بأوصاف ايجابية ، إذ قال عنه انه أداة الله التي قضى بها على العبادة الباطلة وأحل محلها العبادة الحقنة .

أما عصر التنوير في أوروبا فقد مجد محمدا ﷺ بصفة عامة . ففي عصر التنوير الفرنسي احتل محمد عليه الصلاة والسلام مكان الصدارة في اهتمامات المثقفين وكان موضوع احاديث الصالونات في ذلك العصر ، لأن فولتير قد وصفه بأنه رجل عظيم جمع في شخصه بين الفاتح والمشرع والحاكم والواعظ ، ولعب أعظم الأدوار التي يمكن أن يقوم بها انسان على ظهر الارض . أما التنوير الألماني فقد كان جرى في محمد ﷺ داعية الى الدين الطبيعي .

وقد قال كارلايل بحق : « ان الأكاذيب التي عمل على تراكمها الحماس المنبعث بحسن نية حول محمد لا تسب أحدا غيرنا » .

وفي القرن التاسع عشر بدأ عصر المؤلفات الاستشراقية التي توصف بأنها مؤلفات تاريخية نقدية في السيرة . وكان جوستاف هاييل أول من قام بمحاولة في هذا الصدد واعتمد على مصادر عربية وراح يبحثها بحثا نقديا ، وقام بجمع كل المؤلفات الأوروبية حول السيرة . ولكن النزعات او الميول الأساسية الأوروبية ازاء محمد ظلت قائمة تتخللها مختلف الظلال والألوان .

وبجانب اشبرنجر مثلا - السذي كان ينتهز كل مناسبة لتصوير

اخلاق محمد ﷺ تصويرا سيئا ما وجد الى ذلك سبيلا - كان هناك مستشرقون آخرون معتدلون نسبيا مثل نولدكه الذي كان يسعى الى « موضوعية هادئة » . ويقول نولدكه :

« ان ، حمدا كان على اقتناع بمهمته لانقاذ اخوانه في الانسانية من العذاب الابدى بهدايتهم الى العقيدة الصحيحة ولكي يجعلهم مشاركين في السعادة السماوية » .

اما كريل فانه يقول : « يجب أن يعترف المرء بان محمدا كان رغم كل اخطائه - مؤسس المدنية العربية وانه قد وضع شعبه على درجة عليا من الدين » -

اما موقف بفانمولر نفسه - صاحب البحث الذي نقوم هنا بترجمته - ازاء جهود زملائه التي تضرب في معظمها في مناهات واسعة فيبدو انه يميل الى ان يترك امر هذه القضايا مفتوحا عندما يقول ان اصول نشأة الاسلام تبدو لنا اليوم بعد بحوث شاقّة لا نهاية لها أكثر غموضا من اى وقت مضى .

ويتضح لنا من دراسة الكثير من المؤلفات المذكورة في هذا البحث ان كثيرا من المؤلفين قد وضعوا لأنفسهم تصورا خاصا عن محمد صلى الله عليه وسلم يتمثل في زعمهم بأنه ليس بنبي حقيقي تم راحوا يحاولون اثبات تصورهم هذا بشتى الوسائل ، كما افرغوا مفهومهم للدين على كل ما وجدوه في الاسلام ليبينوا ان الاسلام ليس دينا سماويا .

ومن الامور التي تسترعى الانتباه هنا هو ان المستشرقين الذين يكتبون عن الاسلام ونبيه لا يمثلون دائما خطا واحدا في جميع المسائل ، فهناك أمور يختلفون عليها ويبلغ النقاش فيها حدا بعيدا سواء من جانب المؤيدين او من جانب المعارضين . ومن امثلة ذلك ما ادعاه « جريمة » من ان محمدا صلى الله عليه وسلم لم يكن الا مصلحا اشتراكيا وما كان من تفنيد « سنوك هورجرونييه » لآراء « جريمة » في هذا الصدد .

وفي ختام هذا التمهيد نود ان نشير ايضا الى ان الكتاب الذي نترجم منه هذه الفصول لا يشتمل على اية هوامش .

ومن اجل المصلحة العلمية قمنا بوضع هوامش مختلفة نعرف فيها بالكتاب او المستشرقين الذين يتحدث عنهم المؤلف ، ونرد فيها على بعض

المزاعم أو المفتريات، على الاسلام ونبية ﷺ ، ونوضح فيها ايضا بعض المفاهيم الواردة فى ثنايا النص طالما كان ذلك ضروريا .

ومن ناحية اخرى فان المؤلف قد قسم الموضوع هنا الى تقسيمات عامة على النحو التالى :

التراجم الحديثة لسيرة محمد :

(ا) من بوديه الى سيل .

(ب) التنوير الفرنسى .

(ج) من التنوير الالمانى حتى ظهور اول كتاب تاريخى نقىدى

عن حياة محمد من تأليف جوستاف فايل .

(د) الكتابة التاريخية النقدية لحياة محمد فى القرنين

التاسع عشر والعشرين .

(هـ) كتابات شعبية عن حياة محمد .

وقد قمنا بتقسيم كل فصل من هذه الفصول الى فقرات ووضعنا لها

عناوين جانبية تحمل فى الغالب اسم المؤلف الذى تتناوله كل فقرة على حدة .

ولعلنا نكون فى ذلك كله قد وفقنا الى الصواب .

ترجمة وتعليقات : التراجم الحديثة لسيرة محمد

اولا - من بوديه الى سيل

1 - ميشيل بوديه (Michael Baudier) :

يرجع الفضل الى ميشيل بوديه (5) فى انه اول من قام بوضع وصف شامل لحياة محمد بدلا من الكتابات الجدلية الكنسية . وقد كان بوديه بالنسبة لعصره - على اى حال - مؤرخا معتبرا ، كما كان كاتبيا شعبيا . ويدين له الجمهور الفرنسى بالفضل لكتابه الذى استطاع ان يعرفه فيه بالاسلام . ويباهى بوديه بحق بأنه اول من جمع هذه المادة (المتعلقة

(5) صدر كتاب بوديه بالفرنسية فى باريس عام 1625 و 1632 تم بعد ذلك بأكثر من قرن من الزمان فى عام 1741 تحت العنوان التالى : (Histoire de la religion des Turcs avec la naissance, la vie et la mort de leur faux prophète Mahomet) .

بحياة محمد) فى صورة تاريخ كامل - ولذلك كان لكتابه أيضا تأثير يفوق الوصف على التصورات (الغربية) عن الاسلام وعن محمد .

ولم يكن هذا العمل - على وجه اليقين - عملا محايدا . فقد كانت غاية بوديهيه هى « الكشف عن اباطيل نبي الأتراك وفحشه وخدائع محمد وزيف طائفته والكنف عن تعاليمه المضحكة والوحشية » (٦) .

وقد كان بوديهيه كاثوليكيًا متدينا ، يستقى معلوماته من مصادر كنسية فقط ، وكان ينقل عنها دون نقد . وبفضل كتاباته لم ير القرن السابع عشر فى محمد الا دجالا أو مضللا ، ولم تكن لدى هذا القرن الا الرغبة فى دفن محمد تحت اكوام من التلغص والتفتيد .

ولكن هذا الحماس الدينى كان له أيضا جانب طيب ، فلكى يستطيع الجزء ان ينقص محمدا بطريقة افضل كان لا بد للمرء ان يعرفه ، وقد كان من اللازم ان يطلع المرء على القرآن وان يفهمه . وقد روى بوديهيه حياة محمد بدرجة لا بأس بها من الدقة ، والحق أنه قد جعل هناك مكانا فى كتابه لأكثر الاساطير مدعاة للسخرية واكثر المزاعم وقاحة . اجل ، لقد أكرم بوديهيه بوصف اعمال السلب والنهب والقسوة والفجور من جانب النبي وصفا يصل الى حد التفاصيل الجزئية (٧) .

ولكن بوديهيه ، فى العصر نفسه الذى تابع فيه روح موروثات العصر الوسيط ، قام بتقديم وقائع تاريخية ومعلومات تشتمل على درجة قصوى

(٦) لا شك أن مثل هذه الكتابات التى تعلن عن مقصدها صراحة مثل كتاب بوديهيه تعد أقل خطرا من تلك المؤلفات الأخرى التى لا تكشف صراحة عن مقصدها ، بل تحاول بشتى أساليب التويه والتزييق العلمى أن تتنصع للقارىء بما تريد ، ولئسنا هنا فى حاجة الى الكشف عن اباطيل بوديهيه ، فالقارىء العادى لا يخفى عليه زيف مزاعمه . فعمله أبعد ما يكون عن الاقتراب من البحوث العلمية النزيهة التى تسمى لمعرفة الحقيقة بتجرد وموضوعية . وقد اعترف بمانبولر بأن عمل بوديهيه لم يكن على وجه اليقين عملا محايدا ، فهو عهد يدخل فى باب الجدل الكئسى السقيم .

(٧) كيف يقال ان بوديهيه قد روى حياة محمد بدرجة لا بأس بها من الدقة وهو انى الوات نفسه قد أمسح فى كتابه مكانا لأكثر المزاعم وقاحة وأكثر الاساطير مدعاة للسخرية ؟ هذان أمران لا يجتمعان ، فإما دقة وموضوعية وأما مزاعم وقحة واساطير مضحكة . أما هذا الخلط النوب فانه يمسد استهانة بمقالية القارىء .



من الدقة والثراء - اجل ، ان الامر الاهم من ذلك هو انه قام بوصف
تعاليم جوهرية للديانة المحمدية بعبارات واضحة ، وبرز كيف تتم مراعاة
الزكاة والاحسان في بلاد العرب مراعاة كبيرة . وعلى الجملة فانه قد
جعل الجمهور يتعرف بطريقة مفهومة تماما على قطب الرحي الذي يدور
عليه دين الأتراك كله .

ويستطيع المرء ان يطلق على نصف الكتاب انه ترجمة فرنسية
للقرآن . ويعد ان تحدث بوديبه عن محمد وعن أعماله وعمما يسميه
بالتدرج الديني في المرتب (Hierarchie) لدى المسلمين ، يسعى
بوديبه الى توسيع نطاق عمله التفنيدي كله في خطوط ثابتة لكي يواجه
سم الأتراك بسم مضاد . وتحت العنوان العام « الحاديات محمد » يصف
باسهاب المواضع القرآنية التي أفسد فيها النبي الزائف الديانة المسيحية .
ولكن لكي يجعل بوديبه الخديعة أو التضليل واضحا بقدر الامكان امام
الجمهور فانه يقتبس آيات من القرآن بجانب نصوص من الكتاب المقدس .
وعلى هذا النحو يتعرف القارئ على الأسس الرئيسية لتعاليم محمد عبر
كل صفحات الكتاب .

٢- ادوارد بوكوك (E. Pococke) :

وفي حين كان بوديبه ينقل بامانة عن المصادر الكنسية القديمة فقط ،
فقد قام المستشرق الشهير ادوارد بوكوك (٨) (١٦٠٤ - ١٦٩١) - الذي

(٨) ادوارد بوكوك (١٦٠٤ - ١٦٩١) درس اللاهوت في أكسفورد
وتعلم العربية في حلب ، وأصبح أستاذا للعربية والعبرية في أكسفورد عام
١٦٣٦ . وكتابه الذي يتحدث عنه بفانتولر هنا هو « لنع من تاريخ العرب »
(١٦٥٠) : (Specimen Historiae Arabum) وقد اعتمد فيه على كتاب
بالعربية لابن العبري . وفي عام ١٦٦٣ أخرج نشرة كاملة بالعربية لكتاب
« مختصر تاريخ الدول » لابن العبري (غريفوريوس أبو الفرج ١٢٢٦ -
١٢٨٩) الذي كان رئيس اليعاقبة فيما كان يعرف قديما بالملكة الفارسية .
وقد كتب ابن العبري هذا الكتاب بالعربية ، وهو يشكل الجزء الأول من
كتاب له في التاريخ العام بالسريانية في ثلاثة مجلدات . (راجع : دائرة
المعارف الإسلامية) مادة : ابن العبري . وراجع ايضا :
(J. Fueck : Die Arabischen Studien in Europa'p. 88f. Leipzig
1955) .

استطاع ان يحوز على معرفة واسعة باللغة العربية اثناء اقامته الطويلة فى الشرق - قام بنشر مصدر عربى عن حياة محمد ، لكنه مصدر مكتوب فى تاريخ حديث ، ومن اجل ذلك فان قيمته ضئيلة من وجهة النظر التاريخية (ص ١٣٢) (٩) .

ولكن اهمية هذا الكتاب تتمثل فى ان المرء قد اصبح اخيرا على وعى بانه يتحتم الرجوع الى مصادر عربية اساسية لكى يمكن الوصول الى نظرة اكثر موضوعية الى محمد وتعاليمه . وقد اشتمل عمل بوكوك على هوامش مسهبة واستطرادات تشهد بعلمه الغزير . وقد تم فى العصر التالى استغلال هذا الكتاب الى اقصى حد من جانب كل هؤلاء الذين كتبوا عن محمد وعن التاريخ العربى .

* * *

٣ - هوتنجر (Hottinger) :

فى كتابه تاريخ الشرق « Historia Orientalis » حاول يوهان هينريش هوتنجر (١٠) (١٦٢٠ - ١٦٦٧) الذى تخرج بوصفه مستشرفا فى كل من جروننجن وليدن ثم اصبح استادا لتاريخ الكنيسة واللغات الشرقية فى زيورخ - حاول تصوير الحياة والطبيعة الشرقية المتعددة الجوانب بقدر الامكان . وقد قدم فيه تاريخا مفصلا نسبيا للعرب ، وقدم فيه بوجه خاص ايضا تاريخ محمد وما يتصل به . وذلك كله فى شكل اكثر غزارة وثراء مما كان قائما حتى ذلك الحين .

(٩) يحيل بفانمولر هنا الى ص ١٣٢ حيث يشير هناك الى ان اول المصادر العربية التى رجع اليها الكتاب الغربيون فى الكتابة عن محمد صلى الله عليه وسلم كان كتاب ابن العبرى المشار اليه وكتاب ابي الفداء الذى نشره جانييه (سياى الحديث عنه فى هذا البحث ايضا) ، وأشار بفانمولر الى ان المصادر العربية الاقدم عهدا من هذين الكتابين لم تكن معروفة حتى ذلك الحين للعلماء الاوروبيين .

(١٠) هوتنجر : مستشرق سويسرى ، كان استادا للغات السامية فى كل من زيورخ وهايدلبرج . وقد صدر كتابه المشار اليه فى زيورخ عام ١٦٥١ وأعيد نشره عام ١٦٦٠ . ومن أعماله أيضا : فهرس المصنفات الشرقية ، ومعجم مختلف اللغات ، والآثار الشرقية ، ومجموعة مباحث شرقية .

وقد كان كتاب هوتنجر - الذى اعتمد فيه كثيرا على كتاب بوكوك المشار اليه (Specimen) يشكل بجانب كتاب بوكوك من الآن فصاعدا ولفترة طويلة الينبوع لتاريخ العرب . ولكن هوتنجر يرى فى مقدمة كتابه ان من الضرورى انه يجب عليه ان يعتذر اقيامه بتقديم عرض لحياة محمد وتعاليمه . ولكى يبرر عمله هذا يستشهد بعلماء من أمثال (بوللينجر Bullinger) و (ميكوتيسوس Myconius) و (بيلياندر Bibliander) ، وكذلك يستشهد بالشخصيات المعاصرة الشهيرة من أمثال (لامبرور L'Empereur) الأستاذ بجامعة ليدن .

وبالإضافة الى تشجيع (تقدم) التفسير والدفاع (١١) والتاريخ العام فقد كان هوتنجر يستهدف الوصول الى غايتين :

فقد حدث ان اتهم الروم الكاثوليك دعاة الاصلاح (الدينى) بالسير فى خفاء وراء المذهب المحمدى . وقد رد هوتنجر هذا الاتهام وأثبت فى فصل خاص - على سبيل المثال - ان حجج (بيلارمين Bellarmin) (١٢) فى الدفاع عن تعاليم الكنيسة الكاثوليكية مستقاة من علم العقيدة الاسلامى .

وبجانب ذلك يريد هوتنجر - كما سبق ان فعل (بيلياندر Bibliander) فى عصر لوثر - ان يسهم فى محاربة خيانة المحمديين وغدرهم ومحاربة السيادة التركية . ويعتقد هوتنجر ان تفسيد الديانة التركية يعد ايضا بمثابة توجيه ضربة للسيادة التركية .

وعلى الرغم من كل ذلك فقد كان يسود لدى هوتنجر السعى نحو انصاف الاسلام وانصاف مؤسسه بقدر الامكان .

* * *

٤ - ألكسندر روس (A. Ross) :

وبعد ظهور كتاب هوتنجر « تاريخ الشرق » بعامين ظهر فى انجلترا فى عام ١٦٥٣ أول كتاب فى تاريخ الأديان العام من تأليف ألكسندر روس

(١١) المقصود هنا تفسير الديانة المسيحية والدفاع عنها .

(١٢) روبرت بيلارمين (١٥٤٢ - ١٦٢١) كاردينال يسوعى ، كان فى طليعة المهاجمين للاصلاح الدينى الذى تم على يد مارتن لوثر وأتباعه .

تحت عنوان التقديس الشامل او (Pansebeia) ، وقد ترجم
ايضا الى الالمانية بعد ذلك بخمسة عشر عاما (١٣) .
ولم يبد روس في هذا الكتاب الجامع الا قليلا من التعاطف مع
اشكال المعتقدات الاجنبية ، ولم يبق لديه من هذا التعاطف بالنسبة
للاسلام بوجه خاص الا اقل القليل . صحيح انه يبرهن في فصل خاص
على ان محمدا لم يكن العدو الكبير للمسيح الذي نحدث عنه كل من بولس
في الاصحاح الثاني من رسالته الثانية الى اهل تسالونيكي وكذلك يوحنا
في سفر الرؤيا . ولكن روس رغم ذلك لا يريد ان ينكر « ان محمدا كان
عدوا للمسيح لاتيانه بتعاليم قام بترويجها تعارض الوهية المسيح » .

* * *

٥ - ماراتشى (Marracci) :
وقد قدم ماراتشى في كتابه « الرائد في تفنيد القرآن » نظرة على
حياة واعمال محمد مؤلف القرآن .
وقد حاول جاهدا - كما فعل بوكوك وهوننجر - ان يرجع الى
مصادر عربية . ويعبر ماراتشى هنا عن الغاية من وصفه لحياة محمد على
النحو التالي :
« اذا اردت ان اصيّر حياة محمد حسبا كتب في ذلك
مؤلفونا وكتابنا فساجعل نفسي مدعاة للسخرية لدى المحمديين . فالفرق
كبير جدا بين ما يروونه وما نروييه نحن لدرجة ان المرء لا يمكنه ان يصدق
ان كلا الجانبين يتناول بالحديث رجلا واحدا . ومن اجل ذلك فانتى اريد
ان اتابع اولئك ، ليس لاني اخذ كل شيء على انه حق ، بل لاننا اذا
تناولنا عدو الدين بالنقض والتفنيد فان محاربهه باسلحته هو افضل من
محاربهه باسلحتنا ، وحينئذ يسهل التغلب عليه .
وبالاضافة الى ذلك فان كثيرا من كتابنا يروون عن محمد اشياء
تثير الضحك لدى المحمديين ، ولا تجدى الا شي زيادة تقوينهم في
خرافاتهم . وعلى ذلك فانتى ساعتمد في الحديث عن حياة محمد على
اكثر المؤلفين العرب قدرا . واذا كنت على علم ايضا بان هؤلاء ياتون
بالكثير من الاكاذيب لاعلاء شان نبيهم الزائف فانتى لن اجعلهم يعتبروننى
كاذبا » .

(١٣) نشرت الترجمة الالمانية في هايدلبرج بالمانيا عام ١٦٦٨ تحببت
عنوان : « المبادئ المتباينة في المعالم كله » .

وعلى الرغم من ان ماراتشى - بناء على احاطته بالمصادر العربية قد استطاع ان يثبت اخطاء كثيرة لاسلافه في محاربة محمد فان محمدا قد ظل لديه هو النبي الزائف والمضل والغاصب ومؤسس طائفة تثير الاشمزاز ومؤلف كتاب مملوء بالتناقضات والخرافات الكاذبة والباطيل (١٤) .

٦ - بريدو (H. Prideaux) :

واذا كان ماراتشى قد كتب ما كتب بوصفه مجادلا كاثوليكيا واضحا ، له عرض اساسى يتمثل فى الدفاع عن المسيحية فى مقابل الديانة المحمدية ، فان العالم «دين همفرى بريدو» قد اراد بوصفه لحياة محمد ان يقدم للمؤلفين الطبيعيين (Deisten) فى عصره مرآة يرون فيها أنفسهم . ويصور محمدا ليس بوصفه أكبر الدجالين فحسب ، بل بوصفه ايضا احد المجرمين (١٥) . وحياة محمد ينبغى ان تكون بمثابة انعكاس لصورة

(١٤) لقد كان ماراتشى أحد رجال اللاهوت الايطاليين . أمضى حياته كلها فى اعداد دراسات هدفها البرهنة - كما يزعم - على بطلان الاسلام وحقيقة الديانة المسيحية . وقد صدر كتابه فى « تفنيد القرآن » عام ١٦٩١ وقدم فيه أيضا لمحة عن حياة محمد ، ثم نشر النص العربى الكامل للقرآن عام ١٦٩٨ مع ترجمة لاتينية مصحوبة بهوامش كثيرة ومحاولة فاشلة لنقض القرآن فقرة فقرة . وينطلق ماراتشى فى دراساته - مثلما يفعل غيره من اللاهوتيين ومعلم المستشرقين - من فرضية يضعونها كأنها حجة مسلمة ويبنون عليها كل مزاعمهم . وتتمثل هذه الفرضية فى أن محمدا ليس نبيا حقيقيا وأنه من الذى قام بتأليف القرآن . وقد سبق أن فعل الشيء نفسه مشركو مكة . وقد وصف « بفانمولر » نفسه موقف ماراتشى (ص ١١٦) بأنه « نفور داخلى ازاء محمد وتعاليمه » فكيف ينتظر منه - وقتلته ملء هكذا بالحد على الاسلام - أن يكون منصبا للاسلام ونبية ؟ وأين ذلك من تعاليم القرآن - التى لا بد أنه قد أطلع عليها - والتي تتمثل فى الانصاف المطلق الذى يعطو فوق كل اعتبار : « ولا يجرمكم ثمنان قسوم على الا تعدلوا ؟ اعدلوا هو أقرب للتقوى » - (المائدة : ٨) .

(١٥) همفرى بريدو (١٦٤٨ - ١٧٢٤) مستشرق انجليزى ، له دراسات عن ابن ميمون وعن العهدين القديم والجديد وصلتهما بتاريخ اليهود . وكتابه عن « حياة محمد » صدر فى لندن عام ١٦٩٧ وصدر بالفرنسية فى

مزعجة للكفار والملحدين والمؤلهين الطبيعيين والاباحيين . وقد اراد بريدو ان يكون كتابه مجرد جزء من تاريخ الكنيسة في الشرق وان يثبت فيه ان النبي كان بمثابة سرور الله لمعاقبة الكنائس الشرقية وحملها على التوبة النصوح .

٧ - بولانفلييه (Boulainvilliers) :

وفي حين كان كل من مارانتشي وبريدو يرى في محمد اكبر المضلين فقد ذهب الكونت بولانفلييه الى اقصى الطرف الآخر . وهنا يظهر لا بوصفه مؤرخا ، بل يظهر كمادح وكاتب روائى . وقد كان غرضه الواضح هو - ان يرفع من شأن الاسلام على حساب المسيحية - ومن اجل هذه الغاية عرض محمدا بوصفه انسانا واداة من خلالها ارتفعت العبادة الباطلة وحلت محلها العبادة الحقة . وقد مدح محمدا بأنه كان حكيما قام بتمدين شعبه وبانه كان اداة من ادوات الله وبانه اتى بدين عقلى (١٦) .

٨ - جاننييه (J. Gagnier) :

وقد حاول جان جاننييه - استاذ اللغات الشرقية في اكسفورد وخليفة بوكوك - ان يتجنب هذين الجانبين المتطرفين ، وذلك بوصفه لمحمد كما تظهره المصادر العربية . وفي عام ١٧٢٣ نشر حياة محمدا لابى الفداء (١٧) . (١٢٧٣ - ١٣٣١ ، انظر ص ١٢٨) بالعربية

استوكهولم عام ١٦٩٨ ، ويصف نجيب العقبتى هذا الكتاب بأنه « ترجمة تامة لا غناء فيها » . ويصف بغانمولر (ص ١١٦) موقف بريدو من محمد صلى الله عليه وسلم بنفس الوصف الذى وصف به موقف مارانتشي « النفور الداخلى ازاء محمد وتعاليمه » . وفي موضع آخر يصف موقفها بانسه « حماس حقود » (ص ١١٧) .

ومن هنا ينطبق على (بريدو) ما ورد في الهامش السابق .

(١٦) انظر ما ذكرناه عن بولانفلييه في العدد الاول من مجلة

مركز بحوث السنة والسيرة ص ٨٣ هامش رقم ١ .

(١٧) أبو الفداء : هو اسماعيل بن على الايوبى ، ولد عام ٦٧٢ هـ

في دمشق ، تولى امانة حماة وكان له نشاط علمى ملحوظ . واهم مؤلفاته

واللاتينية مع مقدمة وهوامش تدل على سعة علمه . ولكن جانبيه قام ببناء على طلب العديد من الشخصيات المعروفة التي أرادت أن تتعرف على محمد بالتفصيل ولم تكن تستطيع القراءة بالعربية أو اللاتينية - قام بتأليف كتاب عن محمد بالفرنسية .

وقد خصص جانبيه مقدمة هذا الكتاب بصفة رئيسية لتفنيد آراء بولانغلييه (١٨) . أما الكتاب نفسه فإنه يعتمد اعتماداً دقيقاً على المؤلفين العرب ويجعلهم يتحدثون بأنفسهم . أجل ، لقد احتفظ جانبيه بخشوع نبرة حديثهم ، ولم يمدح أو يلوم على الإطلاق ، ولم يصف شيئاً من عنده . فهو لا يريد أن يصف محمداً كما كان ، بل يريد فقط أن يجعل الأوروبيين يتعرفون على ما يرويه ويعتقده المسلمون الأصوليون !

ولكنه قد سار في هذا العمل بكثير من المهارة والذوق لدرجة أن كتابه قد اعتبره جميع العارفين منذ ذلك الوقت أفضل ما كتب عن سيرة محمد . وقد اعترف منه كثيراً أو قليلاً كل المؤرخين المتأخرين ممن كتبوا عن حياة محمد (١٩) .

* * *

كتابه « مختصر تاريخ البشر » الذي اهتم به جانبيه وغيره من المستشرقين . وفي هذا الكتاب قسم عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم . وله أيضاً كتاب « تقويم البلدان » في الجغرافيا . وقد وصف جورج سارتون أبا الفداء بأنه كان « أعظم جغرافي في عصره » . وفي ص ١٢٨ التي يحيل اليها بناموللر يذكر عدداً من المؤلفات الأوروبية التي اهتمت بكتاب أبي الفداء في التاريخ .

(١٨) عندما نشر بولانغلييه كتابه أخذ عليه المتعصبون من أهل ملته أنه يتحدث عن محمد صلى الله عليه وسلم بوصفه رسول العناية الإلهية . وقد اشترك جانبيه في الحملة ضد بولانغلييه كما هو واضح .

(١٩) ربما يعطى ما ورد هنا عن جانبيه انطباقاً بأنه كان منصفاً حقاً لمحمد صلى الله عليه وسلم . ولكن الحقيقة غير ذلك تماماً . فقد اعترف بناموللر في موضع آخر (ص ١١٧) بأن جانبيه قد وصف محمداً في مقدمة كتابه بأنه أكثر الناس شراً وبيانه عدو لدود لله ، ثم أضاف بناموللر إلى ذلك قوله : من هذا يقين لنا ماذا يفهم المرء من « حياضهم » . راجع تعليقاتنا على موقف جانبيه في العدد الأول ص ٨٤ هامش ١ .

٤ - جورج سيل (G. Sale) :

وبعد مرور عامين على ظهور كتاب حياة محمد لجانييه ظهرت في عام ١٧٣٤ الترجمة الشهيرة للقرآن التي قام بها جورج سيل (انظر ص ٢١٦) (٢٠) وفي « المقدمة التمهيدية » التي تدل على سعة الاطلاع حاول سيل أن يكون منصفاً لمحمد . فلم يكن محمد ابداً ... في رأيه - واحداً من امثال جبابرة الملحدين كما يتصوره المسيحيون عادة . والضرر الذي الحقه محمد بالمسيحية ينسب الى جهله اكثر مما ينسب الى خبثه (٢١) .



١٠ - ايرهارت (J. Ehrhardt) :

وهناك كتيب من تأليف ياكوب ايرهارت كان يعد بالنسبة لعصره جهداً جديراً بالاعتبار نقد فيه الأخطاء الاساسية للكتاب المعدودين وغير:

(٢٠) يحيل بفاتيولر هنا على ص ٢١٦ حيث تحدث هناك عن ترجمة سيل للقرآن من حيث كونها كانت وسطاً بين الترجمة الحرفية والترجمة الحرة ، ويشير الى ما فيها من قصور ثم يتحدث عن محتويات « المقدمة التمهيدية » التي كان لها صدى بعيد .

(٢١) يزعم المستشرقون واللاهوتيون ان محمداً صلى الله عليه وسلم لم يعرف التعاليم « الصحيحة » للمسيحية وبنى معارضته للتعاليم المسيحية على ما عرفه من صورة زائفة كانت شائعة حينذاك . ويعبر مستشرق معاصر هو « رودى بارت » عن ذلك بقوله : لقد كانت معلومات الناس من المسيحية في مكة في العصر الذي عاش فيه محمد معلومات بخنودة وناتئة ، ولم يكن المسيحيون العرب يسلكون النهج الصحيح في معتقداتهم ، وكانت تروج هناك آراء بدعية منحرفة . ولولا ذلك - كما يزعم بارت - لما كان محمد على علم بامثال تلك الآراء التي تتكر صلب المسيح وتذهب الى أن نظرية التثليث لا تعنى الآب والابن وروح القدس ، وإنما تعنى الله وعيسى ومريم الخ (راجع كتابنا : الإسلام في الفكر الغربي ص ٦٧ وما بعدهما) . وهكذا يفكر المستشرقون أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم قد تلقى معلوماته عن المسيحية من أعلى عن طريق وحي سماوى أراد الله به أن يصحح العقائد التي أفسدت عقول البشر على مر العصور .

المعدودين في عرضهم لتاريخ محمد ، وكشف فيه عن أسباب ذلك (٢٢) .
فهو يتناول - على سبيل المثال - الأخطاء المتعلقة بالترتيب الزمني
والأخطاء الجغرافية والأغلاط والأساطير المتعلقة بمعلمي محمد ، ويتناول
أعمال السلب والنهب واللصوصية التي نسبت إليه ، وما يقال عن معجزاته
وصورته ومرضه بالصرع وغير ذلك .

ثانيا : عصر التنوير الفرنسي

● فولتير (Voltaire) :

بعد تسع سنوات من ظهور حياة محمد لجان جانييه عرضت في عام
١٧٤١ مسرحية فولتير الشهيرة « التعصب أو محمد النبي » أول مرة في
(ليل Lille) . وفي هذه المسرحية يصف فولتير النبي بنفس
الطريقة القديمة بوصفه منافقا عديم الحياء ودجالا ، ومستبدا تحركه
الشهوات الحسية ووغدا متعطشا للدماء (٢٣) .

ولم يكن فولتير يريد بمسرحيته اطلاقا أن يصف محمدا كما يعرفه
التاريخ ، وإنما استخدمه فقط لكي يحول دفة الحديث ضد المسيحية
الكاثوليكية وضد خداع القساوسة والخرافات ، وضد الدين نفسه وما يرتبط
به ضرورة من نزعة التعصب .

(٢٢) ظهر كتاب ياكوب ابرهارت في مدينة أولم بالمانيا عام ١٧٣١
باللغة اللاتينية بعنوان : « حول أخطاء الكتاب المشهورين وغير المشهورين
في عرض تاريخ محمد وأسباب ذلك » .

(٢٣) لم يكن فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨) - وهو أديب فرنسي الشهير
وتعطب عصر التنوير الفرنسي - لم يكن يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم في
حقيقة الأمر بكل هذه الأوصاف ، كما يشير الى ذلك بفاتمولر عتب ذلك
مباشرة ، بل كان يعنى المؤسسة الكاثوليكية بكل ما تمثله . وأقل ما يمكن أن
يصف به المرء موقف فولتير هنا هو أنه نفاق كرية وتضليل متعمد وعميل
لا أخلاقي . وتعد عدل فولتير من موته بعد ذلك ونعت محمدا صلى الله عليه
وسلم بكل أوصاف التهجد والاكبار . ومن حسن الحظ أن هذا الموقف الأخير
هو الذي ذاع وانتشر في الأوساط الثقافية في فرنسا آنذاك كما يشير الى
ذلك بفاتمولر أيضا .

وبجانب هذه الصورة لمحمد نجد لدى فولتير صورة اخرى فى
مقالته الشهيرة عن الاخلاق (Essai sur les moeurs) . ففى هذه المقالة
لم يعد محمد يظهر بوصفه « كبير المنافقين » ، بل بوصفه الرجل العظيم
« بوصفه (كرومويل Cromwell) (٢٤) آخر ، جمع فى شخصه بين
الفاتح والمشرع والحاكم الواعظ ، ولعب اعظم الأدوار التى يمكن ان يلعبها
انسان على ظهر الأرض . وهنا نجد فولتير معتمدا بوضوح على بولانغويه .

▲ أثر كتابات فولتير فى الأوساط الثقافية :

لقد قرا الكثيرون مقالة فولتير (فى الاخلاق) بحماس . وسرعان
ما أصبح محمد موضوعا للأحاديث فى صالونات العصر . وبعض المتخلفين
عن الركب فقط مثل (ديدرو Diderot) فى كتابه « رسائل الى
صوفى هولاند » تجرا على القول بأن محمدا كان أفضل صديق للنساء
وأكبر عدو للعقل (٢٥) . وفى مقابل هذه الآراء القديمة داب الموسوعيون
وأصدقاؤهم على تكرير صيغ فولتير مع مبالغات مماثلة .

وعلى الرغم من اعجاب ديدرو الخفى بمحمد فإنه يصفه بأنه مشرع
ماهر ورسول من رسل الفضيلة . وقد أتى الجماعون (Kompilatoren)

(٢٤) أوليفر كرومويل (١٥٩٩ — ١٦٥٨) رجل دولة انجليزى
عظيم وقائد جيش شهير ، وضع حدا للحرب الأهلية فى انجلترا آنذاك ، وعاد
حروبا ناجحة ضد هولندا واسبانيا وبذلك نهض بقوة انجلترا البحرية
والتجارية . وكان أيضا من أتباع المنظرين المتشددين ، وهم البروتستانت
الانجليز الذين أرادوا أن يعيدوا للكنيسة طهارتها متخليصا من كل أخطاء
الكاثوليك .

(٢٥) دينيه ديدرو (١٧١٣ — ١٧٨٤) أحد اعلام الكتاب فى عصر
التنوير الفرنسى ، كان رئيس تحرير دائرة المعارف الفرنسية الشهيرة
ومؤلف العديد من مقالاتها . وله العديد من الروايات والمسرحيات الفكاهية
ووصفه هنا للنبي صلى الله عليه وسلم بأنه « كان أفضل صديق للنساء .
وأكبر عدو للعقل » بجانب وصفه له بعد ذلك بأنه « مشرع ماهر ورسول
من رسل الفضيلة » يدل على التخييل والتناقض ، اذ كيف يوصف المشرع الماهر
الداعى الى الفضيلة بأنه عدو للعقل ؟ ومن ناحية اخرى فإن من العلوسوم أن
النبي صلى الله عليه وسلم قد أوصى بالنساء حرا فى حديث مشهور .
وهذا أمر يحسب للاسلام لا عليه .

أو الكتاب المولعون بالجمع - كما يحدث دائما - لكي يستغلوا هذه الشهرة الجديدة . وهكذا قام (توربين Turpin) بتعريف جمهوره - في مجلدات تفنّد الأصالة لكنها مكتوبة بأسلوب سهل - بهذا الفيلسوف (يقصد محمدا) الذي ثقفته الطبيعة والمشرع الذي لم يعتمد على عون من جاسب العلوم .

وقد بدأت الأكاديميات نفسها التي تأثرت بالحركة (الجديدة) بدأت في تنافسها على وضع محمد كموضوع للمديح . وقد كان ذلك هو التدشين الرسمي للانتصار محمد .

وهكذا وضعت « أكاديمية النقوش والآداب » موضوعا للمسابقة بعنوان « زرادشت وكونفوشيوس ومحمد : مقارنتهم بوصفهم أصحاب مذاهب ومشرعين وأخلاقين » . وقد فاز في هذا الصدد (باستوريت Pastoret) .

وفي عام ١٨٠٥ أعلن قسم التاريخ والآداب الكلاسيكي بالمعهد عن مسابقة موضوعها : « تأثير محمد أثناء القرون الثلاثة الأولى بعد الهجرة » . وقد حصل أحد الألمان وهو (أولزнер Oelsner) على أحد جوائزها .

ومنذ ذلك الوقت فصاعدا بدأ الجميع يقرؤون القرآن الكريم وقد امتدح المرء أفكار محمد السياسية ونظرياته الأخلاقية ونظامه التشريعي . وأخيرا قدم سافاري ترجمة جديدة للقرآن (انظر ص ٢١٥) (٢٦) .

* * *

(٢٦) يحيل بيغتهولر هنا الى ص ٢١٥ حيث أشار هناك الى ترجمة سافاري للقرآن التي ظهرت في باريس عام ١٧٨٣ وجاءت عقب ترجمات سيئة أخرى تركت في النفوس انطباعات سيئة عن القرآن ومضمون وأسلوبه الخ .

ثالثا : من عصر التنوير الالماني الى ظهور اول كتاب تاريخي
تقدى عن حياة محمد من تأليف جوستاف فايل

١ - ليبنتز (Leibniz) :

لقد امتدح ممثلو عصر التنوير الالماني محمدا بوصفه داعية للدين
الطبيعى . وكتب ليبنتز (٢٧) - على سبيل المثال - فى مقدمة كتابه
« فى العدالة الالهية » يقول : « لم يبتعد محمد ايضا من هذه التعاليم
العظيمة للدين ، وقد قام أتباعه بنشرها بين الشعوب فى أقصى بلاد
آسيا وافريقيا ، تلك البلاد التى لم تكن المسيحية قد دخلتها بعد .
وقد قضوا فى كثير من البلاد على الخرافات والمعتقدات الوثنية التى
كانت تقف موقفا معارضا للتعاليم الحققة التى تتمثل فى وحدة الله
وخلود النفس » .

* * *

٢ - ليسنج (Lessing) :

أما ليسنج (٢٨) فإنه يعبر فى أحد أعماله « انقاذ هيرونيوموس
كاردانوس » عن الاقتناع « بأن الأخبصار التى كانت معروفة فى عصر
(كاردانوس Cardanus) (٢٩) عن محمد وتعاليمه كانت اخبارا قاصرة

(٢٧) جوتفريد فلهلم ليبنتز (١٦٤٦ - ١٧١٦) فيلسوف ألماني
شهير ، كان صاحب عقلية موسوعية نادرة وكانت له جهود وإبتكارات فى
مجالات علمية وفلسفية عديدة ، وهو صاحب نظرية الذرات الروحية فى
الفلسفة وهى نظرية تقول بأن الكون مؤلف من جواهر بسيطة روحية كل منها
يمثل الوجود كله .

(٢٨) ليسنج « جوتهولد امسرايم » (١٧٢٩ - ١٧٧٨) من
أعظم أدباء ألمانيا فى القرن الثامن عشر ، عمل على تحرير الفكر الالماني
من الاعتماد على النماذج الفرنسية . وقد أصبح أسلوبه نموذجا يحتذى فى
النثر الأدبى ، كتب عددا من المسرحيات الفكاهية وله أعمال أدبية أخرى
مشهورة .

(٢٩) كاردانوس (١٥٠١ - ١٥٧٦) طبيب ايطالى وعالم فى
الرياضيات ، كتب سيرة حياته بنفسه ، وله جهود فى مجال الرياضيات
معروفة باسمه .

جدا وممزوجة بألف من الأكاذيب التي كان المجادلون المسيحيون مولعين بأخذها على أنها حقائق ، اذ أنهم بذلك يكون لديهم لعبة اسهل . ولم تصل اليها معرفة امينة عن ذلك - اى عن محمد وتعاليمه - قبل مؤلفات كل من ريلاند وسيل ، تلك المؤلفات التي اطلعتنا فى الاغلب على ان محمدا ليس دجالا عابثا ، وان دينه ليس مجرد نسيج من الاباطيل والمتناقضات المرصوفة بجوار بعضها .

وفى « شذرات فولفنبوتل » يرجع ليسنج تعاليم محمد الى الدين الطبيعى كما فعل ليبنتز :

« صحيح ان قرآن محمد والعقيدة التركية لهما لدينا سمعة سيئة ، وليس ذلك فقط لان مؤسس هذا الدين قد استخدم التضليل والعنف . بل لان هناك ايضا (فى هذه العقيدة) كثيرا من الحماقات والأضاليل مختلطة ببعض العادات الخارجية الوافدة التى لا ضرورة لها (٣٠) . ولست اريد ايضا ان اتحدث باسمه - اى باسم محمد - ، واقل من ذلك كثيرا ان ارفع من شأنه على حساب الديانة المسيحية . ولكنى على يقين من ان هناك من بين من يحملون الديانة التركية مسئولية هذا او ذاك من الأخطاء قلة قليلة جدا ممن اطلع على القران . وان هنالك أيضا قلة قليلة جدا من بين هؤلاء الذين قراوه كان لديهم القصد لاعطاء كلمات (القران) معنى معقولا يمكن للمرء ان يفهمه . وفى وسعى - اذا كان هذا مقصدى الاساسى - ان ابين أفضل ما فى الدين الطبيعى من القران معروضا بوضوح ومعبرا عنه الى حد ما تعبيرا جميلا .

« واعتقد اننى ساجد بسهولة الاستحسان فى ذلك لدى الفاهمين اذا قلت ان كل شىء جوهرى فى تعاليم محمد يكاد ان يودى الى الدين الطبيعى . وقد امتدح العالم (توماس هايد Thomas Hyde) (٣١) فى

(٣٠) على الرغم من أن ليسنج قد تحدث حديثا طيبا عن الإسلام بعد هذه العبارات الا أنه فى هذه العبارات السابقة يخلط - كما يفعل غيره كثيرون أيضا - بين الإسلام كدين وتعاليم وبين عادات وتقاليد أو سلوكيات معينة للأتراك العثمانيين فى ذلك الزمان . وقد كانت الدولة العثمانية لا تزال حينذاك ذات قوة مؤثرة فى المسالم ، وكانت أوروبا لا تزال تخشى بأسها وتصيب لها ألف حساب .

(٣١) توماس هايد (١٦٣٦ - ١٧٠٢) مستشرق انجليزى ، كان أستاذا للدرية والعبرية فى أكسفورد .

كتابه (تاريخ ديانة الفرس القدماء واصحاب مذاهب السحر ، ١٧٠٠ ، ص ٢٣) وهو من العلماء الذين يتحتم على المرء أن يعدهم من العارفين وأن يعدهم كذلك من المحايدين - امتدح محمدا بوصفه مجددا للدين الحقيقي لابراهيم » .

« واما جورج سيل - الذي يعد اوثق المترجمين والمفسرين للقرآن - فانه يبين في مقدمته للقرآن ان مبدا تعاليم محمد يقوم على توحيد الله او على حقيقة انه لا يوجد ولا يمكن أن يوجد هناك الا اله واحد ، وان القصد الذي يتمثل في نقل العرب المشركين من الوثنية الى معرفة الله الواحد كان قصدا نبيلاً ومحموداً جداً ، وأن السيد « بريدو » قد زعم بلا سبب ان محمداً قد اتى للعرب بدلا من الوثنية بدين سئء مثل الوثنية . ويقول السيد « سيل » بان الحث على الأخلاق الطيبة والفضائل التي يشتمل عليها القرآن ، وبصفة خاصة الحث على عبادة اله واحد حق تعد امورا ممتازة الى حد ما لدرجة ان المسيحي يود أن يراعيها حقا » .

وفي بداية السبعينات من القرن الثامن عشر ظهر في الوقت نفسه تقريبا عالمان المانيان بترجمتين للقرآن من النص الأصلي قضييا في اعدادهما زمنا طويلا وهما (دافيد فريدريش ميگرلين Megerlin) و (فريدريش ايرهارد بويزن Boysen) (ص ٢١٧) (٢٢) . وقد ثبت ان جوته قد استخدم ترجمة اولهما .

٣ - جسوته (Goethe) :

وقد اهتم جوته (٣٣) اثناء حياته كلها اهتماما كبيرا بمحمد ، كما بين ذلك (ياكوب مينور Minor) بالتفصيل في كتابه « محمد لدى

(٢٢) أشار بفانمولر في ص ٢١٧ الى هاتين الترجمتين ، وذكر أن الترجمة الأولى قد ظهرت عام ١٧٧٢ واعتمد فيها ميگرلين بجانب النص الأصلي على ترجمات سابقة في لغات أخرى . أما الترجمة الثانية فقد ظهرت عام ١٧٧٣ ، ويرى بفانمولر أنها أفضل من الترجمة الأولى .

(٢٣) يوهان فولفجانج فون جسوته (١٧٤٩ - ١٨٣٢) يعد أعظم شعراء ألمانيا على الاطلاق ، كان منصفا للشرق وللإسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام ، قرأ القرآن وتأثر به واقتبس منه الكثير وبخاصة في الديوان الذي أطلق عليه اسم « الديوان الشرقي الغربي » .

جوته « (٣٤) وفي خريف عام ١٧٧٣ ظهر « نشيد محمد » وفيه يفارن جوته محمدا بنهر ينمو باستمرار ويجذب في سيره اخوته معه الى الأب الخالد .

وفي كتابه « الشعر والحقيقة » يقول جوته ان هذا النشيد المدحى كان قد قصد به في الاصل ان يكون اضافة شعرية لمسرحية عن محمد كان قد خطط لها . وقد كان يريد ان يصور فيها كيف تؤثر العبقرية في الناس عن طريق الاخلاق والعقل ، وكيف تنتصر العبقرية في ذلك وكيف تخسر .

وفي عام ١٧٩٩ عاد جوته مرة اخرى الى الاستغفال بموضوع محمد بأن قام - بناء على رغبة الدوق (كارل أوجسطس Augustus) - و ضد ارادته هو تماما - بترجمة مسرحية فولتير عن محمد واعدادها للمسرح .

وهناك لخيرنا اكثر من اثنتى عشرة قصيدة من اشعاره في « الديوان الشرقى الغربى » تهتم بمحمد وبالقُرآن . وفي الملاحظات والمقالات حول هذا الديوان يعود جوته - بوصفه مؤرخا - للحديث عن محمد وتعاليمه .

٤ - جيبسون (Gibbon) :

وفي السبعينات من القرن الثامن عشر ظهر ايضا الكتاب الشهير لجيبسون (٣٥) عن « تاريخ انهيار وغروب الدولة الرومانية » - ويتخذ جيبسون ازاء محمد نفس الموقف الذى اتخذه توربين والذى يتمثل في ان مآثر محمد قد رفع من شأنها - فى رايه - تشويهات المسيحيين غير الحكيمة اكثر بكثير مما حققت منها . ولا يريد جيبسون ان يقرر ايضا ما اذا كان

(٣٤) نشر هذا الكتاب فى بينا بألمانيا عام ١٩٠٧ .

(٣٥) ادوارد جيبسون (١٧٣٧ - ١٧٩٤) مؤرخ انجليزى شهير . وقد ظهر كتابه المشار اليه فى عامى ١٧٧٧/١٧٧٨ وترجم الى الألمانية عام ١٩٠٣ .

محمد متحمسا او دجالا لانه ليست هناك الا خطوة واحدة فقط من
التحمس الى الدجل (٣٦) .

* * *

٥ - هردير (Herder) :

وعلى العكس من ذلك فانه لم يكن هناك مجال للشك لدى هردير (٣٧)
في ان محمدا كان في الحقيقة متحمسا (Schwärmer) . ويصف هردير
محمدا بأنه : « مزيج خاص من كل ما يمكن ان تعطيه الأمة والقبيلة
والزمان والمكان . فقد كان تاجرا ونبيا وخطيبا وشاعرا وبطلا ومشرعا ،
وكل ذلك حسب الطريقة العربية » .

ويبدو ان سبب نبوته يتمثل في البغض لشناعة عبادة الأصنام
والتحمس لتعاليم توحيد الله وطريقة التعبد له بالطهارة والذكر والعمل
الصالح . « وقد كانت التقاليد الفاسدة لليهودية والمسيحية ، وطريقة
التفكير الشاعرية لأمتة ولغة قبيلته ومواهبه الشخصية - كانت كلها كأنها
الأجنحة التي حلقت به فوق نفسه وخارج نفسه » .

ولكن هردير يعبر عن حكمه على القرآن على النحو التالي :
« هذا الخليط الفريد من فن الشعر وحسن البيان والجهل والذكاء
والتكبر هو مرآة نفسه التي تبين مواهبه ونقائصه وميوله وأخطائه
وخداع نفسه والمعونات الوقتية التي خدع بها نفسه وخدع الآخرين ،
وذلك (كله) بدرجة أكثر وضوحا مما يتبين في أي قرآن آخر لنبي
من الأنبياء » (٣٨) .

* * *

(٣٦) اذا كان جيبون لم يستطع أن يدرك الفرق بين الحماس الديني
الحقيقي والدجل فلمعه كان في وسعه أن يدرك الفرق بين الحق والباطل
لو تجرد لطلب الحقيقة بعيدا عن الأهواء والأحكام السابقة . والفرق بين
الحق والباطل ليس مجرد خطوة واحدة بل هو فرق ما بين السماء والأرض .
(٣٧) يوهان جوتفريد فون هردير (١٧٤٤ - ١٨٠٣) كاتب المسمى
معروف وعالم في اللاهوت . ومن مؤلفاته « أفكار لفلسفة تاريخ الانسانية »
وقد تأثر به جوته في شبابه .

(٣٨) الفكرة الأسانسية المسبقة لدى هردير وأمثاله هي أن القرآن
من تأليف محمد ، ولذلك فهو مرآة نفسه وإنتاج عقله . ومن هنا ماذا ورد

٦ - أولزرنر (Oelsner) :

وعلى اكتاف هرر يبرز أولزرنر فى بداية القرن التاسع عشر بكتابه الذى نال به أحد الجوائز فى عام ١٨٠٩ . وعندده يعد محمد فى الأصل متحمسا وجد الدليل على بعثته فى قوة اعتقاده فقط ، ومن السهل ان يخلط المرء بينه وبين مجرد انسان دجال . واذا لم تكن هناك أيضا اغراض طموحية قد عملت على تحريكه فى البداية فانها قد اتت فى اعقاب الحماس . وبنفس القدر الذى برد فيه الحماس لقضية الله او قضية الوطن اشتد لديه الغرض الأنانى عن طريق كل الوسائل المساعدة التى اكسبها له حماسه النارى السابق . وبطبيعة الحال لا يمكن تحديد التوقيت الذى انتهى فيه خداع الذات وبدا فيه الدجل تحديدا دقيقا (٣٩) .

ويصف أولزرنر محمدا بالتفصيل بأنه الداعى لئله الواحد وبأنه استاذ فى الديبلوماسية وبأنه رجل دولة وقائد جيش عبقرى . ولكن بمرور الزمن تحول دينه من دين يدعو للسلام ويمقت الحرب الى دين للسيف ، وان كان أولزرنر أيضا - كما كان فولتير من قبله - لا يرى اطلاقا ان التجاحات التى حققها الاسلام يعود الفضل فيها الى السيف وحده .

* * *

فى القرآن أنه وحى الله اعتبروا ذلك نوعا من الخداع أو التضليل .
وإذا كان هذا هو موقفهم الأساسى الذى يسيطر عليهم قبل التعرف على القرآن فلن يصلوا الى حقيقة الاسلام أبدا الا اذا أزالوا من على أعينهم وقلوبهم هذه الغشاوة المتمثلة فى الأوهام والأحكام السابقة ، وتخلصوا من التعصب الذى يحجب عنهم نور الحقيقة .

(٣٩) هذه كلها مزاعم لا تعتمد على أى أساس من الواقع ولا من التاريخ ، وتدخل كلها فى باب التخمينات والظنون . وما قام به النبى صلى الله عليه وسلم فى المدينة من تنظيم المجتمع وتأسيس الدولة والدفاع عنها بكل الطرق المشروعة يعد جزءا لا يتجزأ من الاسلام الذى جاء نطابا للحياة بكل جوانبها . وإذا كان هذا يخالف مفهوم الدين لدى الغربيين فعليه أن يعيدوا النظر فى أفعالهم وتصوراتهم بدلا من خداع النفس بأنهم هم وحدهم أصحاب الحق والحقيقة .

٧ - رينو (Reináud) :

وقد قدم رينو (٤٠) للبحث فى حياة محمد اسهاما يمتاز بقيمة خاصة فى العرض الموجز الذى قدمه عن حياة محمد فى كتابه « الآثار الفارسية والعربية والتركية فى ديوان السيد الدوق دو بلاكا » (باريس ١٨٢٨) . وقد قام رينو فى عام ١٨٦٠ باكمال هذا العرض الموجز بصورة هامة على أساس ما صدر منذئذ من مراجع ، ونشره كمقال ضمن « تراجم عامة جديدة » التى اصدرها (ديدو Didot) .

وفى هذه المقالة يقدم رينو فى البداية وصفا تفصيليا لحياة محمد بناء على اقدم وأوثق الشواهد والأدلة ، وبصفة خاصة بناء على القرآن الذى يعد اهم مصدر معاصر لمحمد ، ثم يرسم رينو صورة واضحة لشخصية النبى ، ويتبع ذلك بوصف للمصادر الرئيسية لحياة محمد وتعاليمه وأولها الحديث وأقدم التراجم العربية ، ثم يصف رينو القرآن بتفصيل خاص ، وبالإضافة الى ذلك يتناول بعض مسائل جزئية هامة من مسائل البحث فى حياة محمد ، ومن أمثلة ذلك :

هل كان محمد مصابا بالصرع ؟

كيف كان محمد يتلقى الوحي ؟

هل كان محمد يستطيع الكتابة ؟

وفى النهاية يتناول رينو علاقة محمد بالملك جبريل ويتناول اهم تفاسير القرآن واهم النشرات والترجمات للقرآن . وقد أضفى البيان الوافر للمراجع على المقالة قيمة خاصة ، تلك المقالة التى قدمت صورة ممتازة لمستوى البحث فى حياة محمد فى عام ١٨٦٠ .

(٤٠) جوزيف توسن رينو (١٧٩٥ - ١٨٦٧) مستشرق فرنسى ، كان أمينا لقسم المخطوطات الشرقية فى مكتبة باريس ، وأستاذا للغة العربية فى مدرسة اللغات الشرقية ، وله جهود علمية فى مجالات الأدب العربى والتاريخ تأليفا وتحقيقا وترجمة .

٨ - هامر بورجشتال (Hammer - Purgstall) :

أما المستشرق الشهير يوسف فون هامر - بورجشتال (٤١) - الذى كان لمؤلفاته تأثير قوى على جوته - فقد تناول محمدا أيضا فى المقام الأول فى كتابه « صور لحياة الحكام المسلمين العظام » . وقد عرف برجشتال جزءا فقط من سيرة ابن هشام . وفى مقابل ذلك كانت أهميته ثلاثة من الكتب الأخرى التى استخدمت هنا للمرة الأولى من جانب أحد الأوربيين وهى :

« الخميس » للحسين الديار بكرى (٤٢) ، ووصف لحياة محمد باللغة الفارسية من تأليف عبد الله ، والترجمة التركية لقصص النبى من تأليف ابراهيم الطيبى (٤٣) والتى طبعت فى القاهرة عام ١٨٣٣ م .
ويلخص هامر برجشتال حكمه على محمد فى نهسايه كتابه على النحو التالى :

« على الرغم من ضلال شهوانيته ، وعلى الرغم من الجرائم التى سولتها لنفسه حدة الطبع ، وبصفة خاصة الثار لشرفه المهان عن طريق السخرية والاستهزاء (٤٤) ، وعلى الرغم من وجهة النظر المتناقضة التى

- (٤١) بورجشتال (١٧٧٤ - ١٨٥٦) مستشرق نمساوى شهير . له دراسات عديدة فى تاريخ الشرق وآدابه وتاريخ الاسلام . أصدر أول مجلة استشرافية متخصصة فى أوروبا عام ١٨٠٩ هى مجلة « ينايسع الشرق » . وأهم مؤلفاته : تاريخ الدولة العثمانية فى عشرة مجلدات ، وتاريخ الآداب العربية فى سبعة مجلدات .
- (٤٢) هو حسين بن محمد الديار بكرى (توفى حوالى ١٥٧٤ م) تولى القضاء فى مكة ، وكان شافعى المذهب . ومن مصنفاته « تاريخ الخميس فى أحوال أنفوس نفيس » تناول فيه سيرة النبى صلى الله عليه وسلم وتاريخ الخلفاء الى السلطان مراد العثماني .
- (٤٣) هو ابراهيم بن محمد بن ابراهيم الطيبى (توفى عام ٩٥٦ هـ) . فقيه حنفى من أهل حلب . تفقه بها وبمصر ثم استقر فى القسطنطينية وتوفى بها . وأشهر كتبه « ملئقى الأبحر » ومختصر طبقات الحنابلة وتلخيص القاموس المحيط (راجع الأعلام للزركلى) .
- (٤٤) المعروف أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد تزوج خديجة - التى كانت تكبره بسنوات - وعمره خمس وعشرون عاما ، وكان قد سبق

عبر عنها مؤرخون مشهورون ومستشرقون والتي تتمثل في ان محمدا لم يكن الا مجرد كذاب ودجال من منطلق حبه للسيطرة - على الرغم من كل ذلك فاننا يجب ان نثبت على رأينا وهو ان محمدا لم ينطلق فقط من الفكرة العظيمة التي تتمثل في هداية شعبه من ضلال الوثنية الى الطريق المستقيم بعبادة الله وحده ، بل كان يتمتع ايضا بمواهب شعرية ومشاعر دينية حية ، وكان مقتنعا ببعثته في ساعات حماسه ، ورأى - كما رأى غيره من الانبياء الذين سبقوه - انه أداة السماء لهداية شعبه ، وأنه مؤسس واحد من الأديان الثلاثة التي انتشرت من مصر وسوريا وبلاد العرب الى كل بقاع الأرض وأنه خاتم الانبياء واللبنة الأخيرة .

٩ - كارلايل (Carlyle) :

وفي عام ١٨٤٠ ظهر الكتاب الشهير لكارلايل (٤٥) « حول الأبطال وتقدير الأبطال » الذي خصص فيه المحاضرة الثانية للحديث عن محمد وعن الاسلام . وكارلايل لا يعتبر محمدا احق الانبياء ، ولكن يعتبره نبيا حقيقيا . اما الراى السائد عن حقيقة محمد والذي يتمثل في انه كان دجالا متعمدا وان دينه عبارة عن خليط من الدجل الطبى والاسفاف فان كارلايل يعتبره رايا باطلا .

لها ان تزوجت قبل ذلك مرتين ، وظلت له زوجة وحيدة الى ان ماتت بعد ان أمضى معها ثمانية وعشرين عاما . وبعد ذلك - أى وهو فى العقد السادس من عمره - تزوج سودة بنت زمعة أرملة احد صحابته ثم تزوج باقى نساءه لأسباب انسانية نبيلة أو أهداف تشريعية . فأين هنا ضلال شهوائيته المزعوم ؟ . أما الثار لشرفه المهان وحده الطبع . الخ . فهذا لم يعرف منه اطلاقا . فقد كان « رحمة للعالمين » . تمكن من أهل مكة الذين لاقى هو وأصحابه على أيديهم الأمرين وكان يستطيع أن يجمعهم ويأمر بقتلهم جزاء وثاقا على ما اقترحوه فى حقه وحق أصحابه من جرائم ، ولكنه عفا عنهم يوم فتح مكة عفوا مطلقا وقال قولته الشهيرة : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

(انظر كتابنا : الاسلام فى الفكر الغربى ص ٢٨ ، ٢٩ ، ٤٧) .

(٤٥) ترماس كارلايل - أو : كارلايل (١٧٩٥ - ١٨٨١) مؤرخ انجليزى وأحد فلاسفة الحضارة . وقد قام الأستاذ على أدهم بترجمة الجزء الخاص بالنبي صلى الله عليه وسلم فى كتاب « الأبطال » الى اللغة العربية .

« فالأكاذيب التي عمل على تراكمها الحماس المنبعث بحسن نية حول هذا الرجل (يقصد محمدا) لا تسب احدا غيرنا » . وأكثر من ذلك يصف كارلايل محمدا بأنه كان « نفسا عظيمة وهادئة ، لقد كان واحدا من هؤلاء الذين استطاعوا ان يأخذوا الأمور بجديّة ، والذين وجهتهم الطبيعة نفسها لكي يكونوا مستقيمين » . فالأصالة والاستقامة هما الصفتان المميزتان لأخلاقه . ولكن هذه الاستقامة كانت تشتمل على شيء الهى ، « فكلمة مثل هذا الانسان هي صوت مباشر من قلب الطبيعة الحقيقية » .

ولم يكن محمد في حياته الشخصية من عشاق اللذة على الاطلاق . فقد كان متاع بيته يعد من أكثر الأمور اعتدالا . ومع ذلك « فلم يحظ أي قيصر بتاجه بالطاعة مثلما حظى هذا الرجل بردائه الذي كان يرقعه بيده » .

اما القرآن فان كارلايل يطلق عليه انه « بلبله ثقيلة ومحيرة ، فهو ساذج ومجذب ، يشتمل على تكرير واسهاب وتشابك لا حد له ، وهو جاف وغير ناضج ، وباختصار هو سخف لا يطاق » (٤٦) . ومع ذلك تكمن فيه قيمة أخرى تختلف تماما عن القيمة الأدبية . فهو بمثابة تخمر مبهم لنفس انسانية كبيرة وساذجة ، غير ناضجة وغير مثقفة ولم تكن تستطيع حتى أن تقرأ ، ولكنها نفس جادة وتفيض حماسا وتسعى سعيا جبارا لكي تعبر عن ذاتها في كلمات » .

(٤٦) لقد تحدث كارلايل حديثا ايجابيا تماما عن محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكنه عاد وخيب الأمل برأيه في القرآن . وهذا الرأي ينبغى - في نظرنا - على أمرين هما : أولا : الموقف الأساسي الغربي الذي يصر على أن القرآن من تأليف محمد . وكارلايل - كما هو واضح - لا يشذ عن هذا الموقف . ثانيا : الترجمات السيئة للقرآن والتي تعطي مثل هذا الانطباع الذي تحدث عنه كارلايل .

ولا نريد أن نتجنى على كارلايل ونقول انه قد تعمد الإساءة للقرآن . ولكن الأمر الذي لا ينبغى أن يغيب عن الأذهان هو أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان متخلقا بأخلاق القرآن كما قالت عنه مائسة رضى الله عنها . فكيف يمكن لكتاب يشتمل على بلبله ثقيلة ومحيرة وعلى سخف لا يحتمل . . . الخ أن يخرج لنا هذه الشخصية العظيمة التي تحدث عنها كارلايل نفسه بكل اكبار وتعظيم . . اليس في ذلك ما يدعو الغربيين الى إعادة النظر في تلك الأحكام الجائرة على أقدم مقومات الاسلام وهو القرآن ؟

رابعاً : الكتابة التاريخية النقدية لحياة محمد فى القرنين التاسع عشر والعشرين

١ - جوستاف فايل (Weil) :

لقد افتتح عام ١٨٤٣ حقبة جديدة فى البحث فى حياة محمد .
فقد ظهر فى هذا العام أول عرض تاريخى نقدى لحياة محمد من تأليف
جوستاف فايل (٤٧) . وكانت كل الكتابات عن حياة محمد حتى ذلك
الوقت لا تزال تستند باستمرار بدرجة ثقل أو تكثر على كتاب جان جانييه
الذى ظهر قبل ذلك بقرن من الزمان . ولكن جانييه - كما رأينا
(ص ١٧١) (٤٨) - لم يضع لنفسه مهمة وصف محمد كما كان ،
بل كان يكتفى بترجمة المصادر العربية ويضعها ببساطة بجوار بعضها
دون أى نقد . ولم يخطر ببال أحد ممن جاءوا بعده أن يقارنوا الترجمة
التي قدمها بالنصوص الأصلية ولم يخضعوا مضمونها لنقد تاريخى .
فقد أخذ كل منهم منها ما استطاع أن يستخدمه فى كتاباته . وإذا حدث
أن استخدمت بعد ذلك مصادر أخرى لسيرة محمد غير تلك التي كانت
متوفرة لجانييه فإن ذلك كان يحدث بسطحية وغفلة لا تليقان بالتاريخ .
ويتمثل الفضل الكبير لفايل فى انه أول من قام بالمحاولة التالية :

أولاً : بحث ما قرره العرب حول مؤسس الاسلام بحثاً نقدياً وعزل
الوقائع التاريخية الموثوق بها من الأساطير المتأخرة .

ثانياً : بحث طبيعة محمد بوصفه انساناً ونبياً ومشروعاً دون الوقوع
تحت أسر مذهبى .

(٤٧) جوستاف فايل (١٨٠٨ - ١٨٨٩) مستشرق ألماني ،
كان أستاذاً للغات الشرقية . قام بترجمة كتاب « الف ليلة وليلة » الى
الألمانية ، ثم توهم على دراسة التاريخ الاسلامى . وأهم مؤلفاته -
فضلاً عن كتابه عن حياة محمد (١٨٤٣) - مقدمة تاريخية نقدية فى
القرآن (١٨٤٤) وتاريخ الخلفاء - فى ثلاثة مجلدات (١٨٤٦ - ١٨٥١)
وتاريخ الخلفاء العباسيين فى مصر (١٨٦٠ - ١٨٦٢) . راجع :
(Fueck , p. 175) .

(٤٨) أنظر ما سبق ذكره فى ذلك عند الحديث من جانييه فذلك
ما يعنيه بفانولر هنا فى أحالته الى ص ١٧١ .

ثالثا : واخيرا ، ترتيب القرآن - الذى يمثل مزيجا مختلف الالوان من الاناشيد والصلوات والاساطير والعقائد والمواعظ والقوانين والتنظيمات - ترتيبا زمنيا .

ومن اجل هذا الغرض درس فايل القرآن بتفسير الجلالين (ص ٢٢٧) (٤٩) ، وبالهوامش العلمية لكل من مارانتشى (ص ٢١٤) وسيل (ص ٢١٦) (٥٠) وان كانت هذه الهوامش ليست دائما تعد صائبة .

وبعد ذلك اعاد فايل قراءة تاريخ ابنى الفسداء من جسد (ص ١٢٨) (٥١) ، وكان (نويل فرجيه Noël des Vergers) (٥٢) قد بذل فى هذا الكتاب جهدا مشكورا كناشر ومترجم وشارح . فضلا عن ذلك درس فايل بالاضافة الى جانبيه مختلف تسير الاوروبية الصغيرة لحياة محمد ، وبوجه خاص تلك التى كتبها رينسو (ص ١٧٥ وما بعدها) (٥٣) ، وقرا ايضا مؤلفات (جايجر Geiger) (ص ١٠١ وما بعدها) (٥٤) ، ومؤلفات (جيروك Gerock) (ص ١٠٩ وما بعدها) (٥٥) عن علاقة المذهب المحمدى باليهودية والمسيحية .

(٤٩) أشار بفانموللر فى ص ٢٢٧ الى أن كتاب تفسير الجلالين لجلال الدين المحلى وجلال الدين السيوطى من أكثر الكتب استخداما لدى المستشرقين لتسهيله استعماله .

(٥٠) فى ص ٢١٤ تحدث بفانموللر عن ترجمة مارانتشى للقرآن وجهوده فى هذا الصدد وفى ص ٢١٦ تحدث عن ترجمة سيل للقرآن وما لها وما عليها وعن مقدمته التمهيدية الشهيرة .

(٥١) فى ص ١٢٨ أشار بفانموللر الى المستشرقين الذين اهتموا بتاريخ ابنى الفداء ومنهم جانييه وأدلر وفرجيه وهورى .

(٥٢) فرجيه (١٨٠٥ - ١٨٦٧) مستشرق فرنسى ، له بعض الجهود العلمية عن ابن خلدون .

(٥٣) ما يشير الية بفانموللر فى ص ١٧٥ . سبق الحديث عنه هنا فى هذا البحث عند الحديث عن رينو .

(٥٤) فى ص ١٠١ يتحدث بفانموللر عن جايجر وما يزعمه من التأثيرات اليهودية فى الاسلام وفى القرآن على وجه الخصوص .

(٥٥) فى ص ١٠٩ يتحدث بفانموللر عن الصلة بين القرآن والعهد الجديد ويشير الى أن جيروك قد بحث هذه المسألة وانتهى الى أن محمدا قد أخذ معلوماته عن المسيح من التراث الشعبى الذى كان سائدا فى بلاد العرب ..

وأخيرا جمع فايل شيئا فشيئا ما تضمنته عن محمد مؤلفات كل من هوتنجر ورييلاند وبوكوك ، ومذكرات أكاديمية باريس ومجلة توبنجن للاهوت وغير ذلك من مؤلفات أخرى مشابهة .

ولكن فايل لم يكتف بذلك ، فقد بحث أيضا عن مصادر شرقية جديدة تماما . وقام من أجل هذه الغاية برحلة الى (جوتا Gotha) وبعد فحص دقيق للمخطوطات المختلفة التي تملكها المكتبة هناك عن محمد ، بدا له أن أكثرها فائدة بالنسبة لهذه الغاية كتاب « انسان العيون » لمؤلفه على الحلبي (٥٦) في أربعة مجلدات كبيرة ، وكتاب « الخميس » لحسين بن محمد الحسن الديار بكرى في مجلدين كبيرين .

صحيح أن هذين المؤلفين قد عاشا في القرن السادس عشر ، ولكن نظرا لأنهما لم يغترفا المضمون من أقدم المصادر فحسب ، بل التزما أيضا بالكلمات من هذه المصادر ، وجمعا بأعظم قدر من الدقة كل ما وجداه عند السابقين من القرن الثاني للهجرة حتى عصرهما - نظرا لذلك فانهما يمكن - حسب رأى فايل - أن يوضعا بجانب أقدم المؤلفين من حيث الثقة بهما .

وفيما بعد حصل فايل من الأستاذ (أفالد Ewald) (٥٧) على مخطوط بالغ الأهمية هو : سيرة الرسول لابن هشام (ص ١٢٩) . وأخيرا حصل من الأستاذ رينو من باريس على الشرح التركي للمقاطع الثلاثة والستين التي لخص فيها إبراهيم الحلبي سيرة محمد .

وعلى هذا النحو الذي أصبح فيه فايل مزودا بأفضل الوسائل المساعدة قام في البداية بنقد صارم للمصادر ، ثم حاول أخيرا بوصفه مؤرخا القيام بعمل متكامل من تلك المصادر التي قام بفحصها فحصا نقديا . وقد اعتمد هنا في عرضه على المصادر بقدر الامكان .

(٥٦) هو نور الدين بن برهان الدين على بن إبراهيم الشاهري الشافعي (٩٧٥ - ١٠٤٤ هـ) وأشهر مؤلفاته السيرة النبوية بعنوان « انسان العيون في سيرة الامين المأمون » وتدعى عادة السيرة الحلبية .

(٥٧) هينريش أفالد (١٨٠٣ - ١٨٧٥) مستشرق ألماني ، كان عالما في اللاهوت ومتخصصا في العهد القديم وعلى دراية بعدد كبير من اللغات الشرقية وغير الشرقية .

وهكذا حصلنا على اول كتاب تاريخى نقدى لحياة محمد .
ولكن المرء يجد بجانب ذلك (فى كتاب فايل) ليس فقط الحديث عن
تعاليم العقيدة ، بل يجد ايضا عرضا لاهم قوانين العبادة وقوانين الأحوال
المدنية والجنايية وقوانين الدولة فى الاسلام وذلك هى علاقتها بالحياة
الخارجية لمحمد . اما حديث فايل عن القرآن فى القسم الأخير من كتابه
فقد قام فى السنوات التالية لذلك باكماله فى كتابه « مقدمة تاريخية
نقدية فى القرآن » (ص ٢٢١) (٥٨) . كما ان بحثه عن « الأساطير
التي اخذها المسلمون من الكتاب المقدس » الذى ظهر عام ١٨٤٥ -
يشكل ايضا اضافة مكملة فى جوانب معينة لمؤلفه الرئيسى . وتشتمل
الملحقات بصفة اساسية على اقتباسات مترجمة ترجمة امينة من المصادر ،
وبصفة خاصة اقتباسات من كتاب ابراهيم الحلبي ، بوصفها اسانيد
للدعاوى التي كانت تعد جديدة او تلك التي كانت حتى ذلك الحين
محل نزاع .

٢ - كوسان دى برسيفال (Perceval) :

اما حديث كوسان دى برسيفال (٥٩) عن محمد فى المجلد الثالث
من كتابه « المقالات » فانه لا يشكل عملا مكملا لعمل فايل النقدى .
فكوسان كثيرا ما يروى ما تقوله المصادر اكثر من اهتمامه بالبحث فى
استقلال . لقد كان حقا مزودا بمعارف لغوية اكثر عمقا ودراسات تاريخية
اولية افضل من اسلافه ، وكان تحت يده ايضا مراجع مصدريه أقدم واثق
(مما كان لدى غيره) . وهكذا فان فضله الرئيسى لا يتمثل فى تنمية
البحث النقدى ، بل يتمثل فى انه فى الغالب يجعل المصادر الاصلية
هى التي تتحدث .

(٥٨) يحيل بنامولر هنسا الى ص ٢٢١ حيث يتحدث هناك عن
محتويات هذا الكتاب .

(٥٩) كوسان دى برسيفال (١٧٥٩ - ١٨٣٥) مستشرق فرنسى
وكان أستاذا للغة العربية فى معهد فرنسا الذى تخرج فيه .

٣ - إرفينج (Irving) :

أما حياة محمد التي كتبها واشنطن إرفينج (٦٠) - على أساس من مصادر إسبانية وكتاب أبي الفداء لجانييه وكتابات جوستاف فايل - فانها على ما فيها من صياغة براقعة ليست لها أهمية علمية .

٤ - رينان (Renan) :

وعلى أساس من أعمال فايل وكوسان دي برسيفال قدم رينان (٦١) رؤية مستفيضة عن محمد وعن نشأة الاسلام ، ولكنه لم يأت في ذلك بجديد . ومصادر نشأة الاسلام - التي تبدو لنا اليوم بعد بحث شاق لا نهاية له أكثر ابهاما وعموضا من أي وقت آخر - تبدو لرينان واضحة لدرجة أنه يتحدث عن « دين نشأ في وضح النهار » .

أما الشيء الهام (الذي قدمه رينان) فهو تلك النظرة السريعة على البحث في حياة محمد وتقديمه بعض الملامح المقارنة من تاريخ الأديان العام . ويصف رينان الاسلام بأنه « دين طبيعي عقلي يتصف بالجدية والليبرالية والبرود » .

٥ - أرنست ماير (E. Meier) :

ويعتمد على فايل أيضا أرنست ماير (٦٢) في مقالته التي بين شي بعض نقاطها كيف يمكن أن نحصل أيضا على أكثر المعارف أهمية عن الحياة العقلية لمحمد وعن أخلاقه من خلال فهم أكثر دقة للقرآن .

(٦٠) واشنطن إرفينج مستشرق أمريكي وقد صدر كتابه « حياة محمد » في نيويورك عام ١٨٤٩ وترجم إلى الألمانية عام ١٨٥١ .
(٦١) أرنست رينان (١٨٢٣ - ١٨٩٢) فيلسوف ومستشرق فرنسي من مؤلفاته (ابن رشد والرشدية) الذي ترجمه عادل زعيتري إلى العربية . وكتابه الذي يعتمد عليه بنامولر هنا هو : دراسات في تاريخ الأديان - باريس ١٨٥٧ .

(٦٢) نشر بحث أرنست ماير عن « محمد : حياته وتعاليمه » في مجلة اللاهوت العلي في فيينا بألمانيا عام ١٨٥٨ . العدد رقم ١ من ص ٤٧١ إلى ٤٨٨ .

٦ - وليم موير (W. Muir) :

وترجع السيرة الكبرى الثانية لحياة محمد - بجانب فايل - الى العالم الانجليزى وليم موير (٦٣) . وقد انبثقت من مقالات نشرها المؤلف منذ عام ١٨٥٣ فى مجلة كلكتا (Calcutta Review) . ويشتمل المجلد الأول فى البداية على المقدمة التى تتكون من الفصول الأربعة التالية :

١ - المصادر المتعلقة بسيرة حياة محمد .

٢ - السكان الأصليون وتجارة العرب القدامى وفقا للكتاب المقدس والمؤلفين القدماء .

٣ - تاريخ بلاد العرب قبل الاسلام حسب المؤلفات التراثية المحمدية .

٤ - أجداد محمد وتاريخ مدينة مكة من منتصف القرن الخامس حتى مولد محمد فى عام ٥٧٠ ميلادية .

وبعد المقدمة فى المجلد الأول يأتى الفصل الأول من السيرة الحقيقية التى تستكمل فى المجلدات الثلاثة التالية فى سبع وثلاثين فصلا حتى تصل الى النهاية . وفى الفصول التى تتعلق بالأحداث الخارجية لا يقدم لنا المؤلف شيئا جديدا الا القليل . ويظهر المؤلف كباحث متعمق فى الفصل الثالث « عقيدة محمد فى الهاماته او وحيه » . ومن الفصول الجيدة أيضا الفصل السابع « علاقة الاسلام بالمسيحية » ، والفصل السابع والثلاثون « شخص محمد وأخلاقه » .

وقد كان من الممكن اختصار الكتاب كثيرا بصفة خاصة فى الحديث عن التاريخ الخارجى المعروف المتعلق بمحمد ، كما أن القسم الأكبر من المجلد الأول الذى يتصل بالتاريخ الأقدم لبلاد العرب قد استفاد المؤلف من كتاب كوسان دى برسيفال . ولكن الفصل الأول من المقدمة يمتاز بقيمة كبيرة ، هذا الفصل الذى يهتم بمصادر سيرة محمد ويبحث فى درجات وثوقها المختلفة . وعلى الرغم من موقف المؤلف المصبوغ بصبغة

(٦٣) السير وليم موير (١٨١٩ - ١٩٠٥) مستشرق اسكتلندى . صدر كتابه عن (حياة محمد) فى أربعة أجزاء فى لندن من ١٨٥٨ حتى ١٨٦١ .

مذهبية حادة فإن عرضه (للموضوعات) كان باستمرار عرضاً واضحاً
وجديراً بالتقدير .

وفد ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب من عام ١٨٥٨ حتى
١٨٦١ ، وظهرت الطبعة الثانية - التي اختصرت فيها بعض النقاط -
في عام ١٨٧٦ ، وظهرت الطبعة الثالثة في مجلد واحد في عام ١٨٩٤ ،
ثم ظهرت طبعة جديدة منقحة في عام ١٩١٢ ، ولكن هذا التنقيح لم
يمتد الا الى تصحيح كتابة الكلمات العربية بالحروف اللاتينية وتصحيح
الاقتباسات وازافة بعض الاشارات فى الهوامش .

اما كتاب موير « محمد والاسلام » فهو اختصار للكتاب الكبير
« حياة محمد » . ويدين المؤلف بالفضل كثيرا الى كل من فايل واشبرنجر .
وقد أخذ الصور الى حد ما من الكتاب المصور الرائع « مدنية العرب »
الذى ألفه (ج . لوبون Le Bon) .



٧ - الويس اشبرنجر (A. Sprenger) :

واما الكتاب الثالث الكبير الذى تم تأليفه طبقاً لوجهات نظر تاريخية
نقدية فقد كان من تأليف الويس اشبرنجر (٦٤) وكان اشبرنجر قد نشر
فى عام ١٨٥١ مؤلفاً عن حياة محمد كتبه بالانجليزية ، ولكن لم يظهر
من هذا المؤلف الا القسم الأول فقط . ويشتمل هذا القسم الأول -
بعده مدخل قصير - على الكتابين الأولين . وقد تناول فى اولهما فى
فصول ثلاثة تاريخ مكة ، وأجداد محمد ، والأساطير الاسلامية حول
هذين الموضوعين ، ومصادر سيرة محمد . وروى فى الكتاب الثانى فى
فصول ثلاثة حياة محمد من مولده حتى وصوله الى المدينة .

(٦٤) الويس اشبرنجر (١٨١٢ - ١٨٩٢) مستشرق نمساوى
الأكمل ، تخرج بالجنسية البريطانية عام ١٨٣٨ ، كان أستاذاً للغات
الشرقية فى جامعة برن بسويسرا وعمل أيضاً فى الهند . ويقسول المنتشرق
الألمانى المعاصر رودى بارت عن كتساب اشبرنجر (حياة محمد) :
« انه كتاب جاء بخيبا للأمال فى أكثر من ناحية وأنه لم يزرع شروطاً ومتطلبات
التقرير العلمى » (راجع : الدراسات العربية والاسلامية فى الجامعات
الألمانية لبارت ص ٢٣) .

وبعد ذلك بعشر سنوات ظهر المجلد الأول من كتابه الكبير عن
سيرة محمد (بناء على مصادر لم تستخدم من قبل الا قليلا جدا) .
وفي المقدمة يتحدث اشبرنجر عن نشأة كتابه والغاية منه . وقد قضى
المؤلف أجمل سنوات عمره في الشرق ، وتعرف بخبرته على البلاد التي
تمثل موضوع بحوثه . وعمل مدة اثني عشر عاما مشرقا على المعاهد
العليا الاسلامية في الهند العليا .

وقد استغل هذا الوقت لكي يجمع بلا كلل مخطوطات ومطبوعات
شرقية ، وليتعمق في لغة وروح الشرقيين . وبعد أن انتهت سنوات
التجول تمثلت مهمته في الاشتغال بالمسادة (العلمية) التي جمعها في
الشرق (بهدف كتابة) تاريخ نشأة ذلك الدين العالمي الذي نملك وحدنا
مصادر عن أصل نشأته (٦٥) .

وقد كانت هناك نظريات عديدة تم وضعها حول محمد ، فقد كان
موير يعتقد أن الشيطان قد مارس لعبته مع محمد ، وكان كارلايل يسرى
فيه انسانا فذا . وفي ألمانيا سلب المرء من كلمة نبي كل ما تعنيه ثم زعم
انه كان نبيا .

ويريد اشبرنجر أن يبرهن على أن محمدا لم يكن لا بطلا بالمعنى
الذي يقصده كارلايل ولا أداة للشيطان . وقد أدت نتائج بحوثه الى اقتناعه
بأن الاسلام « لم ينبع من النسب والحسب ، ولا من ارادة اللحم (٦٦)
ولا من ارادة رجل » ، بل من متطلبات العصر . واذا كان كارلايل قد قصد
أن يقول عن محمد كل ما هو خير مما يستطيع المرء اثباته ، فان اشبرنجر
ينهج نهجا مضادا تماما ، ويريد أن يلفت النظر عند كل مناسبة الى
الضعف الانساني لدى محمد . وحيث انه ليست لدينا اخبار عنه غير تلك
الأخبار التي لدينا من جانب محبيه فانه « يجب على كاتب السيرة أن

(٦٥) على أي أساس يبنى هذا الادعاء العريض بأن الأوروبيين
رحمهم هم الذين لديهم مصادر عن أصل نشأة الاسلام ؟ هذا وهم لا يعتمد
الا على منطق العجرفة وعقدة التفوق لدى الأوروبيين !

(٦٦) هكذا ورد التعبير في الأصل ولعله يقصد بذلك أنه لم ينبع
من سبب مادي بحت .

يقوم بالدور الخبيث لمثل الاتهام (*Advocatus Diaboli*) ، وأن يستخرج مساوىء اخلاقه من كلمات مدح محبيه « (٦٧) .

وقد قام اشبرنجر يقينا بتنفيذ هذا الدور ببراعة ا ومن خلال مهنته كطبيب ينظر فى اخلاق محمد بشغف من وجهة انظر الطبية وينتهى الى الاقتناع بان محمدا كان انسانا هستيريا . وقد عارض سنوك هورجرونييه ذلك (قائلا) : ان الاهمية الخاصة لمحمد يجب ان تتمثل فى هذا الذى يميزه عن غيره من الهستيريين ، وليس فى الاحوال المرضية التى يشترك معهم فيها (٦٨) .

واذا كان هذا الراى ايضا (من جانب اشبرنجر) عن محمد لا يعد رايا متينا فان كتاب اشبرنجر مع ذلك قد اصبحت له اهمية كبيرة بالنسبة للبحث الحديث كله فى موضوع محمد . وقد خص اشبرنجر القرآن بصفة خاصة باعظم قدر من الاهتمام بوصفه المصدر الرئيسى لحيياة محمد . ويصرح فى فخر بانه « قد مهد الطريق لفهم القرآن » . ويشتمل كتابه على ترجمته المستقلة لثلى القرآن تقريبا .

وطبقا لمقصد اشبرنجر فان كتابه قد خصص لطبقتين مختلفتين تماما من القراء : للباحث الذى لا يفهم العربية ، ومع ذلك يرغب فى دراسة متعمقة لطبيعة الاسلام ، وللقارئ غير المتعمق الذى يكتفى بنتائج بحوث الآخرين .

ولكن فيلهاوزن كان على حق فى حكمه (على عمل اشبرنجر على النحو التالى) :

« يعذ كتاب اشبرنجر ينبوعا ثريا فى المسادة والافكار بالنسبة للدارسين للعلوم العربية القادرين على التمييز ، ولكنه غير مناسب اطلاقا للاطلاع بالنسبة لدائرة اوسع من جمهور الناس على الرغم مما يبدو من انه قد خصص لذلك » (محمد فى المدينة ص ٢٦) . ولكن فيلهاوزن لا يريد ايضا ان ينكر الاهمية العالية لكتاب اشبرنجر :

(٦٧) الغرض ان بن بادىء الامر هو البحث عن مساوىء ، وحيث انه سيميه البحث عنها دون جدوى فانه يلجا الى تخيل مساوىء من كلمات المدح . فهل هذا منطوق ، وهل هذا منهج علمى مقبول ؟

(٦٨) راجع تعليقتنا على مثل هذه المزاعم فى ص ٩٠ من العدد الاول من مجلة مركز بصوت السنة والسيرة .

« على العكس من الطريقة التي كانت سائدة الى حد ما زمانا طويلا في ألمانيا ، والتي كانت تنظر الى الادب العربي على أنه بمثابة مجموعة كبيرة من الأمثلة لقواعد النحو فان اشبرنجر قد كان له تأثير منعش الى أقصى حد عن طريق شعوره الحى والسليم بالنسبة للأشياء ، وذلك باهتمامه المباشر والأصيل بمضمون التراث اهتماما بعيدا عن النظرة التخصصية الضيقة وعن اتباع مذهبية معينة . فهو رجل طبيعى صميم ، وفى ذلك تكمن قوته ، مع كل الوان الضعف التي تلازمه أيضا من أجل ذلك » .
(محمد فى المدينة ص ٢٤) .

وفى الختام نورد بيانا قصيرا بمضمون المجلدات الثلاثة :
يسير المجلد الأول (فى البحث) حتى عام ٦١٦ م ، فيصف أسباب محمد والسنوات الأولى لظهوره كنبى - أما المجلد الثانى فإنه يتناول فى تسعة فصول الفترة الواقعة بين الهجرة الأولى الى الحبشة عام ٦١٦ م حتى الهروب (٦٩) الى المدينة . ويشتمل المجلد الثالث فى البداية على مقدمة إضافية تعرفنا - بعد أيراد بعض الملاحظات التمهيدية - بالمصادر التي اعتمد عليها المؤلف . فالقرآن نفسه ، وبعض الوثائق القليلة ، وكتابات سيرة محمد ، والسنة ، وتراث الأنساب ، كل ذلك كان يقدم مادة ثرية جدا للمؤلف ساعدته على تأليف كتابه .

والمضمون الحقيقى للمجلد يتكون من ثمانية فصول يتناول فيها ظهور محمد فى المدينة بوصفه مشرعا وفاتحا وحاكما حتى وفاته . ويصاحب كل فصل استطرادات مسهبة . والعرض مستفيض جدا للأسف ، ويشكل « مزيجا غير مستساغ من حكايات وتأملات نقدية » . (قيلهاوزن) .

(٦٩) هكذا يحلو لكثير من المستشرقين تسمية الهجرة الى المدينة هروبا . ولو كان الأمر أمر هروب لمسا كان هناك . ببرر لأن يظل محمد فى مكة حوالى ثلاثة عشر عاما منذ بدء الدعوة يتعرض فيها هو وأصحابه لأقصى ألوان التعذيب والاضطهاد والحصار والتجويع . ولو أراد أن يهرب لفعل ذلك قبل الهجرة بسنوات ، وبخاصة بعد موت خديجة وعمه أبى طالب الذى كان يحميه من قدر المشركين . فالأمر لم يكن إذن يتعلق بإرادة محمد صلى الله عليه وسلم فى تحديد الموعد الذى يترك فيه أحب بلاد الله الى نفسه مهاجرا الى المدينة أو غيرها . لاد الله ، ولكنها إرادة الله ، ولم يكن له الا أن يمثل لأمر الله .

٨ - نولدكه (Nöldeke) :

لقد جاءت فترة الستينات من القرن التاسع عشر - وهي فترة تعد ذات أهمية كبيرة بالنسبة للبحث في حياة محمد - جاءت بعرض شعبي ممتاز لحياة محمد كتبه مؤلف « تاريخ القرآن » - ويعبر نولدكه (٧٠) نفسه في المقدمة عن الغاية من كتابه ، كما يعبر كذلك عن موقفه من أسلافه فيقول :

« على الرغم من البحوث التي أجريت بحماس بالغ في العشرين سنة الأخيرة عن محمد وعن أصل نشأة الاسلام - وأخص بالذكر هنا فقط تلك المؤلفات الرائعة لكل من فايل وكوسان دي برسيفال ومويسر وأشبرنجر - فإن مجال البحث لم يخنتم اطلاقا ، ولهذا فأنى مع ذلك كله اعتقد بأن عرضا شعبيا لتاريخ محمد مرتكزا على المصادر يعد عملا مناسباً للعصر وأمرام مشكورا - وقد تجنبت عن عمد كل المناقشات العلمية وكذلك كل الجدالات ، ولم أذكر من الاقتباسات الا حوالى ستة اقتباسات فقط . ومع ذلك فإنه يصح لى أن أؤكد أن عملي يستند تماما على بحثي الخاص للمصادر . والأسس العلمية لهذا العمل هي في جوهرها تلك الأسس التي تتركز عليها الفصول الأولى من كتابي « تاريخ القرآن » . وقد وضعت أمام عيني أولا امثال هؤلاء القراء الذين لا يعرفون اللغة العربية ، ولكني أمل على الأقل أن تكون بعض الآراء ووجهات النظر المطروحة هنا ماثار اهتمام المستشرقين أيضا . وقد أوليت الأحوال السياسية والشعبية قدرا خاصا من الاهتمام ، وأفادتني في ذلك بصورة أساسية دراستي الطويلة والمتواصلة للشعر العربي القديم . وهناك قصور يجب أن اعترف به ويتمثل في عدم الدقة في الترتيب الزمني للسنين العشر الأخيرة من حياة محمد . ولم أستطع أن أستخدم من مؤلف اشبرنجر العلمى الا القسم الأول فقط عند كتابة هذا الكتاب . ويمتاز مؤلف اشبرنجر بعمق وخدّة ذكائه وعرضه الطريف ، ولكني كثيرا ما اضطررت أيضا الى أن أخالف آراءه » .

(٧٠) تيودور نولدكه (١٨٣٦ - ١٩٣٠) مستشرق ألماني معروف ، كان أستاذا للغات الشرقية في عدد من الجامعات الألمانية ، له إنتاج غزير في مجالات التحقيق والترجمة والأدب العربي واللغات السنانية والدراسات الاسلامية . وقد صدر كتابه « حياة محمد » في هانوفر بألمانيا عام ١٨٦٣ .

ويقع كتاب نولدكه فى سبعة فصول (على النحو التالى) :

- ١ - المقدمة . حياة محمد حتى ظهوره النبوى .
- ٢ - من الظهور النبوى لمحمد حتى هروبه الى المدينة .
- ٣ - من الهروب حتى موقعة أحد .
- ٤ - من موقعة أحد حتى حصار المدينة .
- ٥ - من حصار المدينة حتى الاستيلاء على مكة .
- ٦ - من الاستيلاء على مكة حتى موت محمد .
- ٧ - اخلاق محمد .

وفى تقديره وحكمه على محمد يجتهد نولدكه فى ان يتم ذلك فى موضوعية هادئة على العكس من طريقة اشبرنجر الذاتية والحادة . ولكى يكون المرء منصفاً لمحمد فانه يتحتم عليه ان ينظر اليه فى حياته ليس فقط بوصفه نبيا وواعظا واميرا ، بل ينظر اليه أيضا فى تعامله مع أتباعه واصدقائه وفى حياته اليومية . فهناك ملامح ثابتة لا تحصى تظهره هنا فى ضوء جميل . أما ما يتعلق بأخطائه فانه يجب على المرء ان يفكر فى ان هذه الأخطاء كانت فى قدر كبير منها أخطاء عصره وشعبه ، وانه كان يبدى بجانب ذلك شمائل على أقصى درجة من النبل ، وانه هو نفسه كان مقتنعا بمهمته لانقاذ اخوانه فى الانسانية من العذاب الأبدى عن طريق هدايتهم الى العقيدة الصحيحة ، ولجعلهم مشاركين فى السعادة السماوية .

* * *

٩ - كرييل (Krehi) :

بعد التراجم الكبيرة والعميقة لحياة محمد من جانب كل من فايل وكوسان دى برسيفال وموير واشبرنجر ونولدكه طرأت حالة من الركود فى البحث (فى هذا المجال) . ثم جاءت الثمانينات من القرن التاسع عشر مرة اخرى بكتابين كبيرين عن حياة محمد ظهرا متتابعين بفارق زمنى قصير وقام بتأليفهما لودولف كرييل (٧١) . واوجست موللر .

(٧١) لودولف كرييل (١٨٢٥ - ١٩٠١) مستشرق ألماني . ساعداً فى نشر الجزأين الأولين من كتاب نفع الطيب للمقرئ . ونشر ثلاثة أجزاء من الجامع الصحيح للبخارى . أما كتابه عن « حياة محمد » فقد صدر فى ليبتيك بألمانيا عام ١٨٨٤ .

ويحاول كريل أن يبحث بصفة رئيسية التطور الدينى لمحمد عن طريق الأحداث السياسية . ويسعى جاهدا فى أن يكون محايدا بقدر الامكان فى هذا البحث . ويعترف شاكرا بأن دراسة الكتب الكبرى لعلم الحديث ، مثل دراسة صحيحى البخارى ومسلم - اللذين يشتملان على الكثير الذى لا يحصى من الملامح المميزة جدا لمحمد وأقواله الثابتة بطرق جيدة - هذه الدراسة قد ساعدته فى بحثه بصورة أساسية .

ومع أنه يعلم يقينا أن هذه الماثورات غالبا ما اصطبغت باغراض لصالح محمد إلا أنها رغم كل ذلك تظل فى رايه مصدرا رئيسيا لحياة محمد . وبناء عليها يظهر مؤسس الاسلام فى ضوء آخر ، وهو ضوء أفضل الى حد بعيد . ومع كل أخطائه يجب أن يعترف المرء بأن محمدا هو مؤسس المدنية العربية ، وأنه قد وضع شعبه تماما وبلا جدال على درجة عليا من الدين . « وان متحمسا دجالا ومراثيا وانسانا يقوده ظموحه الأنانى فقط لم يكن له أن ينجح فى ذلك بكل تأكيد . فالقوة التى بناها كانت سرعان ما تنهار بالتأكيد مرة أخرى بعد موته إذا لم تكن قد بنيت على فكرة عليا وعلى تعاليم لا تزال تشغل اليوم فكريا وروحيا ملايين الناس وترضيهم بطريقتها ، وجاء على اثرها عبر القرون تراث واسع المدى جدا وإلى حد ما غنى بالأفكار ويشهد بثقافة عقلية عالية » .

أما القسم الثانى (من كتاب كريل وهو : التعاليم) فلم ينشر ، ولكن المخطوط موجود ضمن ما خلفه كريل . وهناك فقط بعض النقاط الجزئية للتعاليم (الاسلامية) تناولها كريل بالبحث وقام بنشرها (ص ٢٦١ وما بعدها) (٧٢) .

١٠ - أوجست مولر (A. Miller) :

قام أوجست مولر (٧٣) فى إطار عرضه الشامل للإسلام بتقديم

(٧٢) يشير بفانمولر فى ص ٢٦١ الى هذه البحوث التى نشرها كريل ، وأهمها بحث عن « عقيدة القضاء والقدر فى القرآن وصلتها بعقائد الاسلام الأخرى » وبحث عن عقيدة الألوهية وبحث عن خصائص العقيدة فى الاسلام .

(٧٣) أوجست مولر (١٨٤٨ - ١٨٩٢) مستشرق ألمانى . كانت رسالته للدكتوراة عن امرى القيس ، وكان يطلق على نفسه أيضا

عرض لحياة محمد أيضا يبنى على معرفة عميقة بالمصادر الأصلية ، ويتضمن حكما موزونا تماما على محمد . وبالمعنى التاريخي الخالص - كما يقول - يكون من الصعب على المرء أن ينكر على محمد اسم النبي . حقا لا يستطيع المرء أن ينكر أنه كان واقعا تحت حالات عصبية مختلفة نتيجة لمزاجه الذي كان سريع الانفعال بطريقة غير عادية ، وقد ارتفعت هذه الحالات في بعض الأحيان الى درجة الهلوسة . ولكن هذه الحالات لم تكن ايدا ذات طبيعة صرعية ، بل كانت تتلاءم أيضا مع الانفعالات العصبية المعروفة (التي تعترى) الأشخاص من ذوى الحس المرهف دينيا . ولكن قدرته الكاملة على التمييز بصفة خاصة لم تكن تعاني تحت (وطأة) هذه الحالات . ولا يستطيع المرء أيضا أن يشكك في إخلاصه الكامل في الفترة المكية .

وإذا كان المرء لا يستطيع أن ينكر على محمد صفة نبي حقيقى فإن مولر له مع ذلك بعض التحفظات . فهو يعيب على محمد أنه لم يدرك الا جانبا واحدا فقط من الطبيعة الالهية ، وأنه ينقصه تماما مفهوم القداسة بوجه خاص ، وبذلك ينقصه الأساس لتشكيل عميق بطريقة ما لفكرة نظام أخلاقى للحياة . ثم يصدمننا لدى محمد في المدينة على وجه الخصوص أنه قد حول الدين الى السياسة في تزايد مستمر : فقد استعان بالكذب لكي يفرض الحقيقة ، وربما كان ذلك في البداية دون وعى ، ثم بنصف وعى ، وفى النهاية بوعى كامل (٧٤) !

أسم امرئ القيس بن الطحان . كان أستاذاً للعربية في جامعة ميينا ، له دراسات في الأدب العربى والفلسفة واللغة وله جهود في نشر وتحقيق وترجمة بعض الكتب العربية . وقد صدر كتابه عن « الإسلام في الشرق والغرب » في برلين عام ١٨٨٥ . (اراجع : المستشرقون للعقبي ج ٢ ص ٣٩١ وما بعدها) .

(٧٤) يحاول أوجست مولر هنا تطبيق مفاهيم المسيحيين وتصوراتهم وهذا أمر ليس له ما يبرره على الإطلاق . فالذين من حيث هو دين ليس هو حول الطبيعة الالهية والقداسة وعزل الدين عن السياسة على الإسلام . - يقينا - ذلك المفهوم الأوروبى المسيحى . وإذا كانت الألفهام المسيحية قد حولت المسيحية الى هذه الصورة التي نعرفها والتي استخلص منها مولر مفاهيمه فإن الإسلام قد جاء بتصحيح هذه التصورات وإعادة الأمور الى نصابها الصحيح .

وقد استخدم موللر فى كتابته لقسم عظيم من تطور تعاليم محمد المدونات التى كانت تحت تصرفه من مخططات صديقه (أوتولوت Otto Loth) الذى كان استادا فى ليبتزج وتوفى للأسف مبكرا .

* * *

١١ - هوبرت جريمه (H. Grimme) :

اما كتاب حياة محمد الذى كتبه هوبرت جريمه (٧٥) واعقبه بعد ذلك بثلاث سنوات بالقسم الثانى الذى يشتمل على مقدمة فى القرآن ونسق علم الالهيات القرآنى (انظر ص ٢٠٠) - فانه يعد جهدا مستقلا جدا فى مقابل المأثورات العربية ، وكذلك فى مقابل المؤلفات الأوروبية فى السيرة . وقد استند بصفة عامة على مادة المصادر المنشورة ، ولكنه اتبع - لدى استخدامه لهذه المادة - الى حد ما طريقة اخرى غير تلك التى اتبعها غالبية اسلافه ، وبذلك توصل فى الغالب الى نتائج مختلفة تماما عما توصلوا اليه .

ويرى جريمه على وجه الخصوص ان من الضرورى اتخاذ موقف اكثر حذرا من الأحاديث - صحيح ان مجموعات الأحاديث التى ترجع الى زمن أقدم من غيرها بوجه خاص تشتمل على كثير مما هو حقيقى ولا غنى عنه لتاريخ محمد ، ومن المؤكد كذلك ان التزييف المتعمد لم يعمل عمله بمثل هذه الجراة فى أى مجال من مجالات الأدب مثلما فعله هنا فى هذا المجال . ولكن المرء لا يزال بعيدا عن التوصل الى طريقة يقينية للتمييز بين الصحيح والزائف (٧٦) .

(٧٥) هوبرت جريمه (١٨٦٤ - ١٩٤٢) - ملتحق المائى ، كان استادا للغات الشرقية فى (مونستر Münster) بألمانيا ، ومن مؤلفاته : « محمد » فى جزئين . وله دراسات حول اسم محمد ، وتوصل ذيانة محمد ، والأهمية التاريخية العالمية لبلاد العرب فى عصر محمد ، والاسلام واليهودية وغيرها .

(٧٦) اذا كان جريمه وأمثاله لم يستطيعوا أن يتوصلوا الى طريقة يقينية للتمييز بين الصحيح والزائف من الأحاديث فان علماء المسلمين قد توصلوا الى ذلك منذ قرون ، وفى مقدمتهم أصحاب الكتب الستة الصحيحة التى أجمع المسلمون منذ ذلك الزمن المعيد على حجيتها والاعتداد بها .

وفضلا عن ذلك فان مجموعات الأحاديث غالبا ما تقدم كثيرا جدا من الأمور التي لا أهمية لها . وأخيرا فانها لا تقدم الا روح الحقبة المدنية ولكنها لا تقدم اطلاقا روح الحقبة المكية (٧٧) . ولكن من حسن الحظ انه لا يزال يتدفق هناك مصدر قوى للحقيقة التاريخية في القرآن . وقد حاول المؤلف أن يستخدم القرآن بشكل مثير تماما . ولكن هناك أمور كثيرة تحمل هنا أيضا على الحذر . فمن الأمور التي لا تزال مثار جدل بوجه خاص قضية الترتيب الزمني للسور القرآنية . ومن أجل ذلك يقدم المؤلف في القسم الثاني فصلا خاصا عن « شكل السور القرآنية وتتابعها الزمني » ويصل فيه الى بعض النتائج المخالفة (٧٨) .

ويذهب جريمه الى القول بأن محمدا كان في المقام الأول مثيرا للفتن أو محرزا (Agitator) ذكيا وسياسيا كبيرا . وفي المدينة تطور محمد - حسب رأي جريمه - في تزايد مستمر الى دجال عن وعى بذلك (٧٩) . ولكن الأمر الجديد تماما هو دعوى جريمه بأن محمدا عند ظهوره الأول (بدعوته) لم يكن يدعو الى دين اطلاقا ، بل كان يدعو الى شكل من اشكال الاشتراكية . فالاسلام « لم يظهر اطلاقا بوصفه نسقا

(٧٧) هذا كلام غير صحيح : فهناك أحاديث كثيرة من الفترة المكية . وقد عالجت مسائل العقيدة والأخلاق والحرص على الصدقة وتناولت مريضه الصلاة وقصة الاسراء والمعراج وتهميم الخمر والزنا والربا وغسیر ذلك من موضوعات .

(٧٨) يثير المستشرقون منذ زمن طويل قضية الترتيب الزمني للسور القرآنية ، ولهم في ذلك وجهات نظر متعددة ، والأمر الذي عليه المسلمون هو أن هذه القضية توقيفية لا تخضع للاجتهاد البشري . والنبي صلى الله عليه وسلم لم يترك الأمر في ذلك للأهواء والأغراض . بل حسبه بتوجيه الهى تم بناء علية ترتيب الآيات والسور على النحو المعروف في المصحف .

(٧٩) لسنا هنا في مقام الدفاع عن محمد صلى الله عليه وسلم : فهو ليس في حاجة الى دفاع . وهذا السبب لا يصيب الا أصحابه كما سبق أن قال توماس كارليل . وقد كان عليه الصلاة والسلام كما وصفه القرآن « شاهدا ومبشرا ونذيرا . وداعيا الى الله بائنه وسراجا منيرا » (الأحزاب : ٤٥ ، ٤٦) ، وهو القائل : « بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا » . ومن ناحية أخرى فقد سبق أن أشرنا مرارا الى قضية السياسة والدين وأنه لا انفصالية بينهما كما تذهب الى ذلك « العلمانية الغربية التي يراد تقويم الاسلام من خلالها .

دينيا فى الحياة ، وانما بوصفه محاولة لشكل من اشكال الاشتراكية ليواجه ما كان سائدا الى حد بعيد من احوال ارضية سيئة معينة « (٨٠) .

وقد كان التناقض الخفيف بين الاغنياء والفقراء - والذي كان سائدا فى مكة - هو الذى دفع محمدا الى المطالبة بضرورة ان يدفع كل فرد ضريبة معينة لمساعدة المحتاجين . ولكى يجد محمد آذانا صاغية لهذه الدعوة استخدم عفيدة يوم الحساب كوسيلة اجبار روحية .

١٢ - سنوك هورجرونيه (Hurgronje) :

وفد عارض هذا الراى فى محمد سنوك هورجرونيه فى مقالة مسهبة فى « مجلة تاريخ الاديان » . وقد تضمنت هذه المقالة تفنيدا رائعا لراى جريمه . فكل كتاب سيرة محمد من الاوروبيين تصوروا - كما يقول هورجرونيه فى اعتراضه - ان محمدا قد شعر وهو فى سن الاربعين بانسه مدفوع لدعوة قومه الى دين . واحد هؤلاء الكتاب قد اراد ان يعطى الانطباع بان هذا الدين كان بالنسبة لمحمد مجرد وسيلة للوصول الى السلطان والنفوذ فحسب . وقد ذهب « موير » الى القول بان محمدا كان اداة من ادوات الشيطان ، ولكنه مع ذلك اعترف بان هذا الشيطان قد ظهر لمحمد فى صورة رسول الهى . وبالنسبة لاشبرنجر كانت دعوى الهستيرية هى التى خدمته لى يوضح ان محمدا كان ظاهرة دينية . واخيرا فان المؤرخين من امثال كارلايل الذين راوا فى محمد عبقرية فذة - كانوا مع كل اختلافاتهم على اتفاق فى اعتباره عبقرية دينية .

والسؤال الكبير الذى يواجه كتاب سيرة محمد من البداية هو :
ما اصل الاصطفاء الدينى لدى محمد ومن اين اخذ افكاره الدينية ؟

ان افكاره الرئيسية هى - مع بعض التغييرات فى الشكل - تلك

(٨٠) لن تناقش هذه الديموى المتهافنة . فالواقع والشواهد التاريخية الصحيحة تكذبها تماما ، فضلا عن أنها دعوى لا يوافقه عليها معظم المستشرقين ، ولعل جريمه وحده قد انفرد بها . وقد قام سنوك هورجرونيه بنقضها وتفنيدها كما يتضح ذلك فى الصفحات التالية وان كنا لا نوافق على الاسلوب الذى اتبعه هورجرونيه فى تفصيل رده المشتعل على الكثير من الزاعم الباطلة .

الأفكار التي تشترك فيها كل من اليهودية والمسيحية . وفي التفاصيل يبدى وحيه تارة الصيغة اليهودية ، وتارة أخرى الطابع المسيحي ، وتارة ثالثة يبدى أمورا متنوعة لخيال حر نسبيا مبنى على أساس يهودى مسيحي .

ولكن محمدا لم تكن لديه الا معلومات ناقصة وقاصرة عن اليهودية والمسيحية ، فلم يكن يعرف مثلا الكتاب المقدس أو علم العقيدة الارثوذكسية ، بل كان يعرف فقط الأدب والتراث المشكوك فى صحته (Die apokryphe Literatur) لهذين الدينين (٨١) . وقد كان محمد فضلا عن ذلك رجلا أميا : وهكذا ظلت الكتب المقدسة اليهودية والمسيحية غريبة عنه .

وعن طريق الحديث فقط مع أتباع هذين الدينين نعرف محمد عليهما كما كانا قائمين فى بلاد العرب حينذاك . ويضاف الى ذلك ان من الأمور التي تركت لديه انطبعا خاصا كان فن قراءة النصوص المقدسة أو فن تلاوتها وترتيلها فى صلوات اليهود والمسيحيين ، خاصة وأنه قد سمع الناس يقولون - واعتقد (ما يقولون) بلا حدود - ان الكتب والألواح التي يقرؤها اليهود والمسيحيون فى صلواتهم والتي تتضمن شرائعهم ومؤسساتهم ليست ذات مصدر انساني ، بل مصدرها الهى .

ولكن كيف تكون لدى محمد مفهوم الوحي ؟

فى البداية لم يكن محمد يلحظ اطلاقا الموقف العدائى الذى تتخذه

(٨١) يحاول سنوك هورجورونيه هنا وفيما يلى من تفاصيل بيان أن الاسلام دين مأخوذ أساسا من اليهودية والمسيحية . وقد كانت المعلومات التي تلقاها محمد عن هذين الدينين معلومات ناقصة وقاصرة نظرا لاعتمادها على مصادر شكوك فيها . وهذا الاتجاه يكاد أن يكون اتجاها عاما لدى المستشرقين الذين يريدون أن يظهروا الاسلام بمظهر الدين البشرى الملتق من تلك المعلومات التي عرقها محمد عن طريق لئائاته مع أتباع هذين الدينين .

ولكن السؤال هو : لماذا لا يكون الاسلام ديننا أصيلا مأخوذا مباشرة من نفس النبع الذى أخذت عنه الديانات السماوية قبل أن تتدخل أيدي البشر لتحريفها ؟ لماذا لا يكون الاسلام هو النطقة الأخيرة من حلقات الوحي الالهى الذى أقام الاتصال بين السماء والأرض على مدى تاريخ البشرية ؟ هل مبدأ جواز الاتصال السماء بالأرض عن طريق الوحي مبدأ مسلم به أم لا ؟ انه اذا كان هذا المبدأ مسلما به فلا معنى لأن تحتكره اليهودية والمسيحية وتمنعه عن الاسلام ، واذا لم يكن - فى عرفهم - مبدأ مسلما به فلا مجال للديانات جميعا . (راجع فى مناقشة هذا الموضوع كتابنا : الاسلام فى الفكر الغربى ص ٦٧ - ٧٣) .

الطوائف والكنائس المختلفة من بعضها بعضاً . فالفرق بين اليهود والمسيحيين ، ووجود الطوائف والكنائس العديدة التي كانت تعادى بعضها بعضاً خارج هذين الدينين ، كل ذلك قد بدا في التصور الساذج لمحمد أنه يرجع الى اختلاف الأجناس أو القوميات . فقد تصور البشرية - من حيث أنها تملك نعمة الوحي - مقسمة في « جماعات » يمكن أن تتميز كتبها والواحة في الشكل والمضمون ، ولكنها جميعاً قد جاءت وحياً من لدن اله واحد وللغاية ذاتها .

وقد تأسست كل جماعة - في رأيه - عن طريق انسان اصطفاه الله من بين شعبه وتحمل مهمة دعوة قومه الى كلمة الله بوصفه نبياً ومبعوثاً أو نذيراً . وهناك عدد كبير من الأنبياء ، وليس بينهم فرق جوهرى . ولم يكن اصطفاء محمد للعرب - في نظر محمد - أمراً مختلفاً عن اصطفاء الأنبياء السابقين ، فقد كان كل منهم مختاراً لشعبه الذي ينتمى اليه (٨٢) .

وهكذا كان في وسع محمد أن يفترض بلا عناء أن اتباع الدينين القائمين بالوحي بهما يمكنهم أن يعترفوا به بوصفه نذيراً مرسلًا من الله للعرب دون أن يلحق ذلك أى ضرر بمعتقداتهم (اليهودية والمسيحية) . ولكن عندما اتصل محمد باليهود في المدينة اتصالاً مباشراً كان لا بد له حينئذ أن يعرف أن اليهود الحقيقيين والمسيحيين الحقيقيين لن يعترفوا اطلاقاً بأصله الدينية .

ولكن نظراً لأنه من ناحيته كان مقتنعاً بشرعية بعثته وكان يعتقد

(٨٢) لم يكن ذلك كله اجتهاداً من محمد صلى الله عليه وسلم ، بل كان وحياً تلقاه من ربه عز وجل . وفى هذا الوحي تأكيد على وحدة الأصل البشرى وإشارة الى أن الله سبحانه وتعالى قد جعل الناس شعوباً وقبائل لكي يتعارفوا وجعل أكرمهم عنده أكرمهم ، كما أشار الوحي الى أنه ليست هناك أمة الا خلا فيها نذير ، وأن الله قد أرسل الى كل أمة رسولا بلسان قومه . وهناك آيات قرآنية عديدة توضح هذه القضية بجملة . ثم كانت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم رسالة عامة للناس جميعاً وليس للعرب فقط - كما يزعم مورجرونييه - . وفى أول إعلان جهري بالدعوة أعلن محمد صلى الله عليه وسلم أنه أرسل الى العرب خاصة وإلى الناس كافة . وجاء ذلك فى الوحي المكي أيضاً فى قوله تعالى : « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً » (سبأ ٢٨) . وفى قوله تعالى « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » (الأنبياء : ١٠٧) .

أنها من جنس بعثة موسى وعيسى وأسلافهما ، فقد أدى به ذلك بطبيعة الحال الى نتيجة مؤداها ان اليهود والمسيحيين قد فسروا الوحي الذى لديهم تفسيراً سيئاً . وعليه اذن ان يقوم بواجب نصحيحهم ! وتلك مهمة صعبة لمن لم يستطع ان يقرأ كتبهم المقدسة ، وكانت لديه أيضاً فضلاً عن ذلك مفاهيم مشوشة عن طبيعة هذه الكتب وعن مضمونها (٨٣) .

وفى الفترة الثانية من نشاطه شرع محمد أيضاً شروعا حقيقيا فى التعرف بعض الشيء عن قرب على التاريخ التقليدى الموروث للوحى السابق ، وحصل - مع بعض التغييرات الضرورية - على ما يمكن ان يخدمه فى التحرر من اليهودية والمسيحية اللتين استشهد بهما فى السابق اكثر من مرة عنى حقيقة بعثته ، ولم يكن فى ذلك الاستشهاد شيء من الحكمة (٨٤) .

ولن نقف عند المراحل الجزئية لعملية التحرر هذه ، وسنقتصر على اثبات ان محمدا لم يتوصل الى حل المشكلة دفعة واحدة ، بل تم ذلك بالتدريج شيئا فشيئا . وفى حين كان ابراهيم يعد فى الوحي السابق [الذى نزل على محمد] واحدا من اسلاف محمد العديدين فحسب ، يصبح الآن [بالنسبة لمحمد] رائده ومثله الأعلى على الاطلاق . وقد استمد ابراهيم هذه المنزلة العالية لدى محمد من امرين توصل محمد الى معرفتهما لولا فى المدينة . الأمر الأول يتمثل فى ان ابراهيم - الذى يقده اليهود

(٨٣) لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم فى حاجة الى قراءة كتب اليهود والنصارى ولم تكن لديه معلومات مشوشة عن تلك الكتب ، لأن الله الذى أنزل التوراة والانجيل هو نفسه الذى أخبر محمدا عن طريق الوحي بما طرا على هذين الدينين من تحريف وتبديل ، وبين له طبيعتهما هذا التحريف .

(٨٤) ما يقوله هورجرونييه فى كل تفصيلاته حول موضوع علاقة محمد صلى الله عليه وسلم باليهودية والمسيحية مبنى على افتراض ان الاسلام دين بشرى تفتق عنه ذهن محمد صلى الله عليه وسلم . ومن هنا نجد هذا الحرص الشديد على تفسير كل شيء من هذا انطلق . وبناء على هذا الفرض الذى يعده المستشرقون حجة مسلمية . فالأمر اذن يدور حول رفض مسبق للاسلام بوصفه دينا سماويا . وهذا الرفض ليس له من عسلاج الا دراسة الاسلام دراسة تزيهة محايدة دون ان تكون هناك أو هام وتصورات أو أحكام سابقة .

والمسيحيون بنفس الطريقة بوصفه رجل الله - لم يكن يهسوديا ولا مسيحيا (٨٥) . وكون محمد قد جعل اصطفاؤه مرتبطا ارتباطا وثيقا بتلك الأبوة مكته من تفادى اتهامات اليهود الذين رموه بأنه لم يراع شريعتهم مراعاة تامة ، واتهامات المسيحيين أيضا الذين عارضوه بعقيدة الخلاص عن طريق المسيح وحده .

أما الأمر الثاني فقد كان يتمثل في أن محمدا قد عرف أن الكتاب المقدس قد جعل من إبراهيم الأب الأول للعرب وهكذا كان محمد يميل بطبيعة الحال إلى الاستناد إلى إبي الجنس الذي ينتمي هو إليه . وقد وصف محمد نفسه من الآن فصاعدا بأنه ذلك النبي الذي جاء لإكمال العمل الذي بدأه الأبوان إبراهيم وإسماعيل . فالإسلام الذي دعا إليه محمد كان هو نفسه تماما ذلك الذي دعا إليه إبراهيم . وقد كان إبراهيم - الأب الأول للعرب - مثل محمد تماما مسلما وحنيفا . ولكن إبراهيم لم يكن بالنسبة لمحمد المحرر من اليهودية والمسيحية فحسب ، فقد خدم النبي الأب محمدا أيضا في إدخال طقوس العبادة المكية في الإسلام بعد أن خلصها من بعض المراسم التي تكشف بوضوح عن أصل وثني .

وكان إبراهيم قد دفع بإسماعيل وأمه إلى بلاد العرب . وفي وسع المرء إذن أن يفترض أنهما قد جاءا إلى مكة وأسا الكعبة هناك بناء على أمر الهى . وهذا الافتراض يتضمن بطبيعة الحال أن نسل إسماعيل قد أفسد بصفة عامة العبادة والدين بطريقة مزعجة .

إن صلات محمد باليهودية والمسيحية - كما وصفناها هنا - وتاريخ تطور أسطورة إبراهيم في عقل محمد بصفة خاصة ، كل ذلك يستبعد الآن تماما الرأي الذي يذهب إلى القول بأن دعوة محمد قد استندت إلى جماعة الحنفاء الذين كانوا من قبله يدعون إلى شيء من اليهودية والمسيحية تحت اسم دين إبراهيم (٨٦) .

(٨٥) لم يكن ذلك معرفة توصل إليها محمد ، بل كان وحيا قرآنيا جاء في قوله تعالى : « ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين » (آل عمران ٦٧) .

(٨٦) لقد ورد ذكر إبراهيم عليه السلام في القرآن في تسع وستين موضعا ، منها اثنتان وثلاثون مرة في آيات مكية وسبع وثلاثون مرة في آيات

وتبعد ان وصف سنوك هورجرونيه صلات محمد باليهودية والمسيحية
يطرح السؤال عن الدافع المحدد لبعثته النبوية

لقد كان المرء فى السابق يرى بطريقة عامة ان محور دغوة محمد
يتمثل فى كفاحه ضد الوثنية لصالح (عقيدة) التوحيد الصارم . ومن المؤكد
- كما يرى سنوك هورجرونيه - ان وحدة الله كانت تمثل احد الاعمدة
الرئيسية للاسلام ، وقد نالت هذه العقيدة فيما بعد اهمية متنامية
باستمرار . ولكن الحماس للدفاع عن الوحدة الالهية ضد الوثنية وضد
التثليث الخ لم يكن بالنسبة لمحمد هو الدافع المحدد لبعثته النبوية .
فقد كانت هناك بالاعتراف منذ البداية فكرة احتلت مكان الصدارة من
تفكيره وسلوكه وهى فكرة يوم الحساب . فالامر الذى كان يقلقه هو
الاقتناع بان الناس جميعا سوف يضطرون فى يوم من الايام للمثول امام
الله للحساب وانه لن يكون امامهم مخرج آخر غير باب النار او باب
الجنة (٨٧) .

مدنية . وقد جاء الامر باتباع ملة ابراهيم اولا فى آية مكية فى قوله تعالى :
« ثم اوحينا اليك ان اتبع ملة ابراهيم حنيفا » (النحل : ١٢٣) ، وتكرر
هذا المعنى فى اكثر من آية مدنية ، مثل قوله تعالى : « ملة ابيكم ابراهيم ، هو
سماكم المسلمين من قبل » (الحج : ٧٨) ، وقوله تعالى : « قد كانت لكم
اسماء حسنة فى ابراهيم والذين معه » (المتحة : ٤) . اما بنساء
الكعبة فقد تم على يد ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، كما ورد فى ذلك فى
قوله تعالى : « واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل » (البقرة :
١٢٧) .

ويريد هورجرونيه كمادة غالبية المستشرقين ان يصور علاقة محمد
بإبراهيم واسماعيل عليهما الصلاة والسلام بأنها أسطورة كانت تدور فى عقل محمد
صلى الله عليه وسلم انطلاقا من زعمه الباطل بان القرآن ليس وحيا حقيقيا
من عند الله .

(٨٧) الايمان بالله الواحد الذى لا شريك له مرتبط ارتباطا وثيقا
بالايمان باليوم الآخر . والقرآن الكريم يربط باستمرار بينهما . فالايمان باليوم
الآخر يبنى على الايمان بالله ، ولا يتصور ايمان باليوم الآخر دون الايمان
بالله . يقول الله تعالى : « ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب
ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر . . . » (البقرة : ١٧٧) . وقد ورد
تعبير الايمان باليوم الآخر مسبوقا بالايمان بالله فى كل المواضع القرآنية
التي ذكر فيها اليوم الآخر .

وقد كانت هناك فكرتان تتنازعان في عقله على السيطرة : فمن ناحية كانت هناك فكرة محكمة عامة للناس جميعا بعد بعث الاموات ، ومن ناحية اخرى كان هناك الخوف من المحاكمات الجزئية التي تتعرض لها من عصر الى عصر الشعوب التي تتمرد على رسل الله . وقد كانت هذه الافكار المتمثلة في الكارثة النهائية وبعث الاموات والحساب والنار والجنة هي التي دفعت محمدا الى انعام الفكر والى النبوة . وقد عرضت اقدم الآيات القرآنية هذه القضايا باثارة عاطفية تكاد أن تكون هي صورة وحشية . وقد اتخذت هذه القضايا فيما بعد اشكالا أكثر ثباتا وأكثر تقليدية . وأخيرا عندما أصبح النبي على رأس جماعة تحتم عليه ان يقوم بتنظيمها ، وعندما توقف الصراع ضد الكفار في محيطه - ظلت عقيدة العالم الآخر عنصرا أساسيا من عناصر الاسلام . ولكن التصوير المثير للعواطف بشأن يوم الحساب لم يعد يظهر في الوحي المحمدي الا نادرا (٨٨) .

ان فكرة المحكمة الالهية ، التي كانت فكرة مشتركة بين اليهود والمسيحيين . قد اقرت محمدا واقضت مضجعه اذن منذ البداية . ولكن اليهود والمسيحيين كانوا قد عرفوا عن طريق الوحي يقينية يوم الحساب ، وليس هذا فحسب ، بل عرفوا أيضا الأوامر التي اعطتهم

(٨٨) لم تكن هذه أفكار تتنازع في عقل محمد كما يزعم هورجرونيه ، وانما كانت وحيا من عند الله . أما كون الحديث عن البعث والحساب والجنة والنار الخ . قد جاء في البداية في صورة تثير العواطف وتهز القلوب فذلك يرجع الى أن القلوب كانت فعلا في حاجة الى هذه الأثارة العاطفية نظرا لتجربتها وجهودها وانفلاتها . وقد سجل الوحي المكي ذلك في قوله تعالى : « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم أسمذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل » (الاعراف : ١٧٩) . ومن هنا كان حديث القرآن عن نهاية العالم ويوم القيامة بأوصاف الزلزلة والفرجة والراجفة والضاخة والطامة الكبرى وغير ذلك من أوصاف أخرى مماثلة . وبعد أن فتح الله القلوب الخلف والأذان الصم والأعين العمى ودخل الناس في دين الله أفردا وجماعات لم يكن القرآن في حاجة الى تكرير نفس الأسلوب فلكل مقام مقال ، ولكن هذا الأسلوب سيظل أيضا قائما في كل العصور للقلوب التي يصيبها الوهن واللعقول التي يعترها الغرور والنفوس التي يطأ عليها النسيان ، فيكون علاجنا ناجما مستمرا لأمراض القلوب .

مراعاتها اليقين بانهم سيكونون من الناجين في يوم الحساب . (أما العرب فلم يأتهم نذير) « لتنذر قوما ما اتاهم من نذير من قبلك » (٨٩) .

ولم تكن المساواة التي أقرها محمد بين الشعوب أو الأجناس والطوائف الدينية تسمح له بالاعتقاد بأن وحيا من هذا الوحي السابق (في اليهودية والمسيحية) كان مقرا لشعبه أو مقرا له هو . فكيف إذن يتجنب محمد وقومه العذاب المقيم ؟

لقد أجابت عن هذه القضية الحياتية (المصيرية) آيات القرآن التي ينظر اليها بالاجماع على أنها أقدم الآيات سواء من جانب المسلمين الاصوليين أو من جانب النظرة النقدية أيضا .

فاذا أراد المرء ان يعتبر محمدا انسانا قد اوحى اليه حقا من عند الله ، او اذا أراد المرء ان يعتبر أنه قد أعطى له حد أدنى فقط من الروح النبوى ، او اذا أراد أن يعتبر أن الشيطان قد تلبسه أو أنه انسان هستيرى أو مصاب بالصرع ، فإن الأمر الذى لا جدال فيه أنه كان لديه المزاج العقلى الخاص الذى يدفع أناسا معينين الى انعام الفكر وتعذيب أنفسهم بمسائل دينية الى ان يجدوا حلا لها . ولم يكن هناك فى الماضى (بالنسبة لمحمد) احد من رجال الله استطاع أن يجيب عن الشدة والمعاناة التى أقضت مضجع محمد بوحي يشتمل على الحقيقة الواضحة عن البعث ويوم الحساب . والأمر الأقل من ذلك بكثير أنه لم يكن هناك أحد من أمثال هؤلاء بين معاصريه . وقد أتى اليه الخلاص من أعلى ! وقد كان هو نفسه معيناً من قبل الله لاجراء قومه من الظلمات الى النور !

وإذا كان سنوك هورجرونيه قد أثبت بذلك أن فكرة يوم الحساب كانت تحتل مكان الصدارة فى دعوة محمد فإنه بذلك يكون قد قام بنقض دعوى جريمه التى تتمثل فى القول بأن محمدا قد ظهر أولا بوصفه من قبيل المصلحين الاشتراكيين . وعلى الرغم من ذلك فإن سنوك هورجرونيه يخصص فصلا اخيرا مستفيضا لمناقشة هذا السؤال : هل كان محمد اشتراكيا ؟

وفى البداية يقدم هورجروثيه اعتراضين عامين (ضد دعوى جريمه) :

١ - كيف لم تتجه معارضة المكين على الاطلاق - بناء على شهادة القرآن القاطعة - ضد الزكاة التى كانت فى رأى جريمه فى مقدمة دعوة محمد ، بل اتجهت المعارضة باستمرار وفى المقام الاول ضد عقيدة البعث ويوم الحساب ؟

٢ - هل كان محمد - فضلا عن ذلك - يدعو الى عقيدة يوم الحساب فقط لئى يجبر المكين البخلاء على دفع الزكاة - حسب رأى جريمه - ؟

الم يكن فى وسع محمد ان يجد لذلك حينئذ وسيلة افضل من تلك العقيدة التى لم يكن المكين يؤمنون بها ، وهى عقيدة يقول عنها جريمه نفسه انها كانت اكثر النقاط ضعفا فى الاسلام الاصلى !

وحقيقة الامر هى ان فرض الزكاة قد ذكر مع امور اخرى دون ان تضاف اليه اهمية خاصة !

وهكذا يتضح من هذه النظرة العامة بطلان رأى جريمه (٩٠) . ولكن هناك اسبابا خاصة تضاف الى ذلك : فكلية الزكاة التى ترجمها جريمه بالضريبة (Steuer) لم تكن تعنى اطلاقا معنى الضريبة فى العصر الاول للاسلام قبل الهجرة ، بل كانت تعنى ممارسة اختيارية لفضيلة « البر والاحسان » . وقد تم بعد الهجرة فرض « ضريبة » معينة ، ولكن محمدا لم يكن يستخدم هذه الايرادات للتخفيف من عنت الفقراء ، بل كان ينفق منها وقت الحاجة على حملاته الحربية . وقد اصبحت هذه « الضريبة » اولا نظاما دائما فى عهد ابي بكر واصبحت « عمودا » من اعمدة الاسلام ، واسهمت اسهاما كثيرا فى انتشار القوة الاسلامية (٩١) .

(٩٠) لايجب المرء من مثل هذه التحليلات التى لا يكل معظم المستشرقين عن الجرى وراءها وعرضها يشتى الاساليب فى طلاء علمى زائف ، فهذهم الرئيسية وشغلهم الشاغل هو محاولة طمس حقيقة الدين الاسلامى ، وانى لهم ان يبلغوا هدفهم او يصيبوا منه شيئا « يريدون ليطغوا نور الله بانفواهم والله يتم نوره ولو كره الكافرون » (الصف : ٨) .

(٩١) منذ أن فرضت الزكاة فى السنة الثانية للهجرة وهى تمثل أحد الأعمدة التى يقوم عليها بنيان الاسلام . وما فعله أبو بكر رضى الله عنه

وتعد « فضيلة البر والاحسان » فضيلة شرعية عامة ، وقد امتدحها اليهود والمسيحيون بوصفها فضيلة أساسية . ولكن القرآن يشهد في بعض آياته بأن محمداً قد جعل من هذه الرؤية (العامة) رؤية خاصة به (٩٢) . وفضلاً عن ذلك فإنه إذا كان محمد قد دعا منذ البداية إلى الزكاة بمعنى « الضريبة » ، وإذا كان - كما يريد جريمه - قد جعل من هذه الضريبة منذ البداية فصاعداً العنصر الأساسي لدعوته ، فحينئذ يحق للمرء أن يعجب جداً لأن التراث المحمدي كله لا يعرف شيئاً من مثل هذا النظام (الضريبي) في بداية الاسلام ، وليس هذا فحسب ، بل إن مما يثير الدهشة أيضاً أن المحمديين قد ظلوا عن قصد عمر هذه « الدعامة » من دعائم دينهم لأنهم بصفة عامة قد حددوا زمن فرض مثل هذه « الضريبة » أولاً بعد الهجرة .

وعلاوة على ذلك فإنه لا يوجد في الوحي المكّي وصف لهذا الشكل من أشكال الضريبة ، ولا يوجد بيان من النبي عن الطرق المفروضة لجمع واستخدام هذه الضريبة ، وليس هناك أيضاً أقل القليل من الإشارة أو التلميح لهذا النظام (الضريبي) . وقد وضع التراث المحمدي توقيت نظام « الضرائب » الحكومي بوضوح في وقت متأخر (أي بعد الهجرة) .

وأخيراً كان يجب أن يكون مثل هذا الاجراء:، وهو الدعوة الاشتراكية لفرض ضريبة من الضرائب ، ناتجاً من الظروف الكلية لمدينة مكة بوصفه نتيجة حتمية . ولكن هذا أيضاً لم يكن هو الحال . صحيح

لم يكن إلا اقراراً وتأكيداً لذلك ودغماً عنه . ومن هنا كان قوله بصدد مانع الزكاة : « والله لو منعوني عقالٍ بعير كانوا يؤدونها لرسول الله لقاتلتهم عليه » . أما مصارف الزكاة فقد حددها القرآن الكريم في آية مدنية في قوله تعالى : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل ، فريضة من الله ، والله عليم حكيم » (التوبة : ٦٠) .

(٩٢) البر اسم جامع للخير ولكل فعل مرض ، ويدخل في ذلك بطبيعة الحال الانفاق في وجوه الخير . وفي ذلك يقول القرآن الكريم : « إن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » (آل عمران : ٩٢) . وقد حدث القرآن على البر في العديد من الآيات ، وكذا ما لهذه الفضيلة من أهمية بالغة في حياة المؤمن .

ان التناقض بين الغنى والفقير كان قائما ، ولكنه لم يكن (فى مكة)
اسوأ مما كان قائما فى أى مدينة أخرى .

ويضاف الى ذلك ان محمدا كان يدعو فى مكة باستمرار الى
الصبر والتحمل السلبي وانه لم يتحول من الدفاع الى الهجوم الا بعد
الهجرة الى المدينة . وقد كان هذا اذن فى الوقت الذى اختفت فيه دعوته
الاشتراكية - حسب رأى جريمه - وحلت محلها عقيدة دينية ميتافيزيقية .

وهكذا يتضح ان الفرضية الجديدة عن محمد الاشتراكي - التى قال
بها جريمه - لا تتفق باى شكل من الأشكال مع الوقائع ولا يمكن البرهنة
عليها باى حجة تاريخية او غيرها من حجج أخرى . ولكن فيما عدا
ذلك فان سيرة محمد لجريمه لا تختلف باى حال عن المؤلفات السابقة ،
غير انه قد تخللتها فى أماكن عديدة مزاعم جريئة ، الأمر الذى يعد آفة
من الآفات لمؤلف من المؤلفات الشعبية . ولو كان قد قدم خلاصة دقيقة
للعمل الذى بذل حتى الآن (فى مجال كتابة السيرة) لكان يمكن ان
يكون ذلك أكثر ملاءمة بالنسبة لهذه الغاية .

اما القسم الثانى من سيرة محمد لجريمه ، والذى ظهر بعد القسم
الأول بثلاث سنوات ، فانه يشتمل على « مقدمة فى القرآن » تناول فيها
باختصار تاريخ نشأة القرآن وشكل السور القرآنية وتتابعها الزمنى . ولكن
المضمون الأساسى لهذا المجلد يشكل « نفس علم العقيدة القرآنى » والذى
سنعود للحديث عنه بالتفصيل عند حديثنا عن « تعاليم محمد »
(ص ٢٠٠) (٩٣) .

وهناك قصور فى هذا الكتاب يتمثل فى ان جريمه لم يشتق من
الأحاديث الصحيحة التى تقدم تصورا أكثر حيوية وأكثر تنوعا لزوح
الاسلام مما يقدمه القرآن الذى يحو فى معظمه نحو التجريد (٩٤) .

(٩٣) هنا احسالة الى ص ٢٠٠ من كتاب بناته وللر حيث يعرض
بالتفصيل لما تضمنه كتاب جريمه من حديث عن علم العقيدة القرآنى .
(٩٤) علاقة السنة بالقرآن علاقة وثيقة ، فهى - كما يقول الامام
الشاطبى : « راجعة فى معناها الى الكتاب ، فهى تفصيل سجله وبيان
مشكله وبسط مختصره » ولا تجد فى السنة أمرا الا والقرآن قد دل على
معناه دلالة اجمالية او تفصيلية . والسنة ليست قاضية على الكتاب وانما
هى مفسرة له وشارحة لمعانى أحكامه . (راجع الموافقات للشاطبى ج ٤
ص ١٠ - ١٢) .

وإذا كانت فكرة الاشتراكية تحتل مكان الصدارة في هذا الكتاب الذي يقع في مجلدين عن سيرة محمد ، وهي فكرة قام سنوك هورجرونييه بتفنيدها ببراعة - فان حديث جريمه عن محمد في كتابه « تاريخ العالم في صور مميزة » يأتي بفرضية جديدة يحاول اثباتها وهي الاصل العربي الجنوبي لأفكار محمد الدينية . ومن أجل هذا الغرض خصص النصف الاول كله من دراسته لبحث التاريخ الاقدم لبلاد العرب . وهنا نتعرف على التاريخ السياسي والحضارى لبلاد العرب القديمه الشماليه والجنوبية .

والآن فان الاقتباس من جنوب العرب لا يعد عكس امرا محتملا ، بل هو امر راجح الى اقصى حد . اجل ، فهناك في عبادة الاسلام ، على كل حال أمور كثيرة مما كان في بلاد العرب القديمه بقدر اكثر مما كان يفترضه المرء في العادة .

ولكن الامر الذي يعد بعيد الاحتمال جدا هو ان تكون التأثيرات العربية الجنوبية وحدها هي كل شيء . فالأحرى انه لا يجوز التغاضي عن التأثيرات اليهودية والمسيحية والفارسية . ويضاف الى ذلك ان مكة كانت مدينة لها صبغة عالمية لدرجة كبيرة ، ومن ناحية أخرى كان ظهور محمد امرا غير عادي الى حد كبير (٩٥) .

ومن الطبيعي ان تتوقف التأثيرات العربية الجنوبية بالهجرة (الى المدينة) ، ومن هذه اللحظة فصاعدا فقد جريمه ايضا كل اهتمام بالتطور الدينى لمحمد . فكل شيء بعد ذلك يعد بالنسبة لجريمه مناورة سياسية لدجال امتن الدين من أجل غايات دنيوية . وقد كان هذا الراى عن محمد

(٩٥) الديانات السماوية تختلف في طبيعتها عن الديانات البشرية . فهذه تخضع لمنطق التأثير والتأثر . ومن هنا يمكن البحث عن أصولها وفروعها في حضارات وديانات تديية ، أما الديانات السماوية القائمة على الوحي الالهى فلا تخضع لهذا المنطق . وما يبدو فيها من تشابه يرجع الى وحسدة الأصل الالهى . والوحي اللاحق يصحح ما طرأ على الوحي السابق من عناصر غريبة . وقد بين القرآن - وهو النص الدينى الذى لم تنله يد التحريف والتبديل باعتراف كثير من المستشرقين وعلى رأسهم روى بارت صاحب أحدث ترجمة ألمانية للقرآن - بين ما طرأ على اليهودية والمسيحية من تصورات لم يتضمنها الوحي الأسمى ولا صلة لها بالوحي الحقيقى . ومنذ أن كشف القرآن عن ذلك والحمله مستمرة من أتباع هذين الدينين ضد الاسلام ، ولا تزال قائمة الاظهاره بمظهر الدين البشرى الملقب من ديانات وحضارات سابقة .

رأيا عاما شائعا في السابق ولا يزال الآن أيضا قوى الانتشار . ولكن محمدا لم يكن يجعل هناك أبدا فارقا بين الأمور الدينية والأمور السياسية . فهو يريد الانسان كله . والارتباط السياسي هو النتيجة البديهية تماما للتحويل الى الاسلام ، والرعاية السياسية لاتباعه تعد جانبا أساسيا لنيوته . وأيضا فان ضم الكعبة الى دائرة نظرتة أو تأمله لا يعد مناورة سياسية ، بل يعد تطورا دينيا داخليا .

وفي مقال خاص نشر في « مجلة الشرق الشهرية النمساوية » عرض جريمه مرة أخرى « أصول دين محمد » باختصار . فبجانب اليهودية والمسيحية كان هناك دين قائم في الجنوب العربي هو « دين الرحمانان » بناء على شهادات النقوش السبئية . ويحاول جريمه أن يصف هذا الدين من واقع النقوش وصفا دقيقا وأن يبين صلته الوثيقة بدين محمد . ونتيجة لبحوثه يقرر جريمه ان الاسلام « لم يكن شيئا ولد في رأس محمد ثمرة لتأمل أصيل دون أي تأثير من العالم المحيط به ، بل كان في بداياته الأولى كما كان في استمرار تطوره ... طالما كان هذا التطور يحدث على أرض مكة - متشابكا تشابكا وثيقا مع « دين الرحمانان » الجنوبي العربي » .

ويعترف النظر عما اذا كان « دين الرحمانان » هذا لم يثبت اطلاقا انه كان دينا خاصا فانه يبدو أن جريمه هنا أيضا لم يقدر قيمة التأثيرات اليهودية والمسيحية الا في أقل القليل . والأمر كله لا يعدو أن يكون فرضية طريفة! (٩٦) .



١٣ - بول (Buhl) :

في حين يوجه جريمه اكبر الاهتمام لتصوير البيئة المحيطة بمحمد فان بول (٩٧) الذي لم يترجم - للأسف - كتابه الممتاز عن سيرة محمد الى

(٩٦) الأخرى أن يقال أنها فرضية باطلة تستهين بعقول الناس . ماذا كان دين الرحمانان هذا المزعوم لم يثبت اطلاقا - كما يقول بفانمولر نفسه - أنه كان دينا خاصا له كيان متميز فكيف يمكن أن ينتج عنه هذا الدين العالمي المتمثل في الاسلام ؟

(٩٧) فرانكس بول (١٨٥٠ - ١٩٣٢) مستشرق دانماركي ، كان أستاذا للعهد القديم واللغات السامية . له دراسات اسلامية عديدة أهمها

الألمانية - يوجه اهتمامه الى موضوع التطور - الدينى لمحمد - فقد جمع بعناية فائقة - وأنا أقرر هنا بكلمات (ك.ه. بيكر) نظرا لأن الكتاب الأصيل لم يكن فى متناول يدي - جمع بين المراجع العربية والأوروبية، وناقش مشكلة بعد مشكلة بحرص وبغزارة فى الأسانيد جديرة بالتقدير - وبطبيعة الحال يقتفى فى الغالب أثر الثقافات المحدثين ، ولكن نادرا ما يكون ذلك دون نقد وتمحيص .

ومما هو جدير بالاعتبار بصفة خاصة تحفظه ازاء فرضيات معينة من الفرضيات الحديثة الطريفة ، مثل تلك الفرضيات التى عرض علينا بعضها (فنكلر Winckler) (٩٨) بصفة خاصة فى ثوب مغر . وقد خصص كذلك قسما كبيرا من الكتاب للبيئة التى انحدر منها محمد ، اى للعالم العربى الوثنى . وفى حياة محمد ذاتها جرى بول تفرقة محمودة بين الأسطورة والتاريخ . وفى العرض الرائع المختصر لقضية المصائب الذى أورده بول فى نهاية الكتاب يجد المرء تعليلا للأسس التى راعاها بول فى كتابه .

أما بالنسبة لموضوع التطور الدينى ذاته فقد انتفع بول كثيرا بمقالة سبنوك جورجروبييه (الاسلام De Islam) . وفى هذا الصدد نجد بول منصفا تماما لشخصية النبى . وهذا أمر يختلف تماما عن (موقف) جريمه الذى ظل النبى غريبا عنه داخليا .

وفى مقال لمجلة عالم الاسلام (The Moslem World) يقدم بول - على أساس كتابه الكبير عن سيرة محمد - عرضا مختصرا عن « اخلاق محمد بوصفه نبيا » يمتاز بدرجة كبيرة من الموضوعية .

وفى الكتاب التذكارى للاحتفاء بنولدكه يقدم لنا بول أخيرا « بعض اسهامات لنقد تاريخ محمد » وذلك فى قسمين :

- ١ - مقدمات معركة بدر .
- ٢ - الهجرة الى الحبشة .

* * *

كتاب عن « حياة محمد » الذى صدر فى كوبنهاجن عام ١٩٠٣ . وقد ترجم هذا الكتاب الى الألمانية عام ١٩٣٠ ، ونظرا لأن بمانمولر قد ألف كتابه عام ١٩٢٣ علم تكن الترجمة الألمانية قد ظهرت بعد الى حيز الوجود ، ومن هنا كان تعبيره عن الأسف لعدم ترجمة كتاب بول الى الألمانية .

(٩٨) فنكلر (١٨٦٣ - ١٩١٣) مستشرق ألماني .

١٤ - مرجليوث (Margoliouth) (٩٩) :

أما مرجليوث فإنه فى كتابه « محمد ونهضة الاسلام » قد أذتفع بسلسلة من المصادر الجديدة التى لم تكن قد استخدمت حتى ذلك الحين : وفى ذلك تكمن قوته كما يكمن ضعفه أيضا - كما يقول بيكر - . فالصورة نجدها حية جدا فى كثير من الحالات ، ولكن المؤلف يأخذ فى حالات كثيرة جدا الكساء المعهود للمذاهب المتأخرة على أنه تاريخ . كما أن المشكلة الدينية ، مثل التأسيس النفسى لعودة محمد الى طقوس العبادة المتعلقة بالكعبة ونزعه الابراهيمية ، نتراجع لدى مرجليوث بشكل ملفت للنظر ، فى حين أنه يتتبع بشغف ظاهرة الوحي لدى محمد ويقارنها بأقوال المذهب الروحى الحديث وبالمذهب المورمونى (Mormonism) (١٠٠) .

ويرى مرجليوث فى محمد دجالا مأكرا معدوم الضمير وسياسيا يخدع الآخرين بشعوذاته ، وبذلك يسد مرجليوث على نفسه الطريق لفهم اخلاق محمد وتطوره (١٠١) فالكتاب اذن له مزايا كبيرة ؛ ولكن أخطاءه كبيرة أيضا . والشئ الممتاز يتمثل فى تلك الصور العديدة (التى اشتمل عليها الكتاب) .

(٩٩) د . س . مرجليوث (١٨٥٨ - ١٩٤٠) مستشرق انجليزى معروف ، كان أستاذا للعربية فى جامعة اكسفورد منذ عام ١٨٨٩ ، له دراسات عديدة من الاسلام وتاريخه والأدب العربى وأصوله . . وقام بترجمة الكثير من النصوص العربية ، كما قام أيضا بتحقيق عدد من المخطوطات العربية . ومن مؤلفاته : محمد ونهضة الاسلام (١٩٠٥) والاسلام (١٩١١) وانتشار الاسلام (١٩١٤) وجنوب الجزيرة العربية والاسلام ، وأصول الشعر العربى (١٩٢٥) . وهذا البحث الأخير هو الذى اعتمد عليه الدكتور طه حسين فى كتابه عن « الشعر الجاهلى » عام ١٩٢٦ .

(١٠٠) انظر الهامش الذى سيأتى فى نهاية هذا البحث عن هذا المذهب عند الحديث عن ماير (Meyer) .

(١٠١) لقد كان بفانمولر محقا فى تعليقه على كلمات مرجليوث المسبغة بأنه بذلك قد سد على نفسه الطريق لفهم أخلاق محمد وتطوره . فالمالم يجب أن يرتفع عن مثل هذا الإسفاف ويرتفع الى مستوى المسئولية العلمية حتى يستطيع أن يرى الحقيقة كما هى دون زيف .

وقد كتب مرجليوث أيضا مقالاتين عن « محمد » احدهما فى دائرة المعارف البريطانية والأخرى فى دائرة معارف الدين والأخلاق . وتشتمل كلتا المقالتين أيضا على بيانات قيمة بالمراجع .



١٥ - جولدتسيهر (Goldziher) ومرحلة جديدة :

بدأت هناك مرحلة جديدة فى مجال البحث فى حياة محمد عن طريق بحوث جولدتسيهر حول « تطور الحديث » . وقد أثبت جولدتسيهر عن طريق عدد وفير من الأمثلة القاطعة أن « الحديث » ليس تاريخيا وإنما هو رواسب تعكس ميول شتى التيارات والتيارات المضادة فى حياة الاسلام (١٠٢) .

وأول من طبق هذه المعرفة بصورة حاسمة على حياة محمد كان (ليونى كيتانى Caetani) (١٠٣) صحيح أن إنتاجه الضخم (انظر ص ٣٦ وما بعدها) (١٠٤) لا يتضمن سيرة لحياة محمد بالمعنى الدقيق ، بل يشتمل فقط على عمل تمهيدي لذلك عن طريق جمعه الواسع للمادة

(١٠٢) اجناس جولدتسيهر (١٨٥٠ - ١٩٢١) مستشرق يهودى من أصل مجرى ، كان أستاذا فى جامعة بودابست . يعد من كبار أئمة الدراسات الاسلامية فى أوروبا ، كتب العديد من البحوث عن الاسلام باللغات الألمانية والانجليزية والفرنسية وغيرها . وقد شكك فى الأحاديث النبوية واعتبرها فى جملتها تعكس تطور الاسلام الدينى والتاريخى والاجتماعى فى القرنين الأول والثانى . وقد تلف كثير من المستشرقين من بعده هذا الزعم وبنوا عليه الكثير من النتائج . ولسنا هنا على معرض مناقشة هذه الدعوى التى تفتقد الأساس العلمى السليم ، فقد سبق أن ناقشنا ونقدنا وبين تهامتها عدد من علماء المسلمين . راجع فى ذلك على سبيل المثال : السنة ومكانتها فى التشريع الاسلامى للدكتور مصطفى السباعى . - انظر أيضا كتابنا : الاستشراق والخلفية الفكرية للمصراع الحضارى ص ٩٩ وما بعدها .

(١٠٣) الأمير ليونى كيتانى (١٨٥٩ - ١٩٢٦) مستشرق ايطالى . له دراسات واسعة فى تاريخ الاسلام .

(١٠٤) يشير بقائمولىر فى ص ٣٦ من كتابه الى كتاب كيتانى « حوليات الاسلام » فى تسع مجلدات ، وكتابة « دراسة لتاريخ الشرق » فى أربع مجلدات .

(العلمية) . وعلى أساس من هذا العمل التمهيدى تناول كيتانى العديد من الجزئيات المتعلقة بسيرة النبى بنقد أصيل وحاد ، وان كان فى بعض الأحيان أيضا يذهب فى النقد الى حد بعيد نسبيا . (قارن فى ذلك بوجه خاص النقد المفصل لتيودور نولدكه للمجلدين الأول والثانى فى « مجلة فبينا لمعارف الشرق » جزء ٢١ ص ٢٩٧ - ٣١٢) .

ولكن كيتانى كان - حسب قول نولدكه - منصفًا تمامًا لنفسية محمد الفريدة . ويبين لنا كيتانى بصورة ممتازة - طالما كان ذلك ممكنا - كيف تحول الداعية المتحمس لله تحولًا سريعًا ، بمجرد أن استقرت أقدامه فى المدينة ، الى سيد دنيوى وسياسى عبقرى دون أن يحدث فى باطنه تصدع واع وحقيقى ، والأمر الهام أن محمدا أيضا فى شتى تنظيماته وأعماله التى تجرح شعورنا الأخلاقى جرحا بالغًا لم يفقد الوعى بأنه أداة الله . هذا الاله الذى هو نفسه لديه نقاط ضعف انسانى الى حد ما (١٠٥) .

١٦ - لامانس (Lammens) :

يتابع لامانس (١٠٦) كلا من جولدتسيهر وكيتانى . ونحن ندين بالفضل للامانس لتلك السلسلة الكبيرة من البحوث عن تاريخ محمد التى

(١٠٥) الاسلام دين ودنيا ، سياسة وأخلاق ، عقيدة وشريعة ، وهذا أمر لا يريد المستشرقون أن يشعروا به . ثم ما هى تلك الأفعال التى صدرت من محمد وتجرح الشعور الأخلاقى لدى الأوروبيين جرحا بالغًا ؟ وما هى نقاط الضعف الانسانى التى يريد أن ينسبها كيتانى الى الله عز وجل ؟ هذا كلام غريب لا سند له على الإطلاق من عقائد الاسلام وتشريعاته . فالاسلام جاء ليتمم الله به مكارم الأخلاق ، وتنزيه الله فى الاسلام عن صفات المخلوقين ومخالفته للحوادث من الأمور المشهورة التى لا تحتاج الى مزيد بيان .

(١٠٦) الأب لامانس (١٨٦٢ - ١٩٣٧) بلجيكى المولد فرانسى الجنسية انضم الى سلك الرهبنة عام ١٨٧٨ كان استاذًا للعربية فى جامعة القديس يوسف فى بيروت التى تخرج فيها وتنتقل شرقًا وغربًا ثم استقر فى بيروت وتوفى بها . وله دراسات عديدة عن الاسلام وتاريخه وقد أشار نجيب المتيتى الى عناوين بحوث لامانس فى ثلاث صفحات كاملة . وكتابات لامانس تتسم بالتعصب ضد الاسلام . وهذا أمر ليس غريبًا على راهب يحاول أن يدافع عن دينه على حساب الاسلام .

تمتاز جميعها بحدة ذكاء رائعة واطلاع عظيم . ولكنها فى تشكيها اراء
المصادر غالبا ما تذهب فى ذلك الى حد بعيد اكثر من اللازم .

وقد ناقش كل من نولدكه وبيكر (١٠٧) فى مقالات مطولة نتائج
بحوث لامانس . وكان نولدكه - فى نقده المشار اليه لكتاب كيتانى -
قد عارض التشكك المجاوز للحد من جانب لامانس . وتناول نولدكه فى
مقالة خاصة بعنوان « الحديث وصلته بحياة محمد » (مجلة الاسلام
٥ ، ١٩١٤ ، ص ١٦٠ - ١٧٠) تناول اقوال لامانس بالتفصيل بنقد بالغ
العمق . ويذهب نولدكه أيضا الى القول بان التطور الداخلى لمحمد ،
والذى ادى الى النبوة ، يظل بالنسبة لنا من الامور الغامضة حقا ، كما
اننا لا نعرف الا القليل عن فترة نبوة محمد المكية . ولكن الاحاديث
تقدم لنا ايضا بعض الامور اليقينية عن هذه الفترة . وبانتقال محمد الى
يثرب نطا ارضا تاريخية واضحة :

« وعلى الجملة فاننى اذا اردت ان اخص وجهة نظرى فاننى يجب
ان اعبر تعبيرا حاسما ضد الراى القائل بأن السيرة (اى الوصف العربى
لحياة محمد) لم تكن الا مجرد ذيل او ملحق لتفسير القرآن . انها كثيرا
ما ترتبط بذلك برباط وثيق ، ولكنها مع ذلك مستقلة فى جملتها » .

وفى المجلد نفسه من مجلة « الاسلام » (ص ٢٠٥ - ٢١٢) يقدم
نولدكه حديثا مفصلا ونقدا لكتاب لامانس الرئيسى « مهد الاسلام » الذى
سنتحدث عنه بعد قليل بشيء من التفصيل .

وفى المجلد الخامس عشر من مجلة « ارشيف لعلم الاديان » قدم بيكر
فى تقريره عن المراجع حول الاسلام بيانا مختصرا بمضمون البحوث
المختلفة التى قام بها لامانس . وفى مقال خاص بعنوان « امور مبدئية
لدراسة لامانس للسيرة » فى المجلد الرابع من مجلة « الاسلام » ناقش بيكر
مرة اخرى مناقشة مبدئية آراء لامانس حول مصادر تاريخ حياة محمد .

(١٠٧) لقد سبق الحديث عن نولدكه فى هامش سابق . اما كارل
هينريش بيكر (Becker) (١٨٦٧ - ١٩٣٣) فهو مستشرق المانى ،
كان أستاذا فى هامبورج ويون ، له دراسات عديدة فى التاريخ الاسلامى .
وقد أنشأ مجلة « الاسلام » الألمانية (Der Islam) . عام ١٩١١ .

وقد أبدى (شفالي Schwally) (١٠٨) فى مواضع مختلفة من تنقيحه لكتاب نولدكه « تاريخ القرآن » (المجلد الأول ص ١٠١ وما بعدها ، والمجلد الثانى ص ٢٠ وما بعدها ، ص ٨٤ ، وبصفة خاصة ص ١٩٦ - ١٩٨ ، ٢١٤ وما بعدها) - أبدى رايه فى اهم مواقف لامانس . وعلى أساس من هذه الانتقادات نعرض للحديث باختصار عن اعمال لامانس الرئيسية .

فدراسة لامانس التى عنوانها « مكة بوصفها مركزا تجازيا حوالى عام ٦٠٠ ميلادية » يقف فيها بصورة رائعة وعناية دقيقة على ظروف مكة الاقتصادية والسياسية عند ظهور النبى .

اما مقالته « القرآن والحديث . كيف تمت كتابة سيرة محمد » فانها تقدم افضل نظرة توضح كيف يتصور لامانس نشأة شكل السيرة . وفى هذه المقالة يرى لامانس ان سيرة حياة محمد لا تقوم - كما يظن المرء غالبا - على مصدرين مستقلين هما تفسير القرآن والحديث النبوى ، بل ان المادة الحديثية كلها المتعلقة بحياة محمد وظهوره ليست شيئا آخر غير مادة تفسيرية مخترعة بشكل حر للإشارات القرآنية . فالمصدر الوحيد اذن لحياة محمد - وليس لتعاليمه - هو القرآن . وهذه الدعوى يعرضها لامانس بكثير جدا من الذكاء الحاد عن طريق الأمثلة الكثيرة .

ويرتبط بهذه المقالة ارتباطا وثيقا عمل آخر يتمثل فى بحثه عن « عصر محمد والترتيب الزمنى للسيرة » . وهنا يبين لامانس اضطراب وضعف بيانات الترتيب الزمنى التى تبدو كأنها بيانات دقيقة والتى تشمل عليها الأحاديث (النبوية) الاسلامية عن حياة محمد . ويجب ان ننظر الى هذه البيانات على انها محاولة أجريت بوسائل غير كافية تماما من جانب علماء الخلف المقلدين الذين كانوا مهتمين بمسائل الترتيب الزمنى وقاموا بإدماج الأحاديث الشفوية - التى تفتقد أصلا التحديد الزمنى الدقيق - فى قالب تاريخى . ولا يريد لامانس ان ينكر احتمال ان تكون

(١٠٨) فريدرش شفالي (١٨٦٣ - ١٩١٩) مستشرق ألماني نشر كتاب المحاسن والمسايى للبيهقى عام ١٩٠٢ . واشترك فى نشر الطبقات لابن سعد ، وله دراسات فى القرآن والجغرافيين العرب وجغرافية مصر .

هناك على الأقل بعض بيانات جديدة بالتصديق في هذا الترتيب الزمني الذي هو فيما عدا ذلك مصنوع تماما (١٠٩) .

والكشف عنها (أي عن البيانات الصحيحة) هو مهمة بحث نقدي خاص . ويريد لامانس أن يخفض مدة حياة محمد وعمره عند الأحداث الحاسمة عقدا من الزمان على الأقل - على عكس ما تقول به الأحاديث (١١٠) .

ويهتم لامانس أيضا بالسؤال القديم : « هل كان محمد مخلصا » ؟ . ويعتقد لامانس - بناء على تحليل نفسي دقيق - أنه يتحتم الاجابة بالنفي على هذا السؤال (١١١) .

ويعبر لامانس في بحثه « حكومة الثلاثة : أبي بكر وعمر وأبي عبيدة » عن الافتراض بأن هؤلاء الرجال الثلاثة قد جمعوا شملهم قبل وفاة النبي ثم بعد وفاته على وجه اليقين لكي يمنعوا سقوط الدولة ، وانهم اذن لم يكونوا متحمسين دينيين أيضا ، بل كانوا ساسة حصفاء (١١٢) .

(١٠٩) هدف الأب لامانس هو التشكيك والذهاب في ذلك الى أبعد مدى . وقد لاحظ ذلك أيضا بعض المستشرقين المعتدلين نسبيا ورفضوا وجهات نظره المجاوزة للحد كما هو واضح من مناقشات كل من تولدكسه وبيكر وشفاللي وملاحظات بمانبولر أيضا .

(١١٠) هذه نظرية غريبة لم يقل بها - فيما نعلم - أحد من المستشرقين ولا من غيرهم من قبل . ولعلها محاولة من جانب لامانس ليبنى عليها ما يريد أن يستنتجه من المزيد من التشكيك .

(١١١) لامانس حر في أن يعتقد ما يشاء ، ولكنه ليس حرا حينئذ في أن يحدثنا عما يعتقد باسم العلم فالعلم بريء من مثل هذه الأراجيف الباطلة . فحياة محمد صلى الله عليه وسلم ناسعة البياض في كل جوانبها من بدايتها الى نهايتها . ولكنه منطلق التعصب الذميم يعمي القلوب والأبصار عن رؤية الحقيقة .

(١١٢) عينا يحاول المرء اتهام المستشرقين بأنه لا انفصالية بين الدين والسياسة في الإسلام ، فهناك اصرار على فرض مفهومهم للدين على الإسلام . ونحن من جانبنا لا نقبل هذا المنهوم لأنه مفهوم قاصر لا يأخذ في اعتباره إلا الجانب الروحي فقط من الإنسان . والإسلام بتعاليمه جاء ليقوم التوازن بين كل جوانب الانسان الروحية والعقلية والجسمية . فمتى يدركون ذلك ؟

وقد تناول بيكر بالتفصيل دراسة مطولة أخرى للامانس حول موضوع « فاطمة وبنات محمد ، ملاحظات نقدية لدراسة السيرة » (مجلة الاسلام ، ٤ ، ١٩١٣ ص ٢٦٣ - ٢٦٩) .

ويعترف بيكر عن طيب خاطر بالخدمات الكبرى للامانس في مجال البحث النقدي لحياة محمد ويوافقه في الحكم على التصوير الاسلامي لسيرة النبي ، فهذه السيرة ليست مصدرا تاريخيا مستقلا ، بل هي مأخوذة في وقت متأخر من تفسير القرآن ومن الأحاديث المختلفة التي أتت نتيجة للميول العقديّة والفقهية ، ونسقت تنسيقا بيوجرافيا ، فالسيرة اذن انتاج متأخر .

ولكن بيكر يؤكد - معذرا من حكم لامانس - أن هناك في السيرة بجانب الكم الكبير من القصص المغرضة أخبارا عديدة لم يثبت أنها مغرضة ، وتسمح يقينا باعادة بناء صورة تاريخية . ويتهم بيكر لامانس انه بصفة خاصة لم يكن في نقده منطقيًا مع نفسه بقدر كاف ، بل كان يسلم بالصورة السيئة للمأثورات المغرضة الموجهة ضد على دون فحص وياخذها على أنها صورة تاريخية لدرجة تجعل تصويره يسقط في عشوائية تامة .

وبعد كل هذه الدراسات التمهيدية قام لامانس في كتابه الرئيسي « مهد الاسلام » ببيان الصورة التاريخية لنشأة الاسلام من المصادر وبالتفصيل القول في مجال هذه الصورة كله . واقتناعا منه بأهمية معرفة البيئة يخصص لامانس المجلدين الأولين - اللذين لم يظهر منهما حتى الآن الا المجلد الأول فقط - لوصف أماكن مولد الاسلام ، ووصف بلاد العرب الغربية وسكانها . وعلى أساس من الاطلاع الواسع الذي يحمد عليه في كل أنواع المراجع العربية القديمة ، التي سجل معلوماتها في آلاف الهوامش ، استطاع لامانس أن يصف الأرض والناس في الحجاز في عصر ظهور النبي وصفا حيا الى أقصى حد .

ويضع لامانس بين القسمين الرئيسيين للكتاب - حيث يصف اولهما الظروف الاقتصادية والطبيعية للبلاد ، ويصف ثانيهما حالة اوضاع حياة القبائل البدوية (أما السكان القاطنون المستقرون فانه يصفهم في المجلد الثاني) - يضع مناقشة جدية جدا بالتقدير للدعوى الجديدة التي تذهب الى القول بأن الطقس قد تغير في بلاد العرب تغيرا أساسيا في زمن تاريخي . فالتحول المستمر للبلاد الى صحراء غير مأهولة

بالسكان كان الدافع الحقيقي للفيضانات البشرية الكبيرة من جانب سكان « مجلس الشعوب » العربية الى بلاد الحضارة المجاورة ، وبصفة خاصة أيضا كان الدافع الحقيقي للفتوحات الاسلامية . (قارن ايونى كيتانى ص ٢٧) (١١٣) .

ويعد لامانس خصما لدودا لهذه النظرية ، ريواجهها بصفة خاصة بحقيقة مؤداها ان تاريخ اقتصاد الحجاز يدل على انه كان هناك مستوى عال لحضارة البلاد فى القرون السابقة مباشرة لظهور محمد ، ويدل على كل شىء آخر غير الاقفار العام والفقر الذى يمكن ان يدفع الى توسع عنيف .

ويمكن القول على وجه الاجمال بان لامانس بمؤلفاته كلها قد جمع مادة (علمية) عظيمة لتاريخ حياة محمد ، نقدم لكل باحث - مع استخدام النقد الضرورى - اشارات ثرية .

اما احدث تصوير انجليزى لحياة محمد من جانب كل من (كانون سل و درايكوت G. M. Draycott) فلم يكن فى متناول يدى . واستنادا الى ما يقوله (ت . ف . ارنولد Arnold) (١١٤) فان درايكوت لم يعتمد على المصادر ، ولم يعرف لا دين النبى نفسه ولا المؤلفات الاساسية عن الاسلام . (قارن : مجلة تاريخ الاديان ٨٠ ، ١٩١٩ ص ٢٨٣) .

* * *

(١١٣) يشير بفانمولر فى ص ٣٧ الى معنى كيتانى للنظرية القائلة بان الجفاف المتزايد فى بلاد العرب هو الذى دفع المسلمين الى الفتوحات الاسلامية واضطر السكان الى الهجرة .

(١١٤) لم نشر فيها بين ايدينا من مراجع على ترجمة لحياة كل من سل ودرايكوت . أما السير توماس ارنولد (١٨٦٤ - ١٩٣٠) فهو مستشرق انجليزى كان استادا فى جامعة عليكره ولاهور بالهند ثم أصبح استادا للعربية فى مدرسة اللغات الشرقية فى لندن . له دراسات اسلامية عديدة . وأهم مؤلفاته كتاب « الدعوة الى الاسلام » الذى ترجم الى العربية والتركية والأوردية .

خامسا : كتابات شعبية عن حياة محمد

١ - ريكندورف (Reckendorf) :

من بين المؤلفات الشعبية العديدة عن حياة محمد نذكر فقط كتاب « محمد وأصحابه » من تأليف ريكندورف (١١٥) ، وكتاب « حضارة العرب » من تأليف يوسف هيل . وقد ظهر كلاهما في مجموعة « العلم والثقافة » .

وريكندورف وان كان لم يقدم ترجمة حقيقية لسيرة محمد الا انه قد نجح بصورة رائعة في توضيح الاسس الاجتماعية والحضارية والاقتصادية والسياسية والذاتية للاسلام في بداياته بشكل مترابط .

ويتناول ريكندورف في فصول اربعة (الموضوعات التالية) :

١ - قوة تأثير اعمال محمد ونشاطاته .

٢ - حروب محمد .

٣ - اصحاب محمد .

٤ - رئيس الدولة والرعية .

وفي فصل خامس يقدم لنا نظرة على تطور الأحداث بعد وفاة محمد . ويعقب ذلك ملحق يشتمل على ذكر أهم المراجع . ويستند عرض الموضوعات على القرآن بصفة خاصة ، ولكنه يعطى أحيانا - رغم كل النقد - ثقة أكثر من اللازم للحديث . ومن بين الأخطاء التي يبرزها سنوك هورجرونييه بصفة خاصة في نقده المفصل (المنشور في جريدة الأدب الألماني ١٩٠٧ عمود ١٣٠٩ - ١٣١١) بعض الأخطاء التي تتعلق بقصور المعرفة للقوانين العربية للأسرة .

(١١٥) هـ . ريكندورف (١٨٦٣ - ١٩٢٤) مستشرق ألماني ، كان استاذا للعربية في فرايبورج . وقد صدر كتابه المشار اليه في ابيتنج عام ١٩٠٧ .

١٩٣

(١٣ - الاسلام في صحراء العرب)

٢- هيسل (Hell) :

ويقدم هيل أيضا في الفصل الثاني من كتابه « حضارة العرب »
صورة حية لحياة النبي وتعاليمه (١١٦) .

٣ - كامبفماير (Kampffmeyer) :

في أربع مقالات - تدل على خبرة علمية - كتبها كامبفماير (١١٧)
لمجلة « العالم المسيحي » يصف القرآن باعتباره مصدر حياة محمد ،
ويصف أحوال بلاد العرب قبل الاسلام ، ويعرض تعاليم محمد . (عقيدة
البعث والحساب ووحدانية الله والقضاء والقدر ومفهوم الوحي وتعاليم الأخلاق
القرآنية) . ويختتم مقالاته بنظرة على تطور الاسلام بعد ذلك .

٤ - ريسم (Rehm) ، وفورتس (Würz) :

أما تصوير ريسم لمحمد ولعالم الاسلام في سلسلة مكتبة ريكلام العالمية فقد
جاء شعبيا أكثر من اللازم، ولم يكن منصفًا للحضارة العقلية للاسلام (١١٨) .
وفي «مجلة التبشير الانجيلي» (مجلد ٦٦ ، ١٩٢٢ ، ص ٢٧٢
وما بعدها) القى « ف. فورتس » نظرة سريعة على « محمد وأعماله » .

٥ - مايسر (Meyer) :

وفي النهاية نشير أخيرا الى تلك المحاولة الهامة التي قام بها ادوارد

(١١٦) يوسف هيل (١٨٧٥ - ١٩٥٠) مستشرق ألماني ، كان
أستاذًا بجامعة ارلانجن بألمانيا وله اهتمام خاص بالشعر العربي . وقد ظهر
كتابه « حضارة العرب » في ليبتيج عام ١٩٠٩ ثم أعيد طبعة عام ١٩١٩ .
وقد ترجمه الى الانجليزية خودابخش عام ١٩٢٥ .

(١١٧) ج . كامبفماير (١٨٦٤ - ١٩٢٦) مستشرق ألماني ، كان
أستاذًا للغة العربية في ماربورج ورأس تحرير مجلة « عالم الاسلام » ، له
دراسات في الأدب العربي المعاصر .

(١١٨) ظهر كتاب ريسم بالألمانية عام ١٩١٥ ، ليبيتيج بعنوان :

« محمد وعالم الاسلام » .

ماير (١١٩) فى استخلاص أوجه الشبه بين ظهور محمد ومؤسس طائفة المورمون جوزيف سميث (١٢٠) .

ويربط ماير أقدم سورتين - طبقا لما ورد بشأنهما فى الأحاديث وهما السورة رقم ٧٤ والسورة رقم ٩٦ - يربطهما بالرؤى الروحية التى شهد بها النبى نفسه ، (مرة) وقت شعوره باصطفائه على جبل حراء ، (ومرة أخرى) عند « شجرة سدرة المنتهى » . ويفسر ماير شجرة سدرة المنتهى - متفقا فى ذلك مع اشبرنجر - بمكان معين لدى مكة ضاعت معالمه بعد ذلك (١٢١) .

ويؤيد ماير الفهم القائل بأن كلمة « اقرأ » فى بداية السورة رقم ٩٦ يجب أن تفهم بمعناها الحقيقى وانها تنسحب على الوحي .

وبصرف النظر عن أن ماير قد ترجم الكلمة العربية « اقرأ » ترجمة خاطئة بمعنى (Lesen) (أى بالمعنى المعهود الذى تدل عليه الكلمة

(١١٩) ادوارد ماير (١٨٥٥ - ١٩٣٠) مسشرق ألماني . وقد صدر كتابه عن « أصل المورمون وتاريخهم مع نظرة حول بدايات الاسلام والمسيحية » فى ماله بألمانيا عام ١٩١٢ .

(١٢٠) المورمون طائفة مسيحية ، أسسها فى الولايات المتحدة عام ١٨٣٠ جوزيف سميث (١٨٠٥ - ١٨٤٤) وادعى أنه يوحى اليه - وقد أسس المورمون عام ١٨٤٨ مدينة المورمون انتظاراً لعودة المسيح . والسؤال الآن هو : أى أوجه شبه يريد أن يستخلصها ماير من مقارنته بين بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ومؤسس هذه البدعة الجديدة جوزيف سميث ؟ أن هذا ضرب من العبث واستهانة بعقلية القارئ الذى لا تخفى عليه أهداف هذا العبث الذى ليس له مبرر دينى أو أخلاقى .

(١٢١) وردت «سدرة المنتهى» فى سورة النجم فى قوله تعالى : «ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى» (النجم: ١٣-١٥) والسدرة معناها شجرة . أما أنها سدرة المنتهى أى التى ينتهى إليها المطاف فجنة المأوى عندها ، أو التى انتهت إليها رحلة المعراج أو التى انتهت إليها صحبة جبريل لرسول الله صلى الله عليه وسلم - أما أنها شجرة كانت فى مكان معين لدى مكة ضاعت معالمه بعد ذلك ، فهذا أمر لا يمكن فهمه من سياق الآيات على الإطلاق . وليس له ما يبرره إلا محاولة فهم الاسلام بأنه متلوع الصلة بالسماء ..

وهو القراءة) ، ففى حين أن المعنى المقصود هو « يتلو »
(reztieren) (١٢٢) - بصرف النظر عن ذلك فإن مقارنته مفيدة ومثيرة
للاهتمام ، وإن كان أيضا يجاوز الحد فى بعض الأحيان .

(قارن النقد المفصل الذى كتبه (يوهانز بيدرسين Pedersen)
فى مجلة « الاسلام » ٥ ، ١٩١٤ ص ١١٠ - ١١٥) .

* * *

(١٢٢) كلمة « اقرأ » فى قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق »
(الملق : ١) تعنى القراءة لا التلاوة . ويؤيد ذلك ما ورد فى حديث بدم الوحي
الذى رواه الامام أحمد والشيخان عن عائشة وبنه : « فجاءه الملك فقال :
اقرأ ، قال : ما أنا بشارىء . » فرده عليه الصلاة والسلام بقوله : « ما أنا
بشارىء » يدل على أن المراد هو القراءة بمعناها المهود .

محتويات الكتاب

الصفحة	
٣	المقدمة

الفصل الأول : الاستشراق من وجهة النظر الاسلامية (٧ - ١٨)

٧	آثار بعيدة للاستشراق
٧	ردود الفعل في العالم الاسلامي
٩	التيار النقسدي
١٠	تقييم موضوعي
١٠	ايجابيات المستشرقين
١١	مآخذ على اعمال المستشرقين
١٤	الاسلام وحده هو المستهدف
١٥	الاستشراق ومسئولية المسلمين
١٧	اهمية الحوار مع المستشرقين المعتدلين

الفصل الثاني : الاسلام في الفكر الاستشراقي (١٩ - ٧٦)

١٩	تمهيد
٢١	ترجمة وتعريف
٢١	ريلاند
٢٣	جورج سسيل
٢٥	مرادجيا دوهسون
٢٧	جارسين دي تاسي
٢٨	راينهارت دوزي
٣٣	الفريد فون كريمر
٣٥	سنوك هورجرونجه
٣٦	اجناس جولد تسيهر
٤١	ماكسدونالد
٤٦	مرجليوث
٤٨	مارتين هارتمان
٥٠	برونسو فيوليت

الصفحة	
٥١	شوبرت - زايتمس
٥٢	لييل - شينجلر
٥٢	فرانتس بسول
٥٤	اويستروب
٥٥	كاستريز
٥٦	كارا دي فو
٥٩	دراسات تبشيرية عن الاسلام
٦٢	اتجاهات اسلامية هندية حديثة
٦٥	الاسلام في كتب تاريخ الاديان
٧٤	نصوص اسلامية مترجمة

الفصل الثالث : سيرة الرسول في تصورات الغربيين (١)
(٧٧ - ١٢٧)

٧٧	تمهيد
٨٠	ترجمة وتعليقات
٨٠	فكتور شوفان
٨٤	ريسland
٨٥	بولانفليسيه
٨٦	جان جانبييه
٨٧	سيل - فولتير
٨٩	جوستاف فايل - كوسان دي برميغال
٩١	مويسر
٩٢	اشبرنجر
٩٤	نولدكه
٩٥	بيير مارتينو
٩٩	مينسور
١٠١	فولفسل
١٠٣	هاز
١٠٥	تور اندريه
١١١	شفاللي
١١٣	اسطورة العصر الوسيط عن محمد صلى الله عليه وسلم
١١٣	كواريسميوس - رينو
١١٤	زيو ليكي - ادلستان دوميريل - دي لينس

الصفحة	
١١٥	جاس
١١٦	بروتس
١٢٠	دانكونا
١٢٣	كاسترى - شرودر
١٢٤	دريسسباخ
١٢٥	دوتيه
١٢٦	باسيه

الفصل الرابع : سيرة الرسول في تصورات الغربيين (٢)
(١٢٨ - ١٩٦)

١٢٨	تمهيد
١٣٢	ترجمة وتعليقات : التراجم الحديثة لسيرة محمد صلى الله عليه وسلم
١٣٢	أولا : من بوديه الى سيل
١٣٢	ميشيل بوديه
١٣٤	ادوارد بوكوك
١٣٥	هوتنجر
١٣٦	الكسندر روس
١٣٧	ماراتشى
١٣٨	بريدو
١٣٩	بولانقلييه - جانبيه
١٤١	جورج سيل - ايرهارت
١٤٢	ثانيا : عصر التنوير الفرنسى
١٤٢	فولتير
١٤٣	اثر كتابات فولتير فى الأوساط الثقافية

ثالثا : من عصر التنوير الالمانى الى ظهور أول كتاب تاريخى نقدى

١٤٥	عن حياة محمد صلى الله عليه وسلم
١٤٥	ليينتز - ليسنج
١٤٧	جوته
١٤٨	جيسون
١٤٩	هردر
١٥٠	اولزير
١٥١	رينسو
١٥٢	هامر - برجشتال
١٥٣	كارلايسل

الصفحة

	رابعاً : الكتابة التاريخية النقدية لحياة محمد في القرنين
١٥٥	التاسع عشر والعشرين
١٥٥	جوستاف فايسل
١٥٨	كوسان دي برسيفال
١٥٩	ارفينج - رينان - ارنست ماير
١٦٠	وليم مويسر
١٦١	اشيرنجر
١٦٥	نولدكسه
١٦٦	كريسل
١٦٧	اوجست مولر
١٦٩	هوبرت جريمه
١٧١	سنوك هورجرنجيه
١٨٣	بول
١٨٥	مرجليوث
١٨٦	جولدتسيهر
١٨٧	لامانس
١٩٣	خامساً : كتابات شعبية عن حياة محمد صلى الله عليه وسلم
١٩٣	ريكندروف
١٩٤	هيل - كامبماير - ريم - فورتنس - ماير
١٩٧	محتويات الكتاب

الترقيم الدولي ٩٧٧-٣٠٧-١١٠-٣

رقم الايداع ١٩٨٧ / ٤١٦٥